القسم الثانى

" الدراسـات التطبيقية "

- أسلوب السياب وملامح الحداثة اللغوية .
- سمات أسلوبية فى شعر صلاح عبد الصبور .
- تزاوج الاستطيقى والأيديولوجى فى الخطاب الشعرى (نموذج من محمود درويش) .
- الوطن المحرم وقضية اللغة فى قصيدة النثر .
- الخطاب الروائى فى " ثرثرة فوق النيل " .
- حوار الحكيم وتجربة اللغة الثالثة .
- اللغة والبناء الدرامى فى مسرحية " رطل اللحم " .

obeikandl.com

obeikandl.com

أسلوب السياب وملامح الحداثة اللغوية

يدور شعر السياب – فى جملته – حول محورين موضوعيين رئيسيين :

(أولهما) هو شعره فى الحب والمرض والغربة.

(والآخر) شعره فى الواقع السياسى والاجتماعى فى بلده العراق، أو فى الوطن العربى بعامة.

وتتداخل موضوعات المحور الأول من شعر السياب تداخلاً عجيباً، لا نكاد نجد له نظيراً فى شعرنا الحديث. ولا شك أن هذا التداخل، إنما يرجع إلى طبيعة التجربة التى خاضها السياب، فقد خفق قلبه بالحب وهو يعانى من ألم المرض وعذاباته، ثم ارتحل إلى أوروبا وبعض البلدان العربية بحثاً عن الشفاء وأملاً فيه، فكانت قصائده فى الغربة والحنين إلى أهل بلده. ولقد أثر هذان المحوران، لاسيما الأول منهما، فى لغة السياب وأسلوبه تأثيراً فريداً، يغرى بالبحث وطول التأمل.

وهذه الدراسة لا تركز أساساً على وصف اللغة فى استخدام الشاعر، مقارنة بالنظام اللغوى العام؛ وإنما تعنى من ذلك بما يقدم لنا ملامح الحداثة اللغوية فى شعره ومظاهر استخداماته الخاصة وما لها من قيم أسلوبية. وبناء على ذلك، فإن هذه الدراسة سوف تنصرف إلى إلقاء الضوء على أهم تلك الملامح والمظاهر، بالإفادة من معطيات علم الأسلوب العام. ولذلك، يمكن القول بأنها تدخل فى إطار ما يعرف باسم (علم اللغة الأسلوبى Stylolinguistics) الذى يعنى بالوصف اللغوى للمثيرات الأسلوبية Stimuli، كما يعنى بطرق تحديد مثل هذه المثيرات وإثباتها. ولكننا قد نتجاوز ذلك إلى الإشارة إلى التأثيرات الإخبارية والدلالية والجمالية الكاملة للمثيرات الأسلوبية. وذلك هو مجال علم السلوك الأسلوبى Stylobehaviouristics، الذى يدرس العوامل المرتبطة بالمثيرات واستجاباتها.

ويعتمد اهتمام عالم اللغة بالاستجابات للمثيرات الأسلوبية على حدود نظامه الخاص، وينظر إلى الاستجابة للمثيرات الأسلوبية باعتبارها مفاتيح مهمة لفهم معنى مثل تلك المثيرات، والمعنى يعد – بلا شك – الشاغل الرئيسى فى أية دراسة للغة[1].

ونحن فى دراستنا لملامح الحداثة اللغوية، نقوم بأنفسنا بدور ترتيب استجاباتنا وتحديدها وتصنيفها وربطها بالمثيرات الأسلوبية المسببة لها.

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك :

Enkvist, N.,E.,Linguistic Stylistics, Mouton, the Hague – Paris (1973)PP. 34 – 35

الانطلاق – إذاً – يكون مساره من دراسة العناصر والمكونات اللغوية لشعر الشاعر، إلى القيم الأسلوبية والجمالية التى تقدمها لنا هذه العناصر والمكونات.

ويتميز شعر السياب – بوجه عام – بالتوفيق بين اللغة ونظمها المورفولوجية والتركيبية وبين الاستخدام الخاص لأغراض فنية وجمالية مختلفة. وتكشف دراسة شعره – على مستوى البناء اللغوى العام – عن اقتداره على التحديث فى لغة الشعر، يساعده على ذلك تنوع التجارب وخصوبتها.

ومن الملحوظات الأولية فى شعر السياب، أن حداثته ليست حداثة ملكة شعرية قوية فحسب، وإنما هى – بالأحرى – حداثة ملكة وثقافة واسعة فى آن معا. وحداثة السياب ليست كذلك حداثة (تغريب) و (تجريب)، بل هى حداثة الشاعر واجتهاده لأن يكون منتجا ومستحدثا لا مستهلكا وتابعا. حداثة السياب – إذاً – حداثة تجديد للإمكانيات اللغوية – الأسلوبية التى تتمتع بها العربية وانتقاء السامى الحى من تلك الإمكانيات وإعلائه وإعادة توزيعه، بعد تخليص النسيج اللغوى الشعرى من شوائب القوالب الرثة المستهلكة، التى ربما كان بعضها ذات يوم من درر القول.

وتبرز (إنتاجية) السياب اللغوية التى نتحدث عنها من خلال بضعة خصوصيات يعرف بها شعره، نقدمها فيمايلى :

(١) الثنائيات المتضادة :

تعكس الثنائيات المتضادة – فى حقيقتها – حالة من التنازع النفسى وحدة المزاج والعصابية. ومع السياب يرتبط الأمر بتفريغ لغوى صادق لمعاناة نفسية واقعية. ونقدم الآن هذا النموذج :

أخاف أن أحس المبضع حين يجرح

فأستغيث صامت النداء[1].

والجمع بين الاستغاثة – التى تكون مسموعة بداهة – وصمت النداء، مما يعبر عن ألم عميق مكبوت، وتحامل عاجز .

وقد يأخذ التضاد صورة تركيبية أخرى، بنفى كلا المتضادين، كقوله :

... وكان يحلم فى سكون ، فى سكون :

---

(١) الوصية، من : المعبد الغريق : ديوان السياب، دار العودة – بيروت (١٩٧١)، ص ٢٢١.

بالصدر، والفم، والعيون،

والحب ظلله الخلود ..

فلا لقاء ولا وداع[1].

فالتوسل بالجمع بين المتناقضين (لقاء) و (وداع) — منفيين — هو تعبير عن رغبته فى حب خالد. إنه يرفض اللقاء؛ لأنه يرفض الوداع. وإذا كانت هاتان الكلمتان تحملان دلالة زمنية، فهو يريد أن يتجاوز — فى حبه — الزمن؛ لأنه يريد الحب الذى يظلله الخلود !

وقد يلجأ السياب إلى الجمع بين المتناقضين لوصف الحالة التى يكون عليها الشئ وصفاً دقيقاً، كقوله :

تعالى ، فما زال نجم المساء

يذيب السنا فى النهار الغريق،

ويغشى سكون الطريق

بلونين من ومضة وانطفاء[2].

فمازال ضوء النجم يتداخل مع ضوء أول النهار، ومازالت فيه ومضة ضوء، وإن شرع فى الانطفاء.

وقد تتوالى الألفاظ المتضادة فى شعر السياب على نحو ملحوظ جداً كقوله :

أنا من تريد، فأين تمضى ؟ فيم تضرب فى القفار

مثل الشريد ؟ أنا الحبيبة، كنت منك على انتظار

— — — —

أنا من تريد، وسوف تبقى : لاثواء ولا رحيل،

حب إذا أعطى الكثير، فسوف يبخل بالقليل،

لا يأس فيه ولا رجاء[3].

هنا تتوالى الثنائيات المتضادة : لا ثواء X لا رحيل، أعطى X بخل، الكثير X القليل، لا يأس X لا رجاء. فى الثنائيتين: الأولى والرابعة يتجاوز الزمن المحدود إلى الزمن المطلق.

---

(١) فى السوق القديم، من : أزاهير وأساطير ص ٢٥.

(٢) أساطير، أزاهير وأساطير ص ٣٥.

(٣) فى السوق القديم، من : أزاهير وأساطير ص ٢٦ ، ٢٧.

وإذا كانت الحبيبة ترى أنها قد أعطته الكثير؛ حبها، وبخلت عليه بالقليل؛ باللقاء، فهو يرى أن الحبيبة لم تعطه الكثير ولا القليل (وتأمل استخدام "سوف" بعد الأداة " إذا ").

ويصل هذا الجمع فى مواضع أخرى من شعر السياب إلى درجة (التراكم) كقوله :

الأرض ؟ أم أنت التى تصرخين ؟

فى صمتك المكتظ بالآخرين، فى ذلك الموت،

المخاض، المحب، المبغض، المنفتح، المقفل[1].

والخطاب هنا إلى (جميلة بوحريد). فهى لا تصرخ فى مفرد، وإنما تصرخ فى متعدد. وقد يكون المتعدد بالاختلاف حاملاً لدلالة قوية على امتداد الصرخة وشمولها واتساعها، ولكن التعدد بجمع المتناقضين جنباً إلى جنب، يحمل دلالة أقوى على ذلك الشمول والاتساع.

وميل السياب إلى الجمع بين المتناقضات على هذا النحو، يجعله – أحياناً – يرى الأشياء أو يحسها فى غير ما ترى أو تحس فيه. فقد يرى الهجير فى السهر :

فديتُ التى صوَّرتها مُناى وظِلُّ الكرى فى هجير السهر[2].

فهو ينقل لفظة (الهجير) من حقلها الدلالى الذى تستخدم فيه إلى حقل دلالى آخر، لقيمة أسلوبية جمالية، فإذا كان (الهجير) فى حقله المألوف يعنى اشتداد الحر، فإنه هنا يدل على اشتداد الأرق وطول السهر.

وتغير الحقل الدلالى للكلمة، نراه فى غير موضع من شعر السياب، فهو ينشق الضياء وبعض الهواء فى قوله :

غداً أموت ولن يظل من قواى ما يظل من خرائب البيوت :

لا أنشق الضياء، لا أعضعض الهواء[3].

(٢) ظاهرة التضعيف ونماذج التحديث :

يميل السياب إلى تضعيف الأفعال أو إيثار المضعف منها على نظيره غير المضعف. ففضلاً عن كثرة دوران الأفعال المضعفة – فى الأصل – فى شعره، مثل : نث، صك، اختض، سف، أج ... الخ، نجد عنده ميلاً قوياً، بل طاغياً إلى تضعيف الأفعال. إن التضعيف قرين

---

(١) إلى جميلة بو حريد، أنشودة المطر ص ٣٧٩ ، ٣٨٠.

(٢) أهواء، أزاهير وأساطير ص ١٣.

(٣) دار جدى، المعبد الغريق ص ١٤٥.

السياب ومتكؤه الأثير. إنه دواؤه الملازم الذى يجد به ومعه راحة من دائه. ولا نبالغ إذا قلنا : إن السياب ليس فقط أكثر الشعراء المعاصرين تضعيفاً أو إيثاراً للمضعف، بل هو أكثر شعراء العربية على الإطلاق وأبرزهم من هذه الزاوية.

ونماذج تضعيف غير المضعف فى شعر السياب ليست قليلة، لعل من أشهرها :

عصّر فى مقابل عصر[١]

خوّض فى مقابل خاض[٢]

سقّى فى مقابل سقى[٣]

فقّأ فى مقابل فقأ[٤]

هزّأ (به) فى مقابل هزأ (به) [٥].

وقد يؤثر السياب الفعل المضعف على نظيره غير المضعف . ويبدو لنا ذلك فى صورتين اثنتين :

(الأولى) إيثار " فَعّل " — بتضعيف العين — على " فَعَل ".

(الثانية) إيثار " فعّل " — بتضعيف العين أيضاً — على " أفَعْلَ ".

أما الأولى، فمن أمثلتها قوله :

وأوقدت المدينة نارها فى ظلَّة الموت،

تقلع أعين الأموات، ثم تدس فى الحفر

بذور شقائق النعمان، تزرع حبة الصمت[٦].

ومن أمثلة الصورة الثانية قوله :

---

(١) سلوى، شناشيل ابنة الجلبى ص ٦٨.
وقارن : أم البروم، المعبد الغريق ص ١٣٣، وحفار القبور، أنشودة المطر ص٥٥٥.
(٢) إقبال والليل، شناشيل ص ٧١٨.
(٣) سفر أيوب (٣)، منزل الأقنان ص ٢٥٦.
وقارن : منزل الأقنان، الديوان نفسه ص ٢٨٠.
(٤) من رؤيا فوكاى، أنشودة المطر ص ٣٦٦.
(٥) المعبد الغريق، من الديوان نفسه ص ١٧٧ ، ١٧٨.
(٦) أم البروم، المعبد الغريق ص ١٣٣.
وراجع أمثلة أخرى : مسَّح (المضعف) على نظيره (أم كلثوم والذكرى، شناشيل ص ٦٦٥)، وحجَّب – المضعف – على نظيره (احتراق، المعبد الغريق ص ٢١٠، سفر أيوب، منزل الأقنان ص ٢٥٠، تحيا، شناشيل ص ٦٤٥).

أمى ... فى الأمس الذى لا تذكرينه

ضوأ الشطآن مصباح كئيب ... فى سفينة[1].

ويعد التضعيف – من الوجهة الأسلوبية – نوعاً من استثمار الطاقات التعبيرية التى تولدها بعض ألفاظ اللغة فى صور مورفولوجية بعينها. ويعبر التضعيف – كما نعلم – عن قيمة انفعالية عالية، هى من أشد خصوصيات التشكيل اللغوى الشعرى. وأرى أن هذه القيمة الانفعالية من أهم الوجوه اللافتة للنظر فى شعر السياب، فهو يميل إلى الانفعالات الحادة والحركة، ويضيق بالوحشة والسكون. ويأخذ الدليل على ذلك – فى شعره – صورتين رئيسيتين :

(الأولى) صورة كمية : وتبدو فى :

أ – الأفعال ذوات الدلالات النفسية الحادة أو الحركات العنيفة نسبياً، أو التى تظهر علواً نسبياً فى الصوت، واستخدامها بنسب عالية، مثل : خض (ومزيده : اختض) وصك (ومزيده : اصطك) ... الخ. وقد يستخدم الحاد أو الدال على الشدة مع الهين؛ للدلالة على شدته وطغيانه، كعبارة (ادلهمّ الحنين)، فى قوله :

وتنضح الجرار أجراساً من المطر

بلورها يذوب فى أنين

(بويب) .. يا (بويب)،

فيدلهمّ فى دمى حنين

إليك يا بويب[2].

ب – توالى الأفعال تواليا ملحوظاً. وهذه ظاهرة عامة فى شعر السياب، ولا سيما فى المقاطع التى تعرض حديثاً مباشراً عن مرضه أو عن حنوه على أبناء وطنه. ومن الأمثلة على الحالة الأولى قوله :

بغير اختيارى ، طبيبى أراد

---

(١) اتبعينى، أزهار وأساطير ص ٤٠.

وراجع أمثلة أخرى : طفأ – المضعف – على نظيره (نبوءة ورؤيا، المعبد الغريق ص ١٦٦)، ودفأ – المضعف – على نظيره المهموز (نداء الموت، منزل الأقنان ص ٢٣٦ ، ٢٣٧) وموت – المضعف– على نظيره المهموز (سفر أيوب (٤)، منزل الأقنان ص ٢٥٨).

(٢) النهر والموت، وأنشودة المطر ص ٤٥٣.

لقد قصّ .. مدّ المجس الطويل

لقد جره الآن .. أواه .. عاد[1].

ومن الأمثلة على الحالة الثانية قوله :

كنت كالظل بين الدجى والنهار

ثم فجرت نفسى كنوزاً، فعريتها كالثمار

حين فصلت جيبى قماطاً وكمى دثار

حين دفأت يوماً بلحمى عظام الصغار

حين عريت جرحى وضمدت جرحاً سواه

حطم السور بينى وبين الإله[2].

(والأخرى) صورة كيفية، وتتجلى فى صورتين فرعيتين، هما :

أ — التضعيف أو إيثار المضعف من الأفعال، على نحو ما رأينا فيما سبق.

ب — الميل الظاهر إلى استخدام الأفعال الرباعية المضاعفة أو المكررة (أو ما يشتق منها من أسماء وصفات).

وقد ورد فى شعر السياب من هذا النوع من الأفعال (٣٣ فعلاً). وهى تتكرر بنسب متفاوتة على نحو ما يبين الجدول المرفق. وهذه الأفعال تدل على الترديد وتكرير الحدث أو الحركة. ولذلك، فهى ذات قيمة انفعالية عالية أيضاً.

ونلاحظ هنا أن معدل تكرار الأفعال المضاعفة : ثلاثية أو رباعية قد بدأ فى الازدياد مع ديوانه (أنشودة المطر). ويرجع ذلك — كما لاحظ دكتور عبد الكريم حسن — (إلى أن الصراع السياسى والاجتماعى قد تحول إلى قوة داخلية عند السياب)[3]. إن هذا الصراع لم يعد مواجهة للواقع — كما فى دواوينه الأولى — وإنما [اختمر وتحول إلى قوة ديناميكية بدأ السياب يحس معها بـ (هسهسة الثورة) و (قفقفة الضحايا فى القبور)][4].

أما ارتفاع معدلات تكرار هذه الأفعال فى دواوينه التالية، فإنها تتعلق بحالة المرض الذى كان ينخر فى جسد السياب. ولقد كانت ضعضعة جسده هى العامل الحاسم فى استدعاء هذه الأفعال؛ فالسياب كان يعيش مرحلة احتراق الجسد النحيل.

---

(١) فى المستشفى، شناشيل ص ٦٧٧.

(٢) المسيح بعد الصلب، أنشودة المطر ص ٤٦٠ ، ٤٦١.

(٣) دكتور عبدالكريم حسن : الموضوعية البنيوية، دراسة فى شعر السياب ص ٤١.

(٤) المرجع السابق ص ٤١.

وعلىأية حال، فإن كل مفردة من هذه المفردات المضعفة تشير إلى الحالة النفسية التى كان يعانيها السياب فى لحظة معينة من حياته[١].

١- إيثار أفعال ذات بنية معينة على مرادفاتها، كإيثار الفعل (لص) المضعف – على (سرق)[٢]. أو إيثار الفعل (نثّ) – المضعف أيضا على مرادفاته نحو (باح) و (أفشى)[٣]. (ويكثر دوران هذا الفعل فى شعر السياب على نحو ملحوظ جدا). وإيثار المضعف (وسوس) السرَّ أى أفشاه[٤] .. الخ.

٢- إيثار أبنية خاصة بالاسم والمصدر – أحيانا – على غيرها. فمن الاسم إيثار (ظلموت) على (ظلمة – ظلام) فى بعض الحالات، كقوله :

وحين رقدت أمس رأيت فى ظلموت أحلامى

رؤى تتلاحق الأنفاس منها ثم تنقطع[٥].

أو قوله :

يارب أيوبُ قد أعيا به الداء فى غربة دونما .. مال ولا سكن

يدعوك فى الدجن،

يدعوك فى ظلموت الموت : أعباء

ناء الفؤاد بها، فارحمه إن هتفا[٦].

ومن المصدر إيثار (تصخاب) على (صخب) فى مثل قوله :

كأنى أسمع خفق القلوع

وتصخاب بحارة السندباد[٧].

٣- تحريك بعض الأسماء الجامدة واشتقاق أفعال منها. ومن ذلك اشتقاق الفعل (بَـرْعَمَ) من (البرُعم) فى قوله :

أواه لو يُفيق إلهنا الفتى،

---

(١) المرجع السابق ص ٤١.
(٢) انظر مثلاً : لوى مكنيس، شناشيل ص ٦٩٥.
(٣) انظر مثلاً : أمام بيت الله ، المعبد الغريق ص ١٣٧، مدينة السندباد، أنشودة المطر ص ٤٦٤، من ليالى السهاد، شناشيل ص ٦٢٦.
(٤) تموز جيكور، أنشودة المطر ص ٤١٢.
(٥) نبوءة ورؤيا : المعبد الغريق ص ١٦٥.
(٦) سفر أيوب (٤)، منزل الأقنان ص ٢٥٧.
(٧) الأسلحة والأطفال، أنشودة المطر ص ٦٥٤. وقارن : أهواء، أزاهير وأساطير ص ١٧.

obeikandl.com

لو يبرعم الحقول[1].

واشتقاق (ساط) من (السوط)، فى قوله :

كأنى وسط هذا الكون حيث يسوطنى العطش

نواة حولها ارتجف العصير الحلو فى ثمره[2].

واشتقاق (بَرْقَع) من (البرقع)، فى قوله :

وأصبحت تستقبلين الصباح المطلا

بتكبيرة من ألوف المآذن كانت تخاف،

فآوى إلى عاريات الجبال

تبرقع أصداءها بالرمال[3].

واشتقاق (شظ) من (الشظية)، فى قوله :

هتاف يملأ الشطآن : ياوديانا ثورى

وياهذا الدم الباقى على الأجيال

ياإرث الجماهير

تشظ الآن واسحق هذه الأغلال[4].

واشتقاق الفعل (تكّ — يتك) من اسم الصوت، كقوله :

بغداد ؟ مبغى كبير

لواحظ المغنية

كساعة تتك فى الجدار

فى غرفة الجلوس، فى محطة القطار[5].

والحق أن اشتقاق الفعل من الاسم قد صار اتجاها لغويا عاما فى العربية الحديثة، وهو يعرف باسم (Denominativa) . وقد صنفه المستشرق الألمانى كرال Krahl إلى أنواع

---

(١) سربروس فى بابل، أنشودة المطر ص ٤٨٣.
وقارن : مرحى غيلان، أنشودة المطر ص ٣٢٥، من ليالى السهاد (ليلة فى باريس) ص ٦٢٣.
(٢) من ليالى السهاد، (٣– ليلة فى العراق)، شناشيل ص ٦٢٦.
(٣) ربيع الجزائر، منزل الأقنان ص ٢٣٩.
(٤) فى المغرب العربى، أنشودة المطر ص ٣٩٧.
(٥) المبغى، أنشودة المطر ص ٤٤٩.

obeikandl.com

مختلفة، فهناك أفعال مشتقة من أسماء عربية مثل (حمّص) و (زيّت) و (شجّر) و(بخّر)..الخ. ومنها ما يبدأ بالميم وهو شائع كذلك مثل (مَسْطَرَ) – (سطر)، (تَمَرْكَزَ) – (مركز). ومنها ما اشتق من أسماء غير عربية أو بنيت على نمط أفعال غير عربية مثل (بَسْطَرَ) و(كَرْتَنَ) و (سَفْلَتَ) و (مَكْنَنَ) و (تَلْفَنَ) و (تَلْفَنَ)...الخ. وهذه الألفاظ جميعاً تدخل فى إطار الظاهرة اللغوية المعروفة باسم Neologismus، أى الألفاظ المستحدثة أو المولدة من ألفاظ أخرى أصيلة أو دخيلة[1] .

ولا شك أن ظهور هذه الظاهرة فى العربية الحديثة، إنما هو وليد الحاجة الخالصة للتعبير النفعى المجرد. ويختلف الأمر فى لغة الشعر بعامة ولغة السياب بخاصة، فهو عنده ميل لغوى واضح إلى التعبير بالفعل بدلا من الاسم بعثا للحركة وبحثا عن الصوت وترديد الحدث. ولذلك، فهو يحمل هنا قيمة أسلوبية واضحة، بل مقصودة لذاتها، وليست ميلاً تعبيرياً عفوياً محضاً.

إن هذه الظاهرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحالة السياب النفسية والمرضية، فقد جعل السياب من الأفعال – بدلالتها على الشدة والحدة – عنصراً لغوياً وأسلوبياً مميزاً، يقوم مقام (العرض) أو (البديل اللغوى والأسلوبى) لما يعانيه فى مرضه من ضعف ووحشة ووهم وصمت. لقد كان السياب يغالب السكون والموت بالبعث عن مصادر الحركة والحياة. وقد أكد الشاعر نفسه هذا المعنى غير مرة فى شعره. ومن ذلك قوله :

وأشعل فى دمى زلزال
لأكتب قبل موتى أو جنونى أو ضمور يدى من الإعياء
خوالج كل نفسى، ذكرياتى، كل أحلامى

———

ليقرأها شقى بعد أعوام وأعوام
ليعلم أن أشقى منه عاش بهذه الدنيا

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك مقالته :
Verbale Neubildingen im Arabischen, aus: Asien in Vergangenheit und Gegenwart, Beitrage der Asienwissenschafter der DDR zum XXIX., In-ter-nationalen Orientalistenkongress,(1973), in : Paris – Berlin (1974) SS.374
وقارن : محمد كرد على : أفعال للاستعمال، مقالة منشورة فى : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٣ (١٩٣٦) ص ٢٧٥.

وآلى، رغم وحش الداء والآلام والأرق،

ورغم الفقر، أن يحيا[1].

وهكذا جعل السياب من الفعل بديلاً لغوياً لحالته النفسية والمرضية، فى تقنية لغوية يندر أن نجد لها مثالاً فى شعرنا العربى القديم والحديث.

(٣) النداء والاستفهام وخصوصيات التجربة :

ومما يلفت النظر فى شعر السياب كذلك كثرة أدوات النداء والاستفهام كثرة ملحوظة. ومعلوم أن جميع أدوات النداء والاستفهام تتمتع بقيم أسلوبية تأثيرية؛ فالإحساس بعدم التحدد والقلق والنداء، تعد جميعا قيماً أسلوبية مؤثرة[2].

وتلعب أدوات النداء فى شعر السياب دوراً مهماً وهى انعكاس لقلقه وبحثه الدائب عن الحب والتماسه الشفاء المادى والمعنوى. ومن ذلك نداؤه ابنته (وفيقة) — التى صارت فى شعره رمزا خطيرا على الوطن — فى قوله :

يا صخرة معراج القلب

يا (صور) الألفة والحب

يا دربا يصعد للرب

لولاك لما ضحكت للأنسام القرية[3].

ويأتى الاستفهام تعبيرا عن التوتر والحيرة والتردد والخوف من المجهول ومن عواقب الأمور :

أأثور ؟ أأصرخ بالأيام ؟ ! وهل يجدى ؟ !

إنا سنموت، وسننسى، فى قاع اللحد ؟

حبا يحيا معنا .. ويموت ![4] .

وقد يتزاوج النداء والاستفهام تزاوجاً عجيباً فى حالات غير قليلة . ومن ذلك قوله :

ويا مصباح قلبى، يا عزائى فى الملمات

منى روحى، ابنتى : عودى إلىّ فها هو الزاد

---

(١) المعول الحجرى، شناشيل ص ٧٠٢ ، ٧٠٣.

(٢) انظر فى تفصيل ذلك :

Scidler, Herbert, Allgemeine Stilistik. 2- e neubearbeitete Auflage, Gottingen (1963), S.107

(٣) شبك وفيقة، المعبد الغريق ص ١١٩.

(٤) أغنية قديمة، أزهار واساطير ص ٧٣. وقارن : دار جدى، المعبد الغريق ص ١٤٤.

وهذا الماء، جوعى ؟ هاك من لحمى
طعاما، آه ! ! عطشى أنتَ يا أمى ؟
فعبى من دمى ماء وعودى ... كلهم عادوا.
كأنك (برسفون) تخطفتها قبضة الوحش
وكانت أمها الولهى أقل ضنى وأوهاما
من الأم التى لم تدر أين مضيت ! فى نعش ؟
على جبل ؟ بكيت ؟ ضحكت ؟ هب الوحش أم ناما ؟[1].

ويرتبط بهذه الظاهَرة فى شعر السياب أمران مهمان :

(أولهما) : التساؤل وتفنيد التساؤل. ويقع هذا فى مواضع غير قليلة من شعره. ومن أمثلته قوله :

أأصرخ فى شوارع لندن الصماء . " هاتوا لى أحبائى "
ولو أنى صرخت، فمن يجيب صراخ منتحر
تمر عليه طول الليل آلاف من القطر[2].

(والأمر الثانى) هو كثرة الحذف بعد الاستفهام خاصة، ومن ذلك قوله :

أحقا نسيت اللقاء الأخير
أحقا نسيت اللقاء ...؟
أكان الهوى حلم صيف قصير
خبا فى جليد الشتاء ؟
خبا فى جليد ... [3].

(٤) ظاهرة الحذف وتجديدات السياب :

والحذف من أهم ما يسترعى الانتباه فى شعر السياب. وهو وسيلة لغوية أساسية حيث يعلق الشاعر القول، ولا يكاد يبين. وربما كان ذلك تعبيراً عن هول ما هو بصدده، أو عن جهله إياه، أو عن رغبته فى الإبقاء على الجهل به :

فسرت والسماء وجهتى، ولا دليل،

---

(١) الأم والطفلة الضائعة، المعبد الغريق ص ١٥٤.
(٢) سفر أيوب (٣)، منزل الأقنان ص ٢٥٦.
(٣) نهاية، أزهار وأساطير ص ٩١.

obeikandl.com

لم أدر إلا أننى أمالنى السحر

إلى جدار قلعة بيضاء من حجر

ـ ـ ـ

وسرت حول سورها الطويل،

أعد بالخطى مداه (مثل سندباد)

يسير حول بيضة الرخ، ولا يكاد

يعود حيث ابتدأ

حتى تطيب الشمس، غشى نورها سواد،

حتى إذا ما رفع الطرف، رأى .. وما رأى ؟[1].

ومن أشكال الحذف الطريفة التى لم يعرفها شعرنا العربى فى ثوبها السيابى، ما يقدمه المقطع التالى :

" سأهواك حتى .. نداء بعيد تلاشت، على قهقهات الزمان،

بقاياه فى ظلمة .. فى مكان،

وظل الصدى فى خيال بعيد :

" سأهواك حتى سأهوى النواح،

كما أعولت فى الظلام الرياح،

" سأهواك حتى ...سـ .. " ياللصدى

أصيخى إلى الساعة النائية :

" سأهواك حتى .. " بقايا رنين

تحدين دقاتها العاتية،

تحدين حتى الغدا،

" سأهواك " ما أكذب العاشقين !

سأهوا ..نعم .. تصدقين[2].

---

(١) إرم ذات العماد، شناشيل ص ٦٠٤ ، ٦٠٥.

(٢) نهاية، أزاهير وأساطير ص ٨٩ ، ٩٠.

ويفيد الحذف هنا أن الهوى قد مر مع السياب بمراحل ست، فى الأولى (سأهواك حتى...) نجد الهوى قد بدأ من جانب الحبيبة، وكان نداؤها البعيد الذى تلاشى مبادرة ووعدا. وللحذف الذى تدل عليه النقاط (...) — وهذه وسيلة كتابية سيابية مبتكرة — دلالة على الرغبة فى الهوى والأمل فى دوامه.

وفى المرحلة الثانية (سأهواك حتى سأهوى) رأى الهوى صدى وترديدا فى خياله. وقد ينبئ الصدى عن استجابة ورد للفعل ورغبة فى المشاركة.

ولكن فى الثالثة (سأهواك .. سـ ..) يؤكد الحذف أن الهوى لم يعمل عمله بعد، فمازال عنده صدى، وإن كانت (.. سـ ..) توحى بأن الحبيبة مازالت مترددة، وكأنها أخذت فى مراجعة نفسها.

وفى المرحلة الرابعة (سأهواك حتى ..) يتحول التردد والمراجعة إلى صدى مرة أخرى. فمازالت تلك الكلمات التى حملت وعد الحبيبة بالهوى بقايا رنين، فحتى الصدى الذى كان — ذات مرة — نداء، تضاءل ولم يبق منه إلا بقايا.

وفى المرحلة الخامسة ضاع الأمل فى الاستجابة بالمشاركة، ولم يصبح الهوى إلا كلمة واحدة تقولها الحبيبة، ولا تتعدى هذه الكلمة كونها من (كذب العاشقين).

أما المرحلة السادسة والأخيرة (سأهوا ...) فهى تختلف عن سابقتها فى حذف الكاف؛ وكأن هذه الكاف هى التى يتحدد على أساسها القول بالكذب أو الصدق، فالحبيبة كاذبة إذا حددت هواها بالشاعر، فإذا لم تحدده وصار مطلقا أو معلقا فى ذاته لا معلقا بحبيب بعينه (سأهوا) ..، فلا بأس فى هذه الحالة من تصديقها !.

(٥) حقول السياب الدلالية :

إننا إذا بحثنا عن أبرز الحقول الدلالية فى شعر السياب — باستثناء حقل المرض ومتعلقاته الفرعية — لرأيناه (حقل الصوت والضوء). فقد لاحظنا شيوع ألفاظ الصوت والحركة، لاسيما الألفاظ الدالة على الأصوات العالية والحركات العنيفة نسبياً. وقد تدعم ذلك بأشكال مختلفة، منها: شيوع الأفعال المضعفة والمكررة، فضلا عن شيوع أفعال أخرى مثل : صاح، حشرج، ماج، هاج، طرق. صدح، صرخ ..الخ. ولا يعنى ذلك — بالطبع — أن شعر السياب قد تضاءل فيه معدل تكرار الألفاظ الدالة على السكون والصمت، فمثل تلك الألفاظ تقابلنا كثيرا، ولا سيما فى قصائده العاطفية أو قصائده فى مرضه، مثل : همس (همسة)، سكن (سكون — سكينة)، وجوم، صمت، سكرة..الخ.

أما ألفاظ الضوء، فهى وفيرة أيضا، كالسنا، والضوء، والصباح، والنور.. الخ. ولا يعنى كثرة ألفاظ الظلمة – فى المقابل – ميل الشاعر إليها ميلاً إيجابياً، فهو لا يضيق بها وينفر منها إلا ليؤكد مقته وغضبه عليها وسعيه إلى التخلص منها واستبدالها. ويكون الخلاص بإشاعة ألفاظ الضوء وإطلاقها. إن ألفاظ الضوء عند السياب كالدواء الذى يشفيه من داء الظلمة اللعين !.

وتبرز أمامنا هنا ملحوظة مهمة للغاية. وتلك هى المزاوجة العجيبة بين ألفاظ الصوت وألفاظ الضوء. وهى مزاوجة لا نجد لها نظيراً فى شعرنا الحديث.

إنه يلتمس الصوت والحركة حتى فى الضوء. وإذا كان فى الضوء الخلاص من الظلمة، فإنه يتلهف إليه ويغتبط به، لذلك راح يختار له من الألفاظ ما يفصح عن تلك الغبطة والفرح، فهو قد يسمع (غمغمة الشروق) وهى تشرب الظلمة :

وحين أسير فى الزحمة
أصغر كل وجه فى خيالى : كان جفناها
كغمغمة الشروق على الجداول تشرب الظلمة[1].
وهو يسمع كذاك (كركرة الشمس) فى السعف :
ووفيقة تنظر فى أسف
من قاع القبر وتنتظر
.. ..
والريح تعيد
أنغام الماء (هو المطر)
والشمس تكركر فى السعف[2].
بل يسمع (سقسقة الصباح) :
بالأمس كنت إذا كتبت قصيدة فرح الدم
فأغمغم،
وأهيم ما بين الجداول والأزاهر والنخيل
أشدو بها، أترنم :

---

(١) الأم والطفلة الضائعة، المعبد الغريق ص ١٥٥ ، ١٥٦.
(٢) شباك وفيقة، المعبد الغريق ص ١١٨ ، ١١٩.

obeikandi.com

زاد لروحى منذ سقسقة الصباح إلى الأصيل[١].

وقد يسمع (كركرة الضياء) التى تحلم بها أعين الموتى :

وكانت إذ يطل الفجر، تأتيك العصافير

تساقط كالثمار على القبور، تنفر الصمتا

فتحلم أعين الموتى بكركرة الضياء وبالتلال يرشها النور[٢].

ويبعث السياب الحركة فى الضياء بفعل الرقص :

أشاهدتَ ياغاب رقص الضياء على قطرة بين أهدابها[٣].

ويصور السياب الآخرين من الجائعين وهم يلتمسون فى الشمس الحياة والزاد كذلك، كما يصور الأشقياء وهم يلتمسون فى الضياء الخلاص من الظلمة بعد أن غشيتهم :

وعند بابى يصرخ الجائعون :

" فى خبزك اليومى دفء الدماء

فاملأ لنا، فى كل يوم، وعاء

من لحمك الحى الذى نشتهيه

فنكهة الشمس فيه، وفيه طعم الهواء.

وعند بابى يصرخ الأشقياء :

" أعصر لنا من مقلتيك الضياء

فإننا مظلمون " [٤] .

لقد أبدع السياب إلى أبعد حدود الإبداع فى المطابقة بين دلالة الصوت وطبيعة ما يسمعه فيه، فهو يفرح بالضوء والشمس، ولذلك استخدم الكلمات التى تفصح عن تلك الفرحة مثل (كركرة) و (سقسقة) ونحوهما. وهو ينفر من الدجى ويضيق به، ولذلك استخدم كلمات أخرى تفصح عن هذا النفور والضيق مثل (وهوهة) التى توحى بالصمت والألم والاختناق :

وكنت أصيح من أرقى

ومن مرضى : (أريد الماء)

---

(١) هرم المغنى، منزل الأقنان ص ٣٠٧.
(٢) أم البروم، المعبد الغريق ص ١٣١ ، ١٣٢.
(٣) أهواء، أزاهير وأساطير ص ١٥.
(٤) رسالة من مقبرة، أنشودة المطر ص ٣٩٠ ، ٣٩١.

obeikandl.com

وتخنق صوتى الظمآن وهوهةْ الدجى والماء[1].

إنه يستخدم مثل هذه الألفاظ لما يكره عموما؛ فقد وردت الكلمة السابقة مع الدماء فى قوله :

الخوف والدم والصغار، فأى شئ أرتجيه ؟

فعلى يدىَّ دمْ وفى أذنىَّ وهوهةَّ الدماء،

وبمقلتى دم، وللدم فى فمى طعم كريه[2].

ويخلق السياب مزاوجة لغوبة صوتية أخرى مع (هسهسة الرثاء) فى قوله :

وتملأ رحبة الباحة

ذوائب سدرة غبراء تزحمها العصافيرُ

تعد خطى الزمان بسقسقات، والمناقيُر

كأفواه من الديدان تأكل جثة الصمت

وتملأ عالم الأموات

بهسهسة الرثاء، فتفزع الأشباح تحسب

أنه النور[3].

والحق أن هنالك أمراً مهماً آخر ينبغى الالتفات إليه، هو استخدام أحداث محببة مع أشياء لم تكن محببة لديه؛ كالليل : رمز الصمت والوحدة، والجليد: رمز التقوقع والوحشة، فقد استخدم كلمة (سقسق) مع الليل، فى قوله :

والحديقة

سقسق الليل عليها فى اكتئاب[4].

واستخدم كلمة (قهقه) مع الجليد فى قوله :

وكيف لو أفقت من رقادى المخدَّرِ

على صدى الصور، على القيامة الصغيرة :

---

(١) من ليالى السهاد، ٣- ليلة فى العراق ص ٦٢٥. وقارن : جيكور أمى، شناشيل ص ٦٥٨.

(٢) المخبر، أنشودة المطر ص ٣٤١.

(٣) منزل القنان، الديوان نفسه ص ٢٧٧ ، ٢٧٨.

(٤) صديقة وفيقة، المعبد الغريق ص ١٢٨.

obeikandl.com

يحمل كل ميت ضميره

يشع خلف الكفن المدثَّر،

يسوق عزرائيل من جموعنا الصفر إلى جزيرة

قاحلة يقهقه الجليد فيها،

يصفر الهواء فى عظامنا ويبكى[1].

وحقيقة الأمر أن استخدام الكلمتين (سقسق) و (قهقه) مع الليل والجليد، لا يحمل فرحة أو يعبر عن ارتياح : ذلك أن (سقسقة الليل) التى سمعها السياب كانت تصدر فى اكتئاب، و (قهقهة الجليد) ليس إلا دقة وصف وتصوير فنيين مقصودين لتلك الجزيرة القاحلة، وكأن السياب يريد باستخدام الفعل (يقهقه) — بخاصة — أن يعبر عن سخريته بهذا الجليد، بل يريد أن يعبر عن سخطه عليه ! .

ومهما يكن من أمر، فإن ميل السياب إلى هذه الألفاظ ذوات التكرير الفونيمى الخاص يعكس وعيه العميق بضرورة استثمار الطاقات التعبيرية البيانية الكامنة فى طائفة من الفونيمات المميزة، وإن ارتبط ذلك — من ناحية أخرى — بعمق التجربة الشعرية السيابية وحساسيته اللغوية المفرطة.

(٦) معجم السياب وملامح التحديث :

وللسياب معجمه الشعرى الذى يتميز به بين الشعراء المحدثين. وتعد دراسته مؤشرات فنية وتاريخية على رحلة السياب الشعرية الخصبة. ومن أهم خصائص هذا المعجم — والتى تكشف بدورها عن هذا التميز — مايلى :

(أولاً) إن المعجم السيابى يتميز بالاتساع والثراء، فالحصيلة اللفظية التى بنى عليها شعره وتغذى بها غنية وفيرة : كماً وكيفاً.

أما الكم، فقد استدعى تعدد موضوعات شعره بين وصف الواقع الاجتماعى والسياسى فى بلده بالذات ووصف شوقه إليه والإغراق فى تشكيل تجربته المرضية قصائد ومطولات، استدعى ذلك استخدام أعداد هائلة من الألفاظ التى عبرت وتوزعت على حقول وموضوعات متشعبة. وإذا كانت قصائده فى مرضه تمثل أكثر من ثلاثة أرباع شعره، فإن ذلك قد ميز معجمه الشعرى — فيما يتعلق بهذه المسألة — بميزتين جوهريتين :

---

(١) الوصية، المعبد الغريق ص ٢٢٠.

(أولاهما) انحسار الألفاظ المستخدمة فى الحديث عن هذا المرض فى مجموعة دلالية أساسية واحدة.

(والأخرى) أن ذلك الانحسار قد أدى بالسياب إلى بذل (جهد لغوى)، عظيم فى الحد منه. وقد تحقق ذلك بعدة طرق متفاوتة :

١- محاولة تنويع الألفاظ، وإدخال ألفاظ يندر ورودها فى المعجم اللغوى للشعر الحديث بوجه عام، والشعر التفعيلى بوجه خاص، مثل : نثُّ، الصديد، القيح، الجذام، نزُّ، اختضُ ..الخ.

ومن حق السياب علينا أن نعترف له بأسبقيته إلى (تشعير) هذه الألفاظ، فقد رحب السياب كثيراً بمثل هذه الألفاظ وفتح لها معجمه الشعرى على مصراعيه، حتى صارت تحمل شحنات شعرية جديدة، لم يكن يأبه بها العموديون قبله؛ لافتقادها — فى رأيهم — الشاعرية اللفظية التى تتطلبها لغة الشعر. وقد صارت مثل هذه الألفاظ — بعد السياب — مما لا يضيق به المعجم الشعرى المعاصر.

٢- خلق المجازات اللغوية المبتكرة، مثل :

نكهة الشمس[١]

قهقهة الجليد[٢]

استنشاق الضياء[٣]

عضعضة الهواء[٤]

غابة الظلام[٥]

ومض الحنين[٦] **سوط العطش**[٧]

حطام الرعد[٨]

غابة الأمطار[٩]

---

(١) رسالة من مقبرة، أنشودة المطر ص ٣٩١.
(٢) الوصية، المعبد الغريق ص ٢٢٠.
(٣) دار جدى، المعبد الغريق ص ١٤٥.
(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٥) فى غابة الظلام، شناشيل ص ٧٠٤.
(٦) فى غابة الظلام، شناشيل ص ٧٠٥.
(٧) من ليالى السهاد، شناشيل ص ٦٢٦.
(٨) من ليالى السهاد، شناشيل ص ٦٢٥.
(٩) من ليالى السهاد، شناشيل ص ٦٣٥.

وأحاسيس نفسية وإنسانية عامة، كالشكوك، والوساوس، والحنين، والخوف، ...الخ.

ولنأخذ المقطع التالى شاهدا على ذلك :

نسيم الليل كالآهات من جيكور يأتينى فيبكينى
بما نفثته أمى فيه من وجد وأشواق
تنفس قبرها المهجور عنها، قبرها الباقى
على الأيام يهمس بى : " تراب فى شراييني
ودود حيث كان دمى، وأعراقى
هباء من خيوط العنكبوت؛ وأدمع الموتى
إذا ادكروا خطايا فى ظلام الموت .. ترويني.
مضى أبد وما لمحتك عينى !...
– ليت لى صوتا كنفخ الصور يسمع وقعه الموت .. هو المرض
تفكك منه جسمى وانحنت ساقى
فما أمشى، ولم أهجرك، إنى أعشق الموتا
لأنك منه بعض، أنت ماضى الذى يمضى
إذا ما اربدت الآفاق فى يومى، فيهدينى ![1]

ونشير هنا إلى أن المزج، لا يقتصر على مقاطع القصيدة دائما، وإنما نجده فى كثير من الحالات مستقطباً للقصيدة بكاملها، على نحو ما فى القصيدة السابقة نفسها. وكأنى بالمقطع السابق فقرة مجسدة تحكى تشابك خيوط النسيج اللغوى والمعجمى لشعر السياب، إذ تتدخل فى هذا النسيج – على نحو فريد حقا – خيوط الوجد، بالأعراق، بالدماء، بالظلام، بالحيرة، بالهداية !.

تغلب السياب على هذا الانحسار أو الجزر – إذا – بالمد اللغوى والمجازى، والمزج بين الذاتى الخاص والموضوعى العام، وإن بقى ذلك المد بأشكاله الثلاثة كالموجات المتعاقبة المتلاطمة بين شاطئى بحر واحد !. والمزج أو الازدواجية فى موضوع القصيدة عند السياب يتشابه إلى حد بعيد مع التيار الرومانسى فى الشعر العربى الحديث. وجدير بالذكر أن "أولى صور الازدواجية هو ما تفرضه الرومانطيقية من نزاع بين قوة الحب وقوة الموت. ولهذا ما يكاد الشاعر (يعنى السياب) يتحدث فى قصائده عن روعة الحب أو ألم الفقد، حتى

(١) نسيم من القبر، شناشيل ص ٦٧٢ ، ٦٧٣. وانظر شواهد أخرى، أسمعه يبكى، منزل الأقنان ص ٢٨٧، مرحى غيلان، أنشودة المطر ص ٣٢٤ ، ٣٢٧.

obeikandl.com

ليرتجف فرقا من الحب الرهيب، وهو بين هاتين القوتين يحاول أن يجد رجاءه فى الخلاص منهما معا"[١].

(ثانياً) لقد اتسع المعجم الشعرى للسياب لألفاظ دخلت المعجم اللغوى للعربية ممثلة لبعض جوانب حياة العرب فى الجاهلية والعصور الإسلامية، فظلت مرتبطة بالتراث الشعرى القديم، وذلك كالقوافل[٢]، والعيس[٣]، والبخيع[٤]. أو ممثلة لطبيعة الأرض، كالمهامه[٥]، والقفار[٦]، والمغانى[٧]، والوهاد[٨]. أو ممثلة لبعض القيم الجمالية، كالبنان الرخص[٩]. وقد تكون ألفاظاً معجمية هجرتها العربية الحديثة أو استبدلتها بغيرها، كالآل[١٠]، و الغيد[١١]، والرمس[١٢]، والدياميس[١٣].

ونلاحظ هنا أن تلك الألفاظ قد ترددت فى ديوانيه الأولين (أزهار وأساطير) و (المعبد الغريق)، وندرت كثيراً فى ديوانه الثالث (منزل الأقنان)، وتلاشت أو كادت فى ديوانيه الأخيرين (أنشودة المطر) و (شناشيل ابنة الجلبى). أى أن استخدام مثل هذه الألفاظ قد اقتصر تقريبا على المراحل الشعرية المتقدمة للسياب.

وتعرف الظاهرة السابقة فى الدراسات اللغوية الأسلوبية للعناصر المعجمية باسم ظاهرة (إحياء الألفاظ القديمة وتحديثها Anachronismus). وتبدو هذه الظاهرة إذا استخدمت كلمة Wort أو تعبير Wendung يرجع إلى فترة تاريخية معينة فى فترة تاريخية أخرى لا تتناسب معها [١٤].

---

(١) دكتور إحسان عباس، بدر شاكر السياب، دراسة فى حياته وشعره، دار الثقافة بيروت، ط٤ (١٩٨٧) ص١٣٢.

(٢) سراب، أزهار وأساطير ص ٥٤ – أم البروم، المعبد الغريق ص ١٣٠– قصيدة من درم، منزل الأقنان ص٢٩٣ ، ٢٩٥.

(٣) أم البروم، المعبد الغريق ص ١٣٠.

(٤) ابن الشهيد، المعبد الغريق ص ١٩٨ – سفر أيوب، منزل الأقنان ص ٢٥١.

(٥) صياح البط البرى، المعبد الغريق ص ١٧٤.

(٦) سجين، أزهار واساطير ص ٧٩ – لأننى غريب، المعبد الغريق ص ١٩٦.

(٧) أم البروم، المعبد الغريق ص ١٣١.

(٨) هوى واحد، أزهار وأساطير ص ٥٠.

(٩) نهر العذارى، أزهار واساطير ص ١١٢.

(١٠) رئة تتمزق، أزهار وأساطير ص ٧٩.

(١١) ديوان شعر، أزهار وأساطير ص ١٠٩.

(١٢) شباك وفيقة، المعبد الغريق ص ١١٧.

(١٣) رئة تتمزق، أزهار وأساطير ص ٤٥.

(١٤) انظر فى ذلك تفصيل :
Fleischer,Michel, Stilistik der deutschen Gegenwartssprache, Leipzig (1977)S.104.

(ثالثاً) ومعروف أن الألفاظ المفاتيح Key-Words هى الألفاظ التى تلعب دوراً مهماً فى نمط معين من علم الدلالة البنائى، ولذلك فإنها يمكن أن تستخدم فى دراسة الأسلوب الأدبى.

وقد أشار (سانت بوف Saint–Beuve) إلى أن (لكل كاتب كلمة مفضلة، يكثر ترددها فى أسلوبه وتكشف – على نحو غير مباشر – عن بعض رغباته الدفينة، أو عن بعض نقاط الضعف عند من يستخدمها)[١].

ومن المحتمل – كما يقول أولمان Ullmann أن بودلير Baudlaire كان يشير إلى تلك المقولة فى مقالته عن (بانفى Banville) فى قوله: " لقد قرأت عند أحد النقاد قوله : لكى نكشف عن روح شاعر ما، أو عن همومه الكبرى على الأقل، فإنه ينبغى لينا أن نبحث فى أعماله عن الكلمة أو الكلمات الأكثر ترددا، فتلك الكلمة هى التى تفصح عما يشغله" [٢].

وفى القرن العشرين يرى فاليرى Valery أن " الكلمات التى يكثر ترددها عند أحد الكتاب، تدل على أن لها عنده رنيناً معيناً Resonance، ولذلك فهى تمتلك قوة إيجابية خلاقة أعظم مما يكون لها فى الاستعمال العادى " [٣].

وبناء على ذلك، فالكلمة – المفتاح هى – فى تعريف أولمان الموجز – " الكلمة التى يكون معدل تكرارها عند أحد الكتاب أعلى من معدله عند معاصريه " [٤].

وإذا أردنا استخراج (الكلمات – المفاتيح) فى شعر السياب، وجدناها الكلمات التى تدور حول مرضه وما يتعلق به من ألفاظ أخرى.

ويمكننا تركيزها فى الكلمات التسع التالية:

القبر – الجسد – الموت

الدم – البكاء – الظلمة

وسوس – المرض – آه

وإذا أردنا ترتيب الكلمات – المفاتيح السابقة ترتيباً موضوعياً هرمياً من القمة إلى القاعدة، لكانت صورتها على النحو التالى :

---

(١) انظر فى ذلك : Ullmann, Stephen, Meaning and style, Oxford (1973) P.72.

(٢) المرجع السابق ص ٧٢.

(٣) نفسه ص ٧٢ ، ٧٣.

(٤) نفسه ص ٧٣.

آه

الجسد

المـرض

وســوس

البـــكاء

الظلمـــــة

الـــــدم

المـــــوت

القـــــــبر

وما بين قمة هذا الهرم (آه) وقاعدته (القبر) من ألفاظ هى كهمزات الوصل بين عـذابات المرض وآهاته والخوف من انقضاء الأجل ولقاء القبر.

ولو أردنا أن نصوغ من عناصر هذا الهرم ومكوناته اللفظية جملة مفيدة تلخص جل شعر السياب، لكانت تلك الجملة على النحو التالى :

(كان الجسد ووساوس المرض وآهات البكاء فى الظلمة ونذير الدم بـالموت والخـوف مـن وحشة القبر هو هم السياب الأول فى شعره !).

والحق أن لكل كلمة من (الكلمات – المفاتيح) السابقة عدة مرادفات ومتعلقات، تختلف فيما بينها من حيث (معدلات التكرار) :

١ – فلكلمة آه :

أواه، تأوه، آهات، الأواه، ألم ... الخ.

٢ – ولكلمة الجسد :

جسم، جثمان، وريد، ضلوع، شل، ضعضع .... الخ.

٣ – ولكلمة المرض :

سقم، داء، حمى، دواء، فراش، نقالة، طبيب، .... الخ.

٤ – ولكلمة وسوس :

هجس، أسرار، ظنون، يأس، رجاء، نث، .... الخ.

٥– ولكلمة البكاء :

نحيب، أعول (العويل)، صرخ، الدمع ... الخ.

٦ – ولكلمة الظلمة :

ظلام، ليل، سهاد، رقدة، أرق، حزن، .. الخ.

٧ – ولكلمة الدم :

نزيف، جرح، أدمى، ... الخ.

٨ – ولكلمة الموت :

حمام، منية، ميت، عدم، كفن، ... الخ.

٩ – ولكلمة القبر :

ضريح، دود، ديدان، رماد (القبر)، ... الخ.

وكما قلت، فإن معدل تكرار هذه الكلمات ومرادفاتها ومتعلقاتها، يتفاوت : علواً وانخفاضاً من قصيدة إلى أخرى، ومن ديوان إلى آخر. ويحتاج ذلك – بالطبع – إلى عمل إحصائى شامل.

لقد اعتمد السياب على الكلمتين (آه) و (وسوس) اعتماداً كبيراً، ولهما فى لغته أهمية خاصة : فقد ترددت الكلمة الأولى وحدها (دون مشتقاتها ومتعلقاتها) حوالى ٦٨ مرة. وهى – فضلا عن استخدامها بمعنى التوجع – تشدّ إليها كل معانى الألم والعذاب البدنى والنفسى.

أما الكلمة الثانية، فقد ترددت حوالى ١٧ مرة. وهى – فضلاً عن استخدامها بمعنى حديث النفس – قد استخدمت بالمعنى الآخر، وهو : الصوت الخفى[١]، نحو : وسوسة الزورق[٢]، ووسوسة السنابل[٣]، ووسوسة النقود[٤]، ووسوسة الحرير[٥]، ووسوسة المحار[٦] ....الخ. وربما يرجع إيثار هذه الكلمة دون غيرها للدلالة على الصوت الخفى، إلى الطبيعة النفسية للسياب؛ فقد كانت نفسه توسوس له باليأس من الشفاء تارة وبالأمل فيه تارة أخرى.

---

(١) جاء فى لسان العرب (مادة : وس س ٩/٢٥٤) :

" الوسوسة والوسواس: الصوت الخفى من ريح .. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى: وسواس".

(٢) أحبينى، شناشيل ص ٦٤١.

(٣) المومس العمياء، أنشودة المطر ص ٥٢٠.

(٤) حفار القبور، أنشودة المطر ص ٥٥١.

(٥) حفار القبور، أنشودة المطر ص ٥٥٦.

(٦) أرم ذات العماد، شناشيل ص ٦٠٣.

لقد صار كل من هاتين الكلمتين (لازمة لغوية) عند السياب. وبناء على ذلك، فإذا أردنا أن نلخص المفاتيح اللغوية لشعره، أو نختزلها فى كلمتين اثنتين لأمكننا — دون تردد — اختزالها إلى الكلمتين : (وسوس) و (آه) !

(رابعاً) والحق أن معجم السياب الشعرى يشابه المعجم الشعرى لشعراء الاتجاه الوجدانى فى العصر الحديث مشابهة واضحة، لاسيما ديوانيه الأولين (أزهار وأساطير) و(المعبد الغريق). ويبدو هذا التشابه — على وجه التحديد — فى ثلاث صور رئيسية :

(الأولى) الحقول الدلالية التى تنتمى إليها الألفاظ المستخدمة، كالحب، والموت، والطبيعة، والمعانى الإنسانية العامة. ففى شعره تتردد بنسب عالية ألفاظ مثل: الحب، الموت، الليل، الضوء، الزورق، النهر، النجوم، الحلم، الحنين، الأصداء، الروح، الأرق، .... الخ.

(الثانية) الارتكاز — فى كثير من الأحيان — على كلمة معينة أو كلمات معدودات، واتخاذها مفتاحاً لغوياً أساسياً للقصيدة كاملة، تتداعى منه الأفكار وتنساب منه الانفعالات.

ومن أمثلة ذلك كلمة (شباك) فى قصيدة (شباك وفيقة)؛ فهى المعين الذى يخرج منه السياب صور قصيدته واحدة بعد الأخرى. ومنه أيضا كلمة (بابا) فى قصيدة (مرحى غيلان)؛ حيث مثلت هذه اللفظة — كما يقول الأستاذ إيليا الحاوى: " خط التوتر الذى تنداح منه أمواج التجربة.

وقد انهالت بتأثيرها شتى الاحتمالات والافتراضات، وفقا للصدفة النفسية والاتفاق، دون نمو وتصميم ظاهر أو مضمر "[1].

ومنه أيضا كلمة (مطر) فى قصيدة السياب — التى صارت من مفضليات الشعر العربى الحديث — (أنشودة المطر)، تلك التى تتكرر مرتين أو ثلاث مرات فى نهاية كل مقطع من مقاطعها، فضلا عن تكرارها داخل أسطر القصيدة ذاتها.

(الثالثة) اتخاذ بعض الألفاظ — وهى مما يكثر دورانه عادة فى شعره — رموزاً لمعان أخرى.

وهذه الألفاظ هى — بالطبع– الألفاظ ذوات المعانى والإيحاءات الوجدانية. فإذا كان الشعراء الوجدانيون يعبرون بكلمات: الطين، والنور، عن الصراع بين الجسد والروح، أو

(١) إيليا الحاوى : بدر شاكر السياب. ج ٢، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص ١٨٦.

الشر والخير[1]، فإن السياب يعبر بالقبر والصياح عن الصراع بين الموت والحياة، كما يعبر بالهجير عن الحزن والغضب، ومن ذلك قوله :

كأنى ممثل من عالم الردى

تصطاده الأقدار من دجاه

وتوقده الشموع فى مسرحه الكبير

يضحك للفجر ، وملء قلبه الهجير[2].

وقوله كذلك :

جيكور، مسى جبينى فهو ملتهب

مسيه بالسعف

والسنبل الترف

مدى علىّ الظلام السمر، تنسحب

ليلا، فتخفى هجيرى فى حناياها[3] :

فهنا تخرج الألفاظ عن حوزة معانيها المعجمية المباشرة، إلى التعبير عن معان وجدانية أخرى، تفهم من توزيعها فى سياقات لغوية مختلفة توزيعاً شعرياً جديداً.

وذلك بعض من عمل الشعر فى اللغة !.

---

(١) انظر فى ذلك :
دكتور عبدالقادر القط : الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر، مكتبة الشباب (١٩٧٨)، ص٢٢٢.
(٢) أمام باب الله، المعبد الغريق ص ١٣٨.
(٣) أفياء جيكور، المعبد الغريق ص ١٨٧.

obeikandl.com

جدول
الأفعال المضاعفة ومعدلات التكرار

الأفعال	معدلات التكرار فى كل ديوان				
	أزهار وأساطير	المعبد الغريق	مترل الأفنان	أنشودة المطر	شناشيل
ثرثر			١		
جلجل		١			
جمجم			١	١	
دغدغ			١	٢	٣
دمدم				١	
دندن		٣	١		١
ذرذر		٢			
رجرج	١			١	
رفرف			١		
رقرق	١		٢	١	١
زحزح					١
زلزل		١		١	
سقسق		١		١	
صلصل				٣	
ضعضع		٢			١
عسعس		١			
عضعض		١		١	
غلغل				٢	

obeikandl.com

جدول
الأفعال المضاعفة ومعدلات التكرار

الأفعال	معدلات التكرار فى كل ديوان				
	أزهار وأساطير	المعبد الغريق	مترل الأفنان	أنشودة المطر	شناشيل
غمغم	٩	٢	١	٣	١
قعقع			١		
قفقف				١	
قهقه	٣	١			١
كركر		٤		٥	٣
كفكف			١		
لألأ	٢				
لجلج	١				
ململ		٢			
للم				١	
هدهد	١		١		
هزهز			١		
وسوس	١	٦	١٦	٦	٣
وشوش			١	١	
ولول		١			

قراءة الجدول :

١- أكثر الأفعال المضاعفة تردداً هو (وسوس)، يليه (غمغم).

٢- أكثر الدواوين التى ترددت فيها هذه الأفعال هو ديوانه قبل الأخير (أنشودة المطر)، يليه ديوانه الثانى (المعبد الغريق).

٣- أكثر الأفعال ترددا : (وسوس) و (غمغم) تدل على الأصوات الخفية أو المتداخلة.

٤- تعكس معدلات التكرار العالية لتلك الأفعال ارتفاع درجات التوتر فى التجربة السيابية، ويصدق ذلك – بالفعل – من قراءة ديوانيه : (المعبد الغريق) و (أنشودة المطر).

obeikandl.com

٥- فضلا عن تردد الصيغ الفعلية المضاعفة، ترددت كذلك الأسماء المكررة بنسب مرتفعة نسبياً كالهسهسة، والولولة، والسقسقة، والقعقعة، والقفقفة، والوهوهة .. الخ.

٦- إذا قورنت لغة السياب – فى هذا الخصوص – بلغة غيره من رواد مدرسة الشعر الحر، وجدناه أكثر هؤلاء الشعراء ميلاً إلى استخدام الصيغ الفعلية والاسمية والوصفية المكررة (وقد بلغ عدد تردد الفعل المضاعف وحده ١١١ مرة فى دواوينه المختلفة).

*** *** ***

obeikandl.com

سمات أسلوبية فى شعر صلاح عبد الصبور

يعد صلاح عبد الصبور أحد رواد مدرسة الشعر الحديث البارزين. وقد أسهم بنصيب عظيم فى حركة التجديد الشعرى شكلاً ومضموناً؛ وحظى شعره – لقيمته الفنية العالية، ومحتواه الأيديولوجى المتميز – بدراسات نقدية كثيرة شغلت زوايا فنية مختلفة، كالتجديد فى المضامين والموسيقى .. الخ . ولكنه – فى مقابل ذلك – لم يحظ باهتمام مماثل على مستوى البحث اللغوى والأسلوبى المتخصص. ولا يكاد الحديث عن لغة صلاح عبد الصبور يعدو – حتى الآن – إشارات وملحوظات سريعة مجملة، ترتبط – فى مجموعها – بالنظر النقدى أكثر من ارتباطها بالتحليل اللغوى والأسلوبى بالمعنى الدقيق.

ولا أستطيع هنا أن أزعم أن هذه الدراسة تقدم تحليلا شاملا لخصائص الاستخدام اللغوى فى شعر صلاح عبد الصبور، إنما هى – بالأحرى – مدخل لعرض بعض السمات اللغوية والأسلوبية الأساسية فى شعره، وتحليلها فى ضوء الدراسات الحديثة فى علم الأسلوب.

إن لغة الشاعر أو الأديب ليست مجرد علامات لغوية تطلق على مسمياتها، ولكنها – فى جوهرها – تعبير عن جوانب عقلية وانفعالية يبدو فيها الخلق والإبداع. واللغة المستخدمة – على هذا النحو – تمثل أسلوباً بعينه، فالأسلوب هو ما يبدو فى العمل اللغوى من تصوير مؤثر للجوانب الإنسانية فى اتساعها وعمقها عن طريق استخدام جميع طاقات اللغة(١). وإذا كان علماء اللغة يهتمون بجميع أنماط التنوع اللغوى linguistic variation؛ كالتنوع التاريخى والإقليمى والاجتماعى، فإن الأسلوب يعد أحد أنماط هذا التنوع. إن تحليل الأسلوب ليس إلا طريقة من طرق النظر فى اللغة(٢).

ويعنى التحليل – فى جوهره – بتحديد السمات الأسلوبية stylistic features للنص أو النصوص المدروسة. وتتميز هذه السمات بمعدلات تكرار عالية نسبيا، ولها أهمية خاصة فى تشخيص الاستخدام اللغوى عند المبدع.

وتقوم دراستنا للسمات الأسلوبية على أساس خطوتين متتابعتين متكاملتين :

(الأولى) : الوصف اللغوى المجرد للمثيرات اللغوية ذات القيمة الأسلوبية، وتعرف باسم stylistic stimuli. وقد يلجأ الباحث اللغوى الأسلوبى إلى الإحصاء؛ لقياس معدلات تكرار

---

(١) انظر: Seidler,Herbert,Allgemeine Stilistik,Zweite,Auflage, Goettingen (1963),S.58.

(٢) انظر فى ذلك بالتفصيل :
Enkvist, Nils Erik, Linguistic Stylistics, Mouton, The Hague-Paris (1973) p.25.

المثيرات أو العناصر اللغوية الأسلوبية : قلة وكثرة. وهو يستعين فى ذلك بالدراسة الأدبية التى تساعده على تحديد النص المعيار norm الذى يقارن به نصه المدروس. ويكون النص المعيارى بمثابة الخلفية للنص المدروس. وقد يجعل الباحث من خبراته الماضية أساساً للمقارنة[١].

و (الثانية) : وصف التأثيرات الإخبارية والدلالية والجمالية لتلك المثيرات[٢]. ويضاف إلى ذلك تحديد قيمتها الأسلوبية فى إبداع المعنى، سواء من خلال الصيغ التى تصاغ فيها الخبرات والتجارب، أم من خلال التراكيب اللفظية، التى تقدم إمكانات مساعدة على إبداع المعنى من خلال اجتماع الألفاظ فى وحدة عليا[٣].

وقد حدد زايدلر Seidler ثلاثة شروط لبيان نظام القيمة :

(١) الانطلاق من معرفة اللغة؛ فعن طريق اللغة ذاتها يمكن — بحق — الاقتراب من القيم الأسلوبية، بوصفها صياغة للشعور الإنسانى بالعالم.

(٢) تأمل الجانب الإنسانى فى صورته اللغوية، لا تأمل اللغة بوصفها بنية شكلية منفصلة عن صورتها الإنسانية، أو تأملها، بوصفها نظاما من العلامات Zeichen، يمثل مواصفات لغوية خارجية.

(٣) النظر إلى فن اللغة SPRACHKUNST، بوصفه منظومة من الطاقات الأسلوبية والعناصر الأسلوبية [٤] Organismus von Stilkraeften und Stilelementen.

ويمكن تحديد العناصر والمثيرات اللغوية الأساسية ذات القيم الأسلوبية فى شعر صلاح عبد الصبور فى النقاط التالية :

(١) التثنية.

(٢) التأنيث.

(٣) التصغير.

(٤) الفعل.

(٥) الصفة وقيمتها الأسلوبية فى المزاوجات المجازية.

(٦) رمزية الألوان.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٣) فى تفصيل ذلك انظر : Seidler, S. 74.

(٤) بتصرف من المرجع السابق ص ٧٢ ، ٧٣.

(٧) المزاوجات الاسمية وقيمتها الأسلوبية.

(٨) مزاوجات اسمية خاصة.

(٩) التأثر بلغة الحياة اليومية.

(١٠) التكرار وقيمته الأسلوبية.

وغنى عن البيان أن تلك المثيرات تختلف فيما بينها فى معدلات تكرارها، وفى قيمتها الأسلوبية على النحو الذى نراه فى تفصيل كل عنصر أو مثير منها على حده، وذلك فى ضوء المفاهيم والأفكار السابقة.

(١) القيمة الأسلوبية للتثنية :

يدخل المثنى فى المقولة الصرفية المعروفة باسم مقولة العدد Number Category. ولا يدل المثنى فى الاستخدام اللغوى فى شعر صلاح عبد الصبور دائما على الاثنين دلالة إخبارية مجردة محدودة، ولكنه يخرج عن ذلك – فى حالات غير قليلة نسبياً (بلغت معدلات تكرارها على هذا النحو حوالى ١٧ مرة) – إلى صورتين اثنتين :

(الأولى) دلالة المثنى على أكثر من واحد دلالة مطلقة.

(الثانية) قد يحمل المثنى قيمة أسلوبية بارزة، تعبر عن الرغبة فى المشاركة والنفور من التوحد، وعدم الاكتفاء بالمفرد.

ومن النوع الأول قوله :

صنعت لك

عرشاً من الحرير .. مخملى

بخرته من صندل

ومسندين تتكى عليهما

ولجة من الرخام، صخرها ألماس

جلبت من سوق الرقيق قينتين

قطرت من كرم الجنان جفنتين

والكأس من بلور[1].

---

(١) صلاح عبدالصبور: أغنية ولاء، الأعمال الكاملة، دار العودة – بيروت ، طبعة أولى (١٩٧٢) ص ١٠١.

أو قوله :

لا، لا تنطق الكلمة ...

حتى ولو ماجت بوجه النيل

أنسام ليلة صيف

حتى ولو رفت على أرغول

محرورة، نغمة

حتى ولو فى الرمل خط الإلف

حرفين ملويين[1].

أو قوله :

يا شجر الصفصاف : إن ألف غصن من غصونك الكثيفة

تنبت فى الصحراء لو سكبت دمعتين[2].

فلا يراد بالمثنى هنا العدد المحدد بالاثنين، و إنما يعنى – فيما أرى– عدداً ما من الأشياء أو بعضا منها. ومن النوع الثانى قوله :

لو أننا كنا بشط البحر موجتين

صفيتا من الرمال والمحار

توجتا سبيكة من النهار والزبد

أسلمتا العنان للتيار

....

لو أننا كنا نجيمتين جارتين

من شرفة واحدة مطلعنا

فى غيمة واحدة مضجعنا

نضئ للعشاق وحدهم وللمسافرين

نحو ديار العشق والمحبة[3].

---

(١) أقول لكم، أحبك، ص ١٤٦.

(٢) أقول لكم، الظل والصليب ص ١٥٠، وانظر أمثلة أخرى ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٤٠.

(٣) أحلام الفارس القديم، ديوان أحلام الفارس القديم، ص ٢٤٢ – ٢٤٤، وقارن ص ٩٥ ، ٢٤٤.

obeikandl.com

فالإلحاح على صيغة المثنى انعكاس للرغبة فى المشاركة والنفور من التوحد.

ولا شك أن صلاح عبد الصبور قد عمد إلى استخدام صيغة المثنى على هذا النحو – فى بعض الأحيان – تأثراً باستخدامها فى نحو العامية، التى ينصرف المثنى فيها أحيانا، إلى الدلالة على ما زاد عن واحد زيادة مطلقة، دون التقيد بدلالة المثنى المألوفة فى العربية. وقد نرى ذلك فى قوله مثلا :

يطيب لى فى آخر المساء أن أقول كلمتين

شفاعة أرفعها إليك يا سيدة النساء

الحب يا حبيبتى أغلى من العيون

صونيه فى عينيك واحفظيه[1].

(٢) القيمة الأسلوبية للتأنيث :

فضلا عن انتشار الكلمات المؤنثة فى شعر صلاح عبد الصبور، على نحو استخدامها فى اللغة، مثل: (طينة) و (حبوة) ونحوهما، نلاحظ ظاهرة أخرى هى تأنيث ما ألفت اللغة استخدامه مذكراً فحسب.

ومن تأنيث المذكر (بحر) فى قوله :

وكانت السماء بحرة تموج بالحنان

والشمس والهلال فى الخضم زورقان[2].

وتأنيث المذكر (بدر) فى قولة :

يا عجبا، كل مساء موعدى مع المضرج الشهيد

كأن منديل الشفق دمه

كأن مدرج الهلال كفه ومعصمه

كأن ظلمة المساء معطفه

وبدرة السنا أزرار سترته[3].

وتأنيث المذكر (شعاع) فى قوله :

وقيل لكم :

---

(١) أحلام الفارس القديم، أغلى من العيون ص ٢٤١.

(٢) الناس فى بلادى، ذكريات ص ٥٥.

(٣) الناس فى بلادى، الشهيد ص ٩٨.

obeikandl.com

بأن حياتكم جسر، وأن بقاءكم مسطور

خطى بميقات إلى دار ببابين

نطوف بها كومض شعاعة العين[1].

بل قد يتعدى تأنيث المذكر إلى تأنيث المؤنث فى الأصل؛ ومن ذلك تأنيث (كأس) فى قوله :

وأنت يا حبيبى أسقيتنى خمرة

فى كاسة مدورة[2].

ولا شك أن هذه الظاهرة ترتبط بالظاهرة التالية وهى التصغير؛ فإذا كان (دال العاطفة) فى التصغير هو الياء، فإن (دال العاطفة) فى التأنيث هو التاء، لا سيما إذا أنث المذكر. وليس التأنيث والتصغير إلا وجهين لقيمة أسلوبية واحدة هى التأثير ولإثارة العاطفة عن طريق تأكيد الميل إلى ما قل وصغر ورق وحُبب إلى النفس، فى مقابل الإعراض عن وسائل تأثيرية أخرى، كالتكثير والتفخيم والتهويل.

(٣) القيمة الأسلوبية للتصغير :

يلاحظ الباحث فى العربية الحديثة — على مختلف مستويات الاستخدام اللغوى — قلة الاعتماد على التصغير، ومن ثم قلة تردد الألفاظ المصغرة. وكثيراً ما يستعاض عن (مورفيم التصغير) بكلمة (صغير) ومؤنثها، حتى فى لغة الشعر الحديث ذاته. وفى ضوء ذلك فإنه يسهل علينا ملاحظة تردد الألفاظ المصغرة والتنبه إليها، لاسيما إذا ارتفع معدل تكرار هذه الألفاظ ارتفاعا نسبياً (بلغ حوالى١٣مرة). والحق أن التصغير فى شعر صلاح عبد الصبور لم يخرج عن أغراضه المألوفة، كالتدليل والتلميح[3]، والتقليل[4] والتعظيم[5]، وإفادة قرب الزمان أو تقليله[6]، وتقليل عدد المصغر[7]، وإفادة صغر الحجم[8]، وإن كانت هذه الأغراض فى ذاتها تعبر عن تعدد القيم الأسلوبية للتصغير.

---

(١) أقول لكم، الحرية والموت ص ١٦٧.
(٢) الناس فى بلادى، أناشيد غرام ص ٧١، وأنظر أيضاً ص ٧٧ من القصيدة نفسها.
(٣) أنظر ص ٦٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٢٤٣.
(٤) أنظر ص ٨٥.
(٥) أنظر ص ١٧٠.
(٦) أنظر ص ٣٠٣ ، ٣٠٥.
(٧) أنظر ص ١١٨ ، ٣١٠ ، ٣٣٢.
(٨) أنظر ص ١٧٥.

ولا يتجلى دور التصغير فى شعر صلاح عبد الصبور فى التعبير عن تلك الأغـراض بقـدر ما يتجلى فى اختياره المصغر وإيثاره على نظيره غير المصغر.

وهذا الاختيار دليل على تمتع الشاعر بحس لغوى مرهف؛ كمـا أن الإيثـار دليـل علـى تمتعه بحس لغوى واع. ويستطيع الشاهد التالى أن يوضح ذلك ويبرهن عليه :

الصبح يدرج فى طفولتـه والليل يحبو حبو منهـزم
والبدر لملم حول قريتنـا أستار أوبته ، ولم أنـم
ونجيمة تغفو بنافذتـى لحظت شرودى لحظ مبتسم[١]

فهو يستخدم المصغر (نجيمة) بدلا من (نجمة) بقصد التعـبير عـن تـولى الليـل ونجومـه الظاهرة. ويرتبط بظاهرة التصغير فى شعر صلاح عبد الـصبور تـردد الوصـف بكلمـة (صـغير) ومؤنثها، كالبستان الصغير[٢]، والفرش الصغير[٣]، والفراش الـصغير[٤]، والمـسيح الـصغير[٥]، والأذن الصغيرة[٦].

وقد تخرج هذه الكلمة عن مألوف استخدامها فى التعبير عـن الحجـم، أو الاتـساع، أو الصغر فى مقابل الكبر، إلى التعبير عن الضعف فى مقابل الشدة، ومن ذلك (سحبة صـغيرة) فى قوله :

يهز قلبنا الحنين، يا علم
فى سحبة صغيرة من طرفك المعقود[٧].

واستخدام الصفة هنا، للدلالة على هذا المعنى، مألوف تماماً فى لغة الحديث اليومى .

(٤) القيمة الأسلوبية للفعل :

تـدل نـسبة الفعـل إلى الـصفة Verb – Adjective Ratio – كمـا أثبتـت معادلـة بوزيمان Busemann– على ارتفاع نسبة الأفعال إلى الصفات فـى النـصوص الـشعرية، فـى مقابل انخفاضها فى النثر[٨].

---

(١) الناس فى بلادى، الرحلة ص ٤٤.
(٢) أنظر ص ٦٨.
(٣) أنظر ص ٧٥.
(٤) أنظر ص ٧٨.
(٥) أنظر ص ٨٢.
(٦) أنظر ص ٧٥.
(٧) الناس فى بلادى، مرتفع أبداً ص ٨٩.
(٨) الدكتور سعد مصلوح : الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، دار الفكر العربـى ط٢ (١٤٠٤ – ١٩٨٤) ص ٦٥، وعن التعريف بالمعادلة واستخداماتها انظر ص ٥٩ وما بعدها.

وقد تشكلت معادلة بوزيمان فى إطار أحد فروع علم اللغة الحديث، وهو علم اللغة النفسى Psycholinguistics " وقد أسفر تطبيق المعادلة عن إمكانات كبيرة لقياس درجة الاستقرار العاطفى عند الأفراد، خاصة فى بحوث علم نفس الطفل، كما اكتشف أيضا وجود ارتباط مرتفع بين زيادة هذه النسبة واتصاف الشخصية بخصائص معينة، مثل الحركة، والعاطفية، وانخفاض درجة الموضوعية والعقلانية، وعدم توخى الدقة فى التعبير"[1].

وقد حاولت تطبيق هذه المعادلة على بعض العينات المختارة اختياراً عشوائيا من شعر صلاح عبد الصبور. وبلغ عدد القصائد إجمالا ١٢ قصيدة. وهى الملك لك، ورسالة إلى صديقة، من ديوان (الناس فى بلادى)، والظل والصليب وأغنية خضراء، من ديوان (أقول لكم)، وأغنية للقاهرة، وحكاية قديمة، من (أحلام الفارس القديم). وانتظار الليل والنهار، ومذكرات رجل مجهول، ورؤيا، من (تأملات فى زمن جريح)، وتأملات ليلية وتوافقات، وتنويعات، من ديوانه (شجر الليل).

وإنما أكثرنا من عينات الديوانين الأخيرين لمقارنة معدلات تكرار الفعل ونسبته إلى الصفة فيها، على أساس أنهما يمثلان إنتاجه فى المرحلة الأخيرة، ولتشابههما الواضح فى المضمون والصياغة، واختلافهما عن دواوينه الأولى التى تمثل إنتاجه فى المرحلة الأولى والمتوسطة. وتحسب نسبة الفعل إلى الصفة على النحو التالى :

$$\text{ن ف ص} = \frac{\text{عدد الأفعال}}{\text{عدد الصفات}}$$

وقد أثمرت الإحصاءات الإجمالية عن النتائج التالية :

(١) الناس فى بلادى + أقول لكم + أحلام الفارس :

$$\text{متوسط ن ف ص} = \frac{٣٣١}{١٥٥} = ٢ر١ \text{ تقريباً}$$

(٢) تأملات فى زمن جريح + شجرة الليل :

$$\text{متوسط ن ف ص} = \frac{٣٠٣}{١٨٤} = ١ر٦ \text{ تقريباً}$$

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥.

وهكذا يبرهن الإحصاء – فى حدود العينات المختارة للاختبار – على صحة معادلة بوزيمان. ويمكن أن يستنتج من هذا الإحصاء ما يلى :

(١) ارتفاع معدلات ن ف ص ارتفاعاً واضحاً فى جميع المراحل، فمتوسط النسبة فى الدواوين الثلاثة الأولى هو ٢ر١ تقريباً، ومتوسط النسبة فى الديوانين الأخيرين ٦ر١ تقريباً.

(٢) ارتفاع معدلات تكرار الصفة فى الديوانين الأخيرين من شعر صلاح عبد الصبور، عنها فى الدواوين الثلاثة الأولى، وهذا مما أدى إلى انخفاض ن ف ص فى هذين الديوانين.

(٣) يتطابق انخفاض ن ف ص فى الديوانين الأخيرين مع ما بينهما من علاقة حميمة فى المضمون والصياغة، حيث ينزع شعره فيهما إلى التأمل، وإعمال الذهن، وإبراز الفكرة الفلسفية، والحرص على تحديد أنواع الأشياء عن طريق الوصف.

(٤) ويمكن أن يستنتج من انخفاض ن ف ص فى الديوانين الأخيرين عن الدواوين السابقة، تمتع الشاعر فى أواخر عمره بالاستقرار العاطفى والانفعال الهادئ. أو بعبارة أخرى: يمكن أن يستنتج من هذا الانخفاض بروز الموضوعية والعقلانية فى المرحلة الأخيرة على حساب الحركية والعاطفية.

ومهما يكن من أهمية هذه المعادلة وطرافة نتائجها وإغرائها بالتطبيق، فلاشك أن القيمة العددية للفعل تظل عاجزة عن التوصيف الشامل الدقيق لخصائص الاستخدام اللغوى عند الشاعر، حتى يسندها الكشف عن مدى تميزه من الشعراء، أو على الأقل، عن مدى نجاحه فى توصيف (الفعل) للتعبير عن قيم أسلوبية مختلفة.

إن للفعل فى شعر صلاح عبد الصبور أهمية خاصة؛ فهو يحاول – من حيث البنية – الاعتماد على أحد أقسام الفعل لأغراض أسلوبية معينة، أو ابتكار صيغ فعلية جديدة، باشتقاقها من الأسماء الجامدة. وهو يعتمد على الفعل كثيراً– من حيث الدلالة – فى إبداع المعنى، سواء باستخدامه استخداماً حقيقياً أم استخداماً مجازياً :

(١) يميل صلاح عبد الصبور إلى تضعيف صيغة (فَعَلَ) مخففة العين كالفعل (طنن) فى قوله (عن أمه) :

وتهتف إن عثرت رجليه
وإن أرق الصيف أجفانيه
وإن طننت نحلة حوليه
باسم النبى[1].

---

(١) الناس فى بلادى، الملك لك، ص ٥٨ ، ٥٩.

ومن أمثلة ذلك أيضا استخدام (غلل) فى مقابل (غل) كما يدل (اسم المفعول) فى قوله:

صديقتى

عمى صباحا، لإن أتاك فى الصباح

هذا الخطاب من صديقك المحطم المريض

وادعى له إلهك الوديع أن يشفيه

وسامحيه، كيف يرجو أن ينمق الكلام

وكل ما يعيش فيه أجرد كئيب ؟

فقلبه كسير

وجسمه مغلل إلى فراشه الصغير[1].

فاستخدام طنن > طنّ، وغلل > غلّ (بالتضعيف) يعطى التعبير قيمة أسلوبية واضحة؛ فهو يعبر عن القوة ويدل على شدة الحدث؛ ولذلك فهو – كما يقول فندريس – يعبر عن قيمة انفعالية واضحة جداً[2].

(٢) حاول الشاعر ابتكار صيغ فعلية جديدة عن طريق الاشتقاق. ويدخل ذلك تحت ظاهرة (التجديد اللغوى Neologismus)، التى تشتمل على الكلمات الجديدة والأبنية الجديدة. إن هناك تجديدات يشيع استخدامها، دون القصد إليها على أنها تجديد أسلوبى Stilistischer Neologismus[3].

وفى مقابل ذلك، نجد نمطاً آخر من التجديد اللغوى الذى تمثله الأبنية العرضية الفردية عند كاتب بعينه individuelle Bildungen , okkasionelle. وترتبط هذه الأبنية بنص معين، ولا تحتاج إلى أن تدخل فى الثروة اللفظية للنظام اللغوى Wortschatz des Sprachsystems. ولهذه الأبنية تأثير تعبيرىexpressiv ينبع من تأثير جدتها Neuheitseffekt [4].

وتلعب التجديدات اللغوية الفردية العرضية دوراً خاصاً فى الشعر، وتعد أحد عناصر اللغة الفنية kunstlerische. وتجذب الكلمة الجديدة القارئ أو السامع بوصفها صورة قوية

---

(١) الناس فى بلادى، رسالة إلى صديقة ص ٧٨.

(٢) اللغة، ترجمة عبدالحميد الدواخلى ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٠١.

(٣) Fleischer, Wolfgang – Michel, Georg, Stilistik der deutschen Gegenwartssprache, Leipzig (1977), S.101

(٤) المرجع السابق ص ١٠٢.

obeikandl.com

Kraftiges Bild وتـداعيا غـير متوقـع Unerwartete Kombination إنهـا تـؤثر فـى إحساسنا تأثيرا أقوى من القوالب الشائعة المألوفة[١].

ومن أهم الصيغ الفعلية الجديدة التى ابتكرها صلاح عبد الصبور عن طريق اشتقاقها من الاسم الجامد، الفعل (تجهنم) من (جهنم) فى قوله :

ما يولد فى الظلمات يفاجئه النور،

فيعريه،

لا يحيا حب غوّار فى بطن الشك أو التمويه

....

أشباح الماضى بئس الرؤيا حين تجهنمها الغيرة

فإذا لاقى قلبان ثقيلان الدنيا

ظنا ما مات يكفن فى الكلمات الحلوة[٢].

والحق أن هذا الاشتقاق اشتقاق (صبورى) محض، ولا أعرف أحدا من الشعراء استخدمه قبله. وهناك اشتقاقات أخرى يشترك فيها صلاح عبد الصبور مع غـيره مـن الـشعراء؛ ومـن ذلك اشتقاق الفعل (برعم) و (تبرعم) من الاسم (برعم) فى قوله :

قضت ! قضت !

وعن ديارنا مضت

من بعد ما تكور النهد

وبرعمت عليه وردة ، وسال شهد[٣]

وقوله :

يا أملا تبسما

يا زهرا تبرعما

.....

قلبى فريد

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣.
(٢) أقول لكم ، كلمات لا تعرف السعادة ص ١١٥.
(٣) أقول لكم، الحرية والموت ص ١٦٩.

obeikandl.com

يغور فيه جرحه المديد[1].

ومن تلك الاشتقاقات الجديدة أيضا اشتقاق الفعل (طلسم) من الاسم (طلسم) فى قوله:

جاء الزمن الوغد

صدئ الغمد

وتشقق جلد المقبض ثم تخدّد

سقطت جوهرتى بين حذاء الجندى الأبيض

وحذاء الجندى الأسود

علقت طينا من أحذية الجند

فقدت رونقها

فقدت ما طلسم فيها من سحر مفرد

. . . . . .

آه يا وطنى ! [2]

وكما قلت، فإنه يصعب نسبة هذه الاشتقاقات الجديدة إلى صلاح عبد الصبور؛ فقد وردت أمثالها عند شعراء آخرين. ومن ذلك مثلا (برعم) التى وردت فى قول بدر شاكر السياب :

أواه لو يفيق

إلهنا الفتى، لو يبرعم الحقول[3].

إن هذه الاشتقاقات ترجع إلى أصل معروف، وعلاقة الربط بين الفرع والأصل هنا واضحة قوية. وتتجلى القيمة الأسلوبية للمشتق الجديد من توليد غير المعروف؛ فسمات الجدة والطرافة فى ذاتها، تعد قيمة أسلوبية مهمة، من حيث غرابتها وإدهاشها ومفاجأتها القارئ أو السامع. وهى تدهشنا وتبهجنا دهشة الوليد الأول وبهجته، لاسيما إذا كانت مقبولة غير ممجوجة. وهذا ما نجده هنا فى الفعل (جهنم) مثلا؛ فالحاجة إلى التعبير عن نوع الحدث فى كيفية بذاتها، لايغنى عنها فعل آخر، ولا يستطيع أن يحمل القيمة الشعورية نفسها، مهما كانت دلالته على الشدة والقوة، مثل : التهب، واضطرم، ونحوهما؛

---

(١) الناس فى بلادى، أناشيد الغرام ص ٧٠.

(٢) شجر الليل، فصول متنوعة ص ٤٧ ، ٤٨.

(٣) الأعمال الكاملة، ديوان أنشودة المطر، سريروس فى بابل ص ٤٨٣.

obeikandl.com

لارتباط الأصل نفسه – وهو الاسم (جهنم) – فى الذهن والوجدان بدلالة أقوى من ذلك وأشد. إن ذلك يرجع – كما قلنا – إلى بقاء الأصل نواة المعنى Sinnkern.

(٣) وكذلك حاول الشاعر توسيع دلالة بعض الأفعال، باستخدامها بمعنى آخر غير معناها الأصلى، ومن ذلك قوله :

كان فجرا موغلا فى وحشته
مطر يهمى، وبرد، وضباب، ورعود قاصفة
قطة تصرخ من هول المطر
وكلاب تتعاوى[١].

فالعواء صوت الذئاب، وقد جعله هنا، للكلاب أيضا، بالرغم من وجود صوت (النباح). وبين (العواء) و (النباح) وحدة معنوية تجمعهما، هى الدلالة على الصوت العالى المسموع.

(٤) وقد يستخدم الشاعر الفعل لتجسيد المعنوى، كالفعل (أرى) فى قوله :

ومضى عنى، وراحت خطواته فى السكون
.....
ونرى طلعته بين الضباب
وأرى الموت، فأعوى : يا أبى[٢].

ففى (أرى الموت) تجسيد للموت، كأنه كائن مدرك بالعين.

(٥) وقد تتوالى الأفعال تواليا ملحوظا أحيانا، على نحو ما نجد فى المقطع التالى :

لا يمضى زمن حتى تتمدد أجنحة الظلمة
تتكوم عندئذ فى عينى المرئيات
تتقارب فيها الأجسام وتتلاصق
تتواجه ، تتعانق
تندمج وتهوى فى الأفق المغلق
تبدو كتل أخرى من أركان نائية جهمة
تتكور أجساما
تتكسر جسما ، جسما ، تتشكل هامات

---

(١) الناس فى بلادى، أبى ص ٢٣ ، ٢٤.
(٢) الناس فى بلادى، أبى ص ٢٦.

قامات ، أزرعة ، أقداما

تتقدم نحوى حتى أخشى أن تصدمنى

أتوقف ، لا أدرى ماذا أفعل

فأعود إلى شباكى[1].

والحق أن الذى يلفت نظرنا هنا أساساً، ليس التوالى الكمى للأفعال، وإنما التوالى الكيفى؛ فالفعل فى هذا المشهد ذى الطابع الدرامى، هو الذى يقود الحركة، وهى حركة متطورة متجددة، ولكنها لا تتجه – فى تطورها وتجددها – اتجاهاً أفقياً مسطحاً، وإنما تسير فى خط رأسى أو تصاعدى؛ إذ لا تعبر الأفعال عن الانتقال من حركة إلى الحركة منقطعة عن سابقتها، وإنما تعبر عن علاقة طردية بين الحركات، حيث تكون اللاحقة نتيجة للحركة السابقة. والأفعال ترسم لنا هذا الخط الرأسى التصاعدى؛ فأجنحة الظلمة تتمدد، ونتيجة لذلك تتكوم المرئيات فى عينى الشاعر، ثم تتقارب الأجسام، ثم تتلاصق، ثم تتواجه، ثم تتعانق، ثم تندمج، ثم تهوى.

وإذا كان الفعل (تتمدد) هنا يمثل قاعدة الخط الرأسى، فإن الفعل (تهوى) يمثل قمته :

(١) تأملات فى زمن جريح، حديث فى المقهى ص ٣١٩ ، ٣٢٠.

أما الحركة فى المرحلة التالية (تبدو كتل..إلخ) ، فإن اتجاهها لا يتغير أيضا، مع سقوط الأجسام – الذى يعبر عنه الفعل (تهوى) – وإنما تتغير صورتها فقط؛ فإذا كانت الحركة فيما سبق حركة ذاتية، أو ذات جانب واحد، بمعنى تغير الأجسام فى ذاتها دون أن يظهر تأثيرها فى نفس الشاعر، فإن الحركة هنا ذات جانبين :

(أ) جانب ذاتى : يبدو فى انتقال الأجسام – فى المرحلة الجديدة – وتحويلها من صورة إلى صورة.

(ب) وجانب موضوعى : يبدو فى نتيجة هذا الانتقال وتأثيره فى نفس الشاعر؛ وهو خوفه، وتوقفه عن النظر وحيرته، ثم اختياره العودة.

ولا يخلو هذا المشهد من عوامل لغوية أخرى مساعدة. وتبدو هذه العوامل فيما يلى :

(أولاً) التعبير بالفعل المضارع، الذى يقوم بوظيفة استحضار الحدث.

(ثانياً) إهمال حرف العطف مع الفعل أحياناً (فى مثل : تتواجه، تتعانق .... الخ) تأكيداً للإحساس بتغير الحدث، ومع الاسم أحيانا أخرى (فى مثل : هامات، قامات ... إلخ) تأكيداً للإحساس بانتقال الجسوم والمرئيات من صورة إلى أخرى انتقالا سريعا مفاجئا.

(٦) ويستغل الشاعر (الفعل) كذلك فى صنع المقابلة بين الأزمنة؛ كالمقابلة بين المضارع والماضى فى قوله :

فحين يقبل المساء، يقفر الطريق، والظلام محنة الغريب

يهب ثلة الرفاق، فض مجلس السمر[١].

حيث نجد المقابلة بين (يهب) و (فض).

أو قوله :

أعود يا صديقتى لمنزلى الصغير

وفى فراشى الظنون، لم تدع جفنى ينام[٢]

حيث نجد المقابلة بين (أعود) و (لم تدع).

(٧) ويبرز دور (الفعل) – فى استخدامه على المستوى المجازى – فى تجسيد المجرد، وتصوير هيئته، مثل (ينفر الوداد) فى قوله عن صديقه :

كان اسمه "نبيل"

وكنت فى محبتى أدعوه بلبلى الحبيب

---

(١) الناس فى بلادى، رحلة فى الليل ص ٧.

(٢) الناس فى بلادى، رحلة فى الليل ص ٨.

وكان راجف الجناح، دائب السفر

وكان حينما بعود ينفر الوداد من فؤادى[١].

أو (مشى الملالة) كالكائن الحى فى قوله :

طال الكلام .. مضى المساء لجاجة .. طال الكلام

وابتل وجه الليل بالأنداء

ومشيت إلى النفس الملالة، والنعاس إلى العيون[٢].

هكذا يسهم الفعل فى تجسيم المجردات. وكما يقول زايدلر Seidler؛ فإنه عن طريق التجسيم Verdinglichung تتكشف قيم الوضوح وقابلية الشئ للإبصار Werte der Klarheit und Uebrschaubarkri[٣].

(٨) وقد يدخل الفعل مع الاسم فى مزاوجة مجازية طريفة، تعتمد — فى إبداع المعنى — على علاقة (التضاد) بين طرفيها، مثل (موت الحياة) فى قوله :

..... ويظل يسعل، والحياة تموت فى عينيه، إنسان يموت

وعلى محياه القسيم سماحة الحزن الصموت[٤].

(٥) القيمة الأسلوبية للصفة فى المزاوجات المجازية :

يلاحظ الباحث فى شعر صلاح عبد الصبور إلحاحه الشديد على خلق المزاوجات اللفظية المبتكرة بين الاسم والصفة، سواء كان ذلك باستغلال كلمة (حلو) ومقابلها (مر) ، أم باستخدام كلمات أخرى كثيرة استخداماً مجازياً.

وإذا كانت كلمة (حلو) — التى ترددت فى شعره على نحو ملحوظ — قد استخدمت استخدامها المألوف للدلالة أحيانا على ما يذاق، مثل (الكأس الحلوة)[٥] ، فإن هذه الكلمة قد تزاوجت فى أكثر الأحيان مع ما لا يذاق، كالمقلتين الحلوتين[٦]، والكلمتين الحلوتين[٧]، والأوقات الحلوة[٨]، والكلمات الحلوة[٩]، والشمس الحلوة كذلك[١٠].

---

(١) الناس فى بلادى، سأقتلك ص ٩٤.
(٢) الناس فى بلادى، السلام ص ٣٤.
(٣) Seidler, S. 148 .
(٤) الناس فى بلادى، السلام ص ٣٣.
(٥) أحلام الفارس القديم، أغلى من العيون ص ٢٤٠.
(٦) الناس فى بلادى، رسالة إلى صديقة ص ٨٠.
(٧) الناس فى بلادى، أناشيد غرام ص ٧٦.
(٨) الناس فى بلادى، الملك لك ص ٥٨.
(٩) أقول لكم، كلمات لا تعرف السعادة ص ١١٥.
(١٠) أحلام الفارس القديم، أحلام الفارس القديم ص ٢٤٣.

وأغلب الظن أن تردد هذه الصفة واستخدامها على هذا النحو، إنما هو انعكاس لكثرتها وتغليبها على صفات أخرى فى لغة الحديث اليومى Alltagsrede. ويمكن أن نلحظ ذلك – فى يسر – فى المزاوجتين :

المقلتان الحلوتان	فى مقابل	"جميلتان"
الشمس الحلوة	فى مقابل	"جميلة"

كذلك استخدمت الصفة (مرّ) فى بعض المزاوجات اللفظية استخداماً مجازياً، وإن كانت هذه المزاوجات من النوع المألوف فى الشعر العربى فى عصوره المختلفة، مثل : الفجائع المرة[١]، والضنى المر[٢].

وإنما يبدو الابتكار والغرابة فى مزاوجات أخرى مثل (الجلال المرّ) فى قوله :

وإن أتانى الموت، فلأمت محدثا أو سامعا
أو فلأمت، أصابعى فى شعرها الجعد الثقيل الرائحة
فى ركنى الليلىّ، فى المقهى الذى تضيئه مصابح حزينة
حزينة كحزن عينيها اللتين تخشيان النور فى النهار
عينان سوداوان نضاحتان بالجلال المرّ والأحزان[٣].

ولا تتجلى القيمة الأسلوبية للصفة هنا فى قدرتها على الجمع بين المجرد والمحسوس تارة، أو بين المحسوسين تارة أخرى فحسب، وإنما تتجلى كذلك فى استغلال الشاعر قدراتها الإيحائية، وإطلاق هذه القدرات دون التوقف عند معانيها الدلالية؛ (فالجلال المرّ)، مثلا قد توحى بالأسى واختفاء تجارب غير سارة، وقد توحى بالإباء والشموخ برغم الحزن، وقد توحى بالتجمل ورفض الواقع، وقد توحى بذلك كله، أو بدلالات أخرى فضلاً عن كل ذلك.

وبالإضافة إلى ما سبق، تتوارد فى شعر صلاح عبد الصبور عشرات المزاوجات اللفظية الوصفية المجازية، حيث تتمتع الصفة فيها بقدرات إيحائية عالية متعددة.

ومن ذلك (الظلمة البلهاء) ، التى توحى بطغيانها وامتدادها وتحديها دون وعى أو ترفق أو رحمة :

---

(١) الناس فى بلادى، الملك لك ص ٦٠.
(٢) أقول لكم، العائد ص ١٣٤.
(٣) أحلام الفارس القديم، أغنية الليل ص ٢٠٠.

فى معزل الأسرى البعيد

الليل، والأسلاك،

والحرس المدجج بالحديد

والظلمة البلهاء، والجرحى، ورائحة الصديد[١].

ومن ذلك أيضاً (الزمان الضرير) ، دلالة على ما يلاقيه منه دون وجه حق، بعد أن فقد هذا الزمان قدرته على التمييز بين الناس والأشياء :

وافرحا .. نعيش فى مشارف المحظور

نموت بعد أن نذوق لحظة الرعب المرير والتوقع المرير

وبعد آلاف الليالى من زماننا الضرير[٢].

وتبلغ الصفة داخل المزاوجة اللفظية درجة عالية من الإدهاش والغرابة والابتكار على نحو ما نجد فى (الحزن الضرير)[٣]، و (البكاء الضرير)[٤].

وقد يعبر عن فقدان الأشياء جدواها وغايتها بكلمة (عقيم)، مثل (الحزن العقيم)[٥]، و(الحلم العقيم)[٦]، أو كلمة (مجدب)، مثل (يوم مجدب)[٧]، أو فقدانها حيويتها وقوتها ونضارتها بكلمة (مقفر) مثل (الضلوع المقفرة)[٨]، أو ضياعها وعدم القدرة على إرجاعها إلى حالها بكلمة (مكسور) مثل (الأمنية المكسورة)[٩]، أو زيادتها ونمائها غير المرغوب فيه بكلمة (مخضلّ)، مثل (الجرح المخضلّ)[١٠].

وتبدو القيمة الأسلوبية للصفات السابقة فى انطلاق الدلالات الإيحائية المثيرة فى اتجاهات متشعبة متعددة. ويرجع تمتع هذه الصفات بالتعدد فى الدلالة إلى عاملين أساسيين.

---

(١) الناس فى بلادى، هجم التتار ص ١٥ ، ١٦.
(٢) أقول لكم، الظل والصليب ص ١٥٣.
(٣) الناس فى بلادى، الحزن ص ٣٧.
(٤) أقول لكم، العائد ص ١٣٥.
(٥) أحلام الفارس القديم، أغلى من العيون ص ٢٣٩.
(٦) شجر الليل، ٤ اصوات ليلية ص ٨٥.
(٧) شجر الليل، ٤ أصوات ليلية ص ٨٢.
(٨) أحلام الفارس القديم، الحب فى هذا الزمان ص ٢٢٢.
(٩) أقول لكم. الحب ص ١٦٢.
(١٠) الناس فى بلادى، أغنية حب ص ٦٨.

(أولهما) المزاوجة بين المجرد والمحسوس فى كثير من الأحيان.

(والآخر) هو عدم تطابق هذه الصفات – بعامة – مع الأسماء تطابقاً إخبارياً narrative؛ لأنها قد انتزعت من حقولها الدلالية الخاصة إلى حقول دلالية أخرى مختلفة، فى شكل مجازى استعارى.

وفضلاً عما سبق، تفصح صفات أخرى عن قدرة إيحائية فائقة فى تصوير الحالات النفسية المعقدة؛ فقد تعبر عن النفور والضيق والوحشة، فى مثل (الصمت الراكد) فى قوله:

الصمت راكد ركود ريح ميتة

حتى جنادب الحقول ساكتة[1].

و (الخوف الداجى) فى قوله :

آه،

ليس هو الليل،

بل الخوف الداجى،

أنهار الوحشة،

والرعب المتمدد

والأحزان الباطنة الصخّابة[2].

وقد تعبر عن الغضب والحزن وعدم الرضا، مثل (النفس الذابلة)، فى قوله :

وحينما تهتز أجفانى

وتفلتين من شباك رؤيتى المنحسرة

بين الأرض والسماء

ويسقط الإعياء

منهمراً كالمطرة

على هشيم نفسى المنكسرة

كأنه الإغماء[3]

---

(١) أحلام الفارس القديم، الصمت والجناح ص ٢١٧.

(٢) شجر الليل، ٤ أصوات ليلية للمدينة المتألمة ص ٧٩.

(٣) شجر الليل، البحث عن وردة الصقيع ص ٢٥.

obeikandl.com

و (الرنة المنشرخة) فى قوله :

وربما سألته، لأنه اتكا، ومال فوق بعضه، وزاد :

" وشت بك الأنغام، أيها الغلام "

(سنى تقارب الخمسين، ربما يكون هذا اللفظ شارة الوداد)

فى صوتك الخفى رنة منشرخة مشبوهة القصد، غريبة المرام[١].

والحق أن شعرنا العربى قد عرف بعض هذه المزاوجات فى عصوره المختلفة حتى العصر الحديث، (فالزمان الضرير) عند الشاعر يذكرنا (بالزمان الأعمى) عند (إيليا أبو ماضى)[٢]، و (الحظ الأعمى) عند (إبراهيم ناجى)[٣]. و (الفجائع المرة) و (الضنى المر) ونحوهما عند الشاعر تذكرنا (بالفراق المر) عند أبى تمام[٤] و (الجفاء المر) عند ابن النبيه المصرى[٥]. و (اليوم المجدب) عند الشاعر يذكرنا (بالزمن الجدب) عند ابن النبيه أيضاً[٦]، و(العمر الجديب) عند ناجى[٧]. و (الصمت الراكد) يذكرنا – مع اختلاف الطرف الأول بين المزاوجتين – (بالشمس الراكدة) عند ذى الرمة[٨]. و (الخوف الداجى) عند الشاعر يذكرنا (بالخطب الداجى) عند شوقى[٩].

والحق أن شعر صلاح عبد الصبور، بالرغم من ذلك، قد احتوى على بعض المزاوجات الطريفة التى لا نكاد نجد لها مثالاً فى شعرنا القديم والحديث؛ وهى تعد من أكثر المزاوجات فى شعره إثارة وغرابة وجدة وإدهاشاً، ومن ذلك (الصوت الرطب) فى قوله :

وتقدم هذا المحبوب .. الشعر

وبأصابعه فك الختم وأفشى السر

أنشأت أغرد فى صوت بالدمعة رطب

---

(١) تأملات فى زمن جريح، عود إلى ما جرى ذلك المساء ص ٢٨٩ ، ٢٩٠.

(٢) أنظر ديوانه، دار العودة، بيروت (بدون تاريخ) شاعر الشهور ص ٣٧٠.

(٣) أنظر وراء الغمام، الأعمال الكاملة، دار الشروق، ط ١ (١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م) ص ٩٧.

(٤) ديوانه، شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية، دار صعب، بيروت (بدون تاريخ) ص ٩٦.

(٥) ديوانه، تحقيق عمر محمد الأسعد، دار الفكر، ط١(١٩٦٩) قصيدة (= ق) ١٣ بيتاً (= ب) ٣ صفحة (=ص) ١٥٩ .

(٦) ديوانه، ١٦٩/٢١/١٤.

(٧) وراء الغمام ص ١١.

(٨) ديوانه، بشرح الإمام أبى نصر أحمد بن حاتم الباهلى، صاحب الأصمعى، تحقيق الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، دمشق (١٩٧٢ – ١٩٧٣) ٩٨٩/١٤/٣٠.

(٩) الشوقيات، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ج ١ (١٩٧٠) صدى الحرب ص ٤٢.

لليل، وللفجر الغافى بالباب

ولأصحابى[1].

حيث يتجلى (تراسل الحواس) فى جعل حاصل المزاوجة :

صوت رطب = سمع لمس .

وكأن الشاعر هنا يجعلنا نسمع بأيدينا. وقد يجعلنا نبصر بأيدينا كذلك، فى المزاوجة (ليل ناعم) فى قوله :

أنا تدفينى الألفاظ الحرى

وتقفقفنى الألفاظ الباردة الرعناء

لفظ حالم

قد يولد فى ليل ناعم

فى حضن النيل الباسم[2] .

ويتجلى (تراسل الحواس) أيضاً فى المزاوجة (كلام مملح)، حيث يكون السمع باللسان:

وأنت ياجامدة الأحداق كالنجوم

يسيل من أشداقك الكلام أبيضاً ومملحا

كالزبد المسموم[3].

وغنى عن البيان أن الانتباه ينصرف فى إبداع هذه المزاوجات إلى الصفة أكثر من انصرافه إلى الموصوف، وجعل هذه الصفات من المدركات الحسية يؤدى إلى تعيين الموضوعات وإدراكها، وتحقيق هويتها، وتوسيع معانيها. إنها تلقى على الموصوفات ضوءاً باهراً، يبرزها، ويخرجها من حقلها المألوف.

ولا ينبغى أن يفهم هذا الكلام – بالطبع – على انصراف القيمة الأسلوبية إلى الصفة فى ذاتها؛ لأنها قد تعجز عن حمل تلك الدلالات والإيحاءات فى حقلها المعتاد. ومعنى ذلك أن الفضل فى إبراز هذه القيمة وإعلانها يرجع إلى استخدام الصفة فى مجموعة لفظية مجازية.

---

(١) أقول لكم، أغنية خضراء ص ١٢٦.

(٢) أقول لكم، الألفاظ ص ١٢٠.

(٣) تأملات فى زمن جريح، استطراد أعتذر عنه ص ٢٨٣.

obeikandl.com

وإذا كان المجاز أو الاستعارة فى الشعر ظاهرة أولية وأساسية Primaere Erscheinung كما يقول بيرمان Behrmann[1]، فإن الذى يسترعى الانتباه هنا هو القدرة على خلق الاستعارة الجديدة، لإبداع المعنى الجديد.

وقد اجتهد صلاح عبد الصبور فى إبداع المعنى عن طريق خلق مزاوجات مجازية تسير الصفة فيها فى اتجاه مضاد للموصوف. وبذلك يتخلق معنى بكر لا عن طريق علاقة (المشابهة) التى توجبها البلاغة القديمة[2]، وإنما عن طريق علاقة (التضاد) بين طرفى المزاوجة: المستعار والمستعار له. ومن ذلك (فرح جديب) فى قوله :

ثم يمر ليلنا الكئيب

ويشرق النهار باعثا من الممات

جذور فرحنا الجديب[3].

حيث توحى الصفة بفقدان الموصوف ما يجعله كذلك، من رضا وبهجة وتعلق.

والربط بين لفظين متناقضين Oxymoron فى عبارة وصفيةadjectival phrase من السمات التى يعرفها الشعر العالمى المعاصر مثل (الشعلة السوداء) عند راسين Racine، و(الشمس السوداء) عند نرفال Nerval، و (الشمس السوداء) عند هوجو Hugo[4].

ومهما يكن من أمر، فإن الذى لا شك فيه أن الأمثلة السابقة تدل على أن الشاعر قد ارتكز ارتكازاً شديداً على المزاوجات المجازية بين الاسم والصفة، وجعل من هذه المزاوجات وسيلة أسلوبية Stylistic device أساسية فى شعره لإبداع الغاية الأسمى : المعنى. ومن حق صلاح عبد الصبور علينا أن نؤكد توفيقه فى ابتكار مزاوجات جديدة، وفى تفوقه المدهش فى اختيار الصفة للموصوف ومناسبتها له فى ثوب جديد كل الجدة. ويكفى للتدليل على ذلك المزاوجة (هموم معشبة) فى قوله :

الإطار

قلبى الملئ بالهموم المعشبة

---

(١) Behrmann, Alfred, Einfuehrung in die Analyse von Verstexten, 2., Auflage, Sammlung Metzler Bd, 89, Stuttgart (1974) S. 53.

(٢) انظر مثلاً : أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجانى، شرح وتعليق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى، مكتبة القاهرة، ج ٢، ص ٢٢٠ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦، وقارن : التلخيص فى علوم البلاغة، للقزوينى، ضبطه وشرحه : عبدالرحمن البرقوقى، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ص ٢٩٥.

(٣) أحلام الفارس القديم، أغنية إلى الله ص ٢٠٨.

(٤) Ullmann, Stephen, Meaning and Style, Oxford (1973) p.60 .

وروحى الخائفة المضطربة

ووحشة المدينة المكتئبة[1].

حيث توحى الصفة بالكثرة والتشابك وصعوبة الخلاص. ومن هذا النوع من المزاوجات كذلك (اليأس القاتم) فى قوله :

.....

ثم يصير الوهم أحلاماً

لأنه مات، فلا يطرق سور النفس إلا حين يظلم المساء

كأنه أشباح ميتين من أحبابنا

ثم يصير الحلمُ يأساً قاتماً وعارضاً ثقيلاً[2].

حيث لا تؤكد الصفة هنا معنى الشدة فحسب، بل تثير – فى الوقت نفسه – الإحساس بالوحشة والضياع وفقدان الرجاء.

والقتامة درجة من درجات اللون. وقد وظفها صلاح عبد الصبور توظيفاً رمزياً بارعاً على ما نرى فى الفقرة التالية.

(٦) رمزية الألوان وقيمتها الأسلوبية :

لم تقتصر المزاوجات اللفظية فى شعر صلاح عبد الصبور على الأنماط السابقة، وإنما تعدتها إلى استغلال الصفات اللونية فى تشكيل مزاوجات تتجلى قيمتها الأسلوبية فى جعل لغته الشعرية لغة رامزة موحية، لا سيما إذا وضعت الصفة اللونية مع اسم غير متوقع فى مزاوجة واحدة. وعدم التوقع هنا يعنى ضم الصفة إلى موصوف لم تألف اللغة وصفه بها. ولا يشترط فى هذا الموصوف – حينئذ – كونه حسياً أو مجرداً، فكلاهما وارد فى شعر صلاح عبد الصبور.

ومن أمثلة النوع الأول المزاوجة (خطر مخضر) فى قوله :

كان طفلاً عندما فرّ عن البيت وولّى

من سنين عشرة، ذات مساء، كان طفلا

وافتقدناه، ناديناه فى أحلامنا

وانتظرنا خطوه المخضر فى كل ربيع

---

(١) شجر الليل، تقرير تشكيلى عن الليلة الماضية، ٩٨.

(٢) أحلام الفارس القديم، أغنية إلى الله ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

obeikandl.com

وشكونا جرحه خلاننا[١].

وتبدو قيمة الصفة اللونية هنا فى خلق دلالات متشعبة غير مباشرة؛ فالاخضرار رمز البركة والدعة والراحة، وكأن الخطو المخضّر هنا هو الخطو الذى يجلب البهجة والراحة والبركة.

ومن أمثلة النوع الثانى المزاوجة (المحبة الخضراء) فى قوله :

أهل بلادى يصنعون الحب
كلامهم أنغام
ولغوهم بسّام
وحين يسغبون يطعمون من صفاء القلب
وحين يظمأون يشربون نهلة من حب
ويلغطون حين يلتقون بالسلام
– عليكم السلام
– عليكم السلام
لأن من ذرى بلادنا ترقرق السلام
وفاض من بطاحها محبة خضراء مثل نبتة الحقل[٢].

حيث تكتسب المحبة لوناً يرمز إلى ما تتمتع به من خصوبة وبركة ونماء وتجدد.

والحق أن صلاح عبد الصبور قد استغل هذا اللون، فأبدعت ريشته به مزاوجات مجازية أروع وأكثر طرافة. ويتجلى هذا بوضوح فى المزاوجة (الأنغام الخضراء) فى قوله :

فى ليلة صيف
وقع أحد الشعراء البسطاء
أنغاما ساذجة خضراء
ليناجى قلب الإلف[٣].

فهو يرسم النغم باللون، أو بعبارة أخرى : يجعلنا نسمعه بالعين.

ويلاحظ الباحث فى شعر صلاح عبد الصبور أن أكثر الألوان تواردا فى شعره هما الأخضر والأبيض؛ ففضلاً عما سبق، اشترك اللون الأخضر فى مزاوجات مجازية أخرى مثل (بحر السعد الأخضر)[٤] وغيرها.

---

(١) أقول لكم، العائد ص ١٣٤.
(٢) الناس فى بلادى، سأقتلك ص ٩٦.
(٣) أحلام الفارس القديم، رسالة إلى سيدة طيبة ص٢٢٤.
(٤) أقول لكم، أغنية خضراء ص ١٢٧.

obeikandl.com

أما اللون الأبيض، فإن دلالته العامة هى الصفاء والطهارة والسلام. ولكن هذه الدلالات تمتلك خصوصيتها وفقاً للموصوف فى كل مزاوجة، مثل (البسمة البيضاء)[١]، أى التى لا رياء فيها، (والأفراح البيضاء)[٢] أى الخالصة التى لا تشوبها شائبة، و (الرقة البيضاء)[٣]، أى الطاهرة العفيفة التى لا خلاعة فيها ولا سخف، و (البشارة البيضاء)[٤]، أى التى تبعث التفاؤل والأمل، و (الكلام الأبيض)[٥]، و (الألفاظ البيض)[٦]، أى التى تنشر فى النفس الطمأنينة والسلام وراحة البال!

ولا تخلو قائمة الألوان فى شعر صلاح عبد الصبور، من اللون الأسود، وإن كانت مزاوجاته نادرة، على نحو ما فى (الخوف الداجى)[٧]، التى مرت بنا، و (الأنغام السوداوية)[٨]. ومن ناحية أخرى، تقابلنا صفات الألوان ودرجاتها فى مزاوجات عدة. وتكاد تتساوى صفات الشحوب والدكنة مع الصفات المقابلة لها. فمن النوع الأول (الغمامة الشاحبة)[٩]، و(اليأس القاتم)[١٠].

ومن النوع الثانى (الرحمة الزهراء)[١١]، و (النور الرائق)[١٢].

وإذا كان شعرنا العربى قد استغل تلك الدلالات الرمزية للألوان، واعتمد عليها فى إبداع المعنى، على نحو ما نجد فى (الوصال الأخضر) عند ذى الرمة[١٣]، و (النغمة الخضراء) عند الأعمى التطيلى[١٤]، وابن زيدون[١٥]، و (الحق الأبيض) عند البهاء زهير[١٦]، و (النغمة

---

(١) الناس فى بلادى، السلام ص ٣٣.
(٢) الناس فى بلادى، الحزن ص ٣٩.
(٣) الناس فى بلادى، سأقتلك ص ٩٧.
(٤) أحلام الفارس القديم أغلى من العيون ص ٢٣٩.
(٥) تأملات فى زمن جريح، اسنطراد أعتذر عنه ص ٢٨٣.
(٦) أقول لكم، كلمات لا تعرف السعادة ص ١١٥.
(٧) شجر الليل، ٤ أصوات ليلية ص ٧٩.
(٨) أحلام الفارس القديم، رسالة إلى سيدة طيبة ص ٢٢٤.
(٩) الناس فى بلادى، السلام ص ٣٣.
(١٠) أحلام الفارس القديم، أغنية إلى الله ص ٢٠٦.
(١١) الناس فى بلادى، سأقتلك ص ٩٧.
(١٢) أحلام الفارس القديم، لوركا ص ٢٢٩.
(١٣) ديوانه : ٣١٥/١٥/١٠.
(١٤) ديوانه : تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (١٩٦٣)، ١٣/٥/٤.
(١٥) ديوانه : ٢٦١ ، ٢٨٨.
(١٦) ديوانه : تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوى، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب (٥٣) (١٩٧٧) ص ٥٤ ، ١٦١.

البيضاء) عند ابى تمام[1]، و (الأمانى البيض) عند الأعمى التطيلى[2] ... إلخ، فإن هناك بعض المزاوجات التى لا نكاد نجد لها مثيلا فى شعرنا، مثل (النور الصدئ) فى قوله :

أنذرنا من قبل أن يجئ

بأن يوما مجدباً تقدمه

وظل يلتف على أرواحنا

حتى تهتكت خيوط نوره الصدئ [3].

وتتجلى صورة الإبداع هنا فى نقل صفة (الصدأ) من حقل دلالى يختلف اختلافا تاماً عن الحقل الذى تنتمى إليه كلمة (النور)؛ وهو نقل غير متوقع، يبعد عن التوارد الذهنى والعاطفى المباشر.

فإذا كان (الصدأ) فى المعادن، فقد عقد الشاعر بينه وبين النور علاقة معنوية، قد يفهم منها الدلالة على النور الضعيف الباهت؛ فإذا كان النور يظهر ما تحته أو ما حوله، فهو هنا نور صدئ لا يمكنه ذلك.

(٧) المزاوجات الاسمية وقيمتها الأسلوبية :

فضلا عن وفرة المزاوجات المجازية التى تبنى من العنصرين : اسم صفة، تقابلنا فى شعر صلاح عبد الصبور مزاوجات أخرى تتعاقب فيها الأسماء؛ وتبنى من اسم + اسم. وتتكون هذه المزاوجات أحيانا من محسوس +مجرد، مثل (جذور الفرح) فى قوله :

ثم يمر ليلنا الكئيب

ويشرق النهار باعثا من الممات

جذور فرحنا الجديب[4] .

و (سيقان الندم) فى قوله :

سوخى إذا فى الرمل، سيقان الندم

لا تتبعينى نحو مهجرى، نشدتك الجحيم

وانطفئ مصابح السماء

كى لا ترى سوانح الألم

---

(١) ديوانه : ص ٧٨.

(٢) ديوانه : ٢٤/١٨/٨.

(٣) شجر الليل، ٤ أصوات ليلية للمدينة المتألمة ص ٨٣.

(٤) أحلام الفارس القديم، أغنية إلى الله ص ٢٠٨.

ثيابى السوداء[1].

وفيهما يقوم المحسوس بوظيفته الدلالية فى تشخيص المجرد، وفى إيثار (الجذور و(السيقان) ما يوحى بالامتداد والتأصل.

ومن ذلك أيضا المزاوجة الطريفة (أهداب الذكرى) فى قوله :

زرنا موتانا فى يوم العيد

وقرأنا فاتحة القرآن ، وللمنا أهداب الذكرى

وبسطناها فى حضن المقبرة الريفية.

حيث توحى كلمة (الأهداب) فيها بحداثة الذكرى وقصورها ومعاودتها مرة بعد مرة (وقابل ذلك باستعمال الجذور والسيقان فى المزاوجتين السابقتين).

وقد تبنى المزاوجة من : محسوس + محسوس. وإذا كانت المزاوجة من هذا النوع مألوفة أحيانا مثل (أجنحة الظلمة)[2]، فهى لا تخلو من الجدة والغرابة أحيانا مثل (عروق الشمس)[3].

(٨) مزاوجات اسمية خاصة :

فضلا عما سبق، نجح صلاح عبد الصبور فى إبداع المعنى عن طريق الجمع بين اسمين من حقلين دلاليين مختلفين على نحو جديد ومبتكر. وإذا كان لكل كلمة فى اللغة مزاوجاتها المألوفة، فإن الخيال الشعرى يخرج الشاعر– أحيانا – عن عرف اللغة إلى رؤية علاقات حتمية جديدة بين الألفاظ التى لا تترابط قط فى الاستعمال العادى.

وتأخذ هذه العلاقات فى شعر صلاح عبد الصبور أربع صور مختلفة، هى :

(١) خلق علاقة مناسبة بين طرفى المزاوجة.

(٢) الاعتماد فى إبداع المعنى أحيانا على علاقة التضاد.

(٣) وضع الاسم فى غير موضعه المألوف أحيانا.

(٤) تسمية الشئ بغير اسمه الذى يطلق عليه عادة.

وتتجلى مهارة الشاعر فى خلق علاقة المناسبة فى اختيار الطرف الأول من المزاوجة، الذى يؤكد معناه معنى الطرف الثانى ويجسم هيئته، ويحوله إلى شئ مجرد مدرك محسوس. ومن أمثلة ذلك فى شعر صلاح عبد الصبور المزاوجات التالية :

---

(١) أحلام الفارس القديم، الخروج ٢٣٦.

(٢) تأملات فى زمن جريح، زيارة الموتى ص ٣١٤.

(٣) تأملات فى زمن جريح، انتظار الليل والنهار ص ٣٠٤.

(أ) (شراع الظن) فى قوله :

تظل حقيقة فى القلب توجعه وتضنيه

ولو جفت بحار القول لم يبُحر بها خاطر

ولم ينشر شراع الظن فوق مياهها ملاح

وذلك أن ما نلقاه لا نبغيه

وما نبغيه لا نلقاه[1].

ففى هذه المزاوجة يفاجئنا هذا التناسب العجيب الذى يخلقه الشاعر بين طرفيها؛ فالأول يناسب الثانى من حيث دلالته الإحائية — هنا — على التردد العاصف، والقلق، والانتقال من حال إلى حال.

(ب) ومن هذه المزاوجات كذلك (لقم التذكار) فى قوله :

عودوا يا موتانا

سندبر فى منحنيات الساعات هنيهات

نلقاكم فيها، قد لا تشبع جوعا، أو تروى ظمأ

لكن لقم من تذكار

حتى نلقاكم فى ليل آت[2].

ولا شك أن هذه مزاوجة (صبورية) بكر؛ وهى توحى بالتذكر مرة بعد مرة، كما يضع الآكل فى فمه لقمة بعد لقمة.

وقد بعتمد الشاعر على المزاوجة بين محسوسين، ولكن تبقى مهارته فى اختيار الطرف الأول ظاهرة أيضاً. ومن ذلك (حوائط الظلمة)، فى قوله :

وهكذا مات النهار

ومال جنب الشمس، واستدار

.....

وانطفأت نوافذ المرضى، وأنوار الجسور

فى أعين الحراس والمآذن

---

(١) أحلام الفارس القديم، مذكرات الصوفى بشر الحافى ص ٢٦٦.

(٢) تأملات فى زمن جريح، زيارة الموتى ص ٣١٦.

تكومت حوائط الظلمة فى مداخل البيوت والمخازن[1].

حيث يتناسب الطرف الأول مع الثانى، من حيث دلالته على الانحصار والوقوع فى أسر الظلمة التى تكومت حوائطها.

وقد يجاوز الشاعر – فى إبداع المعنى – علاقة (التناسب) بين الطرفين إلى علاقة (التضاد)؛أى الجمع بين الشئ وضده فى مزاوجة واحدة ومن ذلك (جدول اللهب) فى قوله:

لقد بلوت الحزن حين يزحم الهواء كالدخان

.....

ثم بلوت الحزن حينما يفيض جدولا من اللهيب.

نملأ منه كأسنا، ونحن نمضى فى حدائق التذكرات[2].

فالمزاوجات هنا لا تأخذ الصورة الطردية : ١ مع ٢، وإنما تبدو فى صورة أخرى هى الصورة العكسية : ١ ضد ٢؛ فقد جمعت المصاحبة الأخيرة بين الماء (جدول) والنار (لهيب) ، أى جمعت فى الخيال الشعرى بين شيئين لا يجتمعان فى الواقع والطبيعة. وتتخلى القيمة الأسلوبية للمزاوجة هنا فى تعميق الإحساس بالمعنى عن طريق الجمع بين العناصر المتضادة؛ فلم يعد (الجدول) – كما نألف – يثير فينا الإحساس بالراحة والسكينة والهدوء العميق، بل تحول من الاستخدام الجديد إلى مثير للرعب والفزع والعذاب.

ومن علاقة التضاد أيضا المزاوجة (دوامة السكون)، فى قوله :

أعود يا صديقى لمنزلى الصغير

وفى فراشى الظنون، لم تدع جفنى ينام

مازال فى عرض الطريق تائهون يظلعون

ثلاثة أصواتهم تنداح فى دوامة السكون

كأنهم يبكون[3].

ففى (دوامة السكون) تتصاحب الحركة مع السكون فى آن واحد؛ فالسكون هنا ليس سكوناً سالباً، بليداً، يسمح للشاعر بأن يسمع فيه صوتاً آخر غير صوته هو، وإنما هو سكون موجب، حى، متصل، لا يتوقف. ولا شك أن الخيال الشعرى هو المسئول هنا عن خلق

---

(١) تأملات فى زمن جريح، انتظار الليل والنهار ص ٣٠٢.

(٢) أحلام الفارس القديم، أغنية إلى الله ص ٢٠٧ ، ٢٠٨.

(٣) الناس فى بلادى، رحلة فى الليل ص ٨.

مثل هذه المزاوجات ذات العناصر المتضادة فى الواقع، وكأن الشاعر يريد أن يولد المعنى من اللامعنى.

وقد يلجا الشاعر – أحياناً – إلى وضع الاسم فى غير موضعه المألوف. ويبدو ذلك فى منح ما يرى فحسب صوتاً مسموعاً، نحو (حفيف النجوم)، وكأنه يجمع بين ما يسمع صوته فى الأرض (الشجر) وما يرى سناه فى السماء (النجوم) :

وقالت لى :

بأن النهر ليس النهر، والإنسان لا الإنسان

وأن حفيف هذا النجم موسيقى

وأن حقيقة الدنيا ثوت فى كهف

وأن حقيقة الدنيا هى الفلسان فوق الكف[1].

وتداخل العناصر الكونية على هذا النحو فى اللغة الشعرية نجده كذلك فى (حقل السماء)، فى قوله :

وفجأة أورق فى حقل السماء نجم وحيد

ورف فى الصمت البليد ريش طائر فريد[2].

وتبدو تسمية الشئ بغير اسمه الذى يطلق عليه عادة فى نقل كلمة (الأسراب) من دلالتها على جماعات الطير، إلى الدلالة على الجماعات من الناس كذلك؛ وهو نوع من توسيع المعنى :

وفى نفس الضحى الفواح

خرجت لأنظر الماشين فى الطرقات، والساعين للأرزاق

وفى ظل الحدائق أبصرت عيناى أسراباً من العشاق

وفى لحظة

شعرت بجسمى المحموم ينبض مثل قلب الشمس

شعرت بأننى امتلأت شعاب القلب بالحكمة[3].

وقد يقصد إلى هذا النقل – أحياناً – للتهكم أو الاستهزاء، كنقل كلمة (ثغاء) التى تطلق على صوت الماعز، وإطلاقها على أصوات الندامى والمتسكعين :

---

(١) أقول لكم، القديس ص ١٧٦.

(٢) أحلام الفارس القديم، الصمت والجناح ص ٢١٧ ، ٢١٨.

(٣) أقول لكم، القديس ص ١٧٧.

ويضحكون ضحكة بلا تخوم

ويقفر الطريق من ثغاء هؤلاء[١].

(٩) التأثر بلغة الحياة اليومية :

يختلف الشعر الحديث عن الشعر التقليدى اختلافاً شديداً فى هذه المسألة؛ فالشعر الحديث – بعامة – قد تأثر بلغة الحياة اليومية تأثراً واضحاً، سواء على مستوى استخدام بعض الكلمات المرتبطة بلغة الحديث اليومى، أم على مستوى العبارات ونظام تركيب الجملة.

والذى لا شك فيه أن هذا الاتجاه إلى الإفادة من معجم العامية ونظم تراكيبها، إنما هو انعكاس لطبيعة الموضوعات التى عالجها هذا الشعر؛ فقد برزت فيه قضايا الإنسان ومشكلاته وتفصيلات حياته اليومية، بما فيها من إحساس الغربة والضياع والتعقد والاضطراب الفكرى والروحى. ولم يكن مناسباً أن يعبر عن تلك الموضوعات بلغة خطابية على طريقة الواقعية الكلاسيكية، ولا بلغة ذاتية محافظة على طريقة الرومانسية ورموزها. وإنما كان من الضرورى التعبير عن تلك الموضوعات فى إطار واقعية جديدة. فى ضوء ذلك، كان طبيعياً أن يبحث الشاعر الحديث عن لغة جديدة تستطيع أن تصوغ موضوعاته الحياتية الجديدة. وقد وجد رواد هذا الشعر – ومن أبرزهم صلاح عبد الصبور – فى دعوى ت. س. إليوت T.S Eliot ما يتمشى مع نزعتهم. لقد انتهى إليوت إلى صياغة قانونه المعروف الذى ينص على : " أن الشعر يجب ألايبتعد ابتعاداً كبيراً عن اللغة العادية اليومية التى نستعملها ونسمعها "[٢].

ولا يعنى هذا القانون بالطبع " أن يكون الشعر نفس الكلام الذى يتكلمه الشاعر ويسمعه بحذافيره، ولكن يجب أن يكون بينه وبين لغة الحديث فى عصره ما يجعل سامعه أو قارئه يقول : هكذا كنت أتحدث لو استطعت أن أتحدث شعراً "[٣].

لقد أكد إليوت " أننا لا نريد من الشاعر أن يقتصر على المحاكاة الحرفية لطريقته هو فى الكلام العادى، وطريقة أسرته وأصدقائه وحيه الخاصة، لكن ما يجده فى هذه البيئة هو المادة الغفل التى يجب أن يصنع منها شعره "[٤].

---

(١) الناس فى بلادى، رحلة فى الليل ص ٨.

(٢) من مقالته : موسيقى الشعر، التى ترجمها الدكتور محمد النويهى فى كتابه (قضية الشعر الجديد، مكتبة الخانجى، دار الفكر، ط ٢ (١٩٧١) ، ص ١٩).

(٣) المرجع السابق ص ٢١.

(٤) المرجع السابق ص ٢٢.

وقد تمثلت هذه الدعوى فى شعرنا الحديث بعامة تمثلاً واضحاً؛ ويقف صلاح عبد الصبور موقفاً وسطاً، بين من اعتنق هذه الدعوى على حذر وتحرز من جيل الرواد، مثل بدر شاكر السياب، ومن بالغ فى تطبيقها والاعتماد عليها من الأجيال التالية، أمثال كمال عمار، وفتحى سعيد وغيرهما[١]. وإن كان صلاح عبد الصبور قد مال فى ديوانيه (تأملات فى زمن جريح)، و (شجر الليل)، إلى اللغة الشعرية المكثفة، التى لا تأخذ من لغة الحياة اليومية إلا بقدر يسير جداً.

وعلى مستوى الألفاظ المفردة تمتلئ القائمة بألفاظ تتوارد فى لغة الحياة اليومية، وتنأى عنها لغة الشعر التقليدى غالباً، مثل : الاستفراغ[٢]، ورائحة الصديد[٣]، والذباب[٤] .... إلخ، أو ألفاظ ترتبط بمعجم اللغة العامية، ويميل عنها الشاعر التقليدى إلى نظائرها التى لا تكاد العامية تعرفها، مثل : خلطة[٥]، وقرف[٦]، ووساخة[٧]، والأفعال (باس)[٨]، و(بص)[٩] .... إلخ. من ناحية أخرى، تتكرر فى شعره عبارات التحية والوداع[١٠]، وعبارات شعبية أخرى مثل (التبات والنبات)[١١]، وعبارات تفتتح بها الحكايات الشعبية، مثل (كان يا ما كان)[١٢] ....إلخ. أما التركيب النحوى فى شعر صلاح عبد الصبور، فقد تأثر تأثراً واضحاً بنحو اللغة العامية. ومن الأمثلة على ذلك الحال المنفى بعد الفعل (مضى) فى قوله :

ومضى، ولا حس ولا ظل كما يمضى ملاك[١٣].

وكأن التركيب هنا مقيس على العبارة العامية (وراح ولا حس ولا خبر). (وتأمل استعمال الشاعر كلمة " حس" أيضا بعد " لا " النافية). ولعل هذا التأثير قد امتد كذلك إلى توالى الفعلين توالياً مباشراً، على نحو ما فى قوله :

وقفت أمامكم ورفعت كفى قائلا : هيا

---

(١) أنظر دراسة لى فى هذا الموضوع بعنوان : لغة الحياة اليومية وتأثيرها فى البناء اللغوى للشعر الحر، مجلة إبداع، العدد السابع، يولية (١٩٨٦)، ص ٢٥ – ٣٠.
(٢) تأملات فى زمن جريح، استطراد أعتذر عنه ص ٢٨٢.
(٣) الناس فى بلادى، هجم التتار ص ١٦.
(٤) تأملات فى زمن جريح، مرثية رجل تافه ص ٣١٠.
(٥) أحلام الفارس القديم، مذكرات الملك عجيب بن الخصيب ص ٢٥٩.
(٦) أحلام الفارس القديم، مذكرات الملك عجيب بن الخصيب ص ٢٥٩.
(٧) تأملات فى زمن جريح، مرثية رجل تافه ص ٣١٠.
(٨) تأملات فى زمن جريح، مرثية رجل تافه ص ٣١٠.
(٩) تأملات فى زمن جريح، مرثية رجل تافه ص ٣١٠.
(١٠) أنظر أمثلة ص ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ٢٩٦.
(١١) الناس فى بلادى، رحلة فى الليل ص ١٢.
(١٢) الناس فى بلادى، شنق زهران ص ٢٠.
(١٣) الناس فى بلادى، السلام ص ٣٤.

هنا إنسان ...

يريد يدير فى فكيه ألفاظاً يدحرجها إلى الإنسان[1].

وذلك كقولنا فى العامية المصرية (عايز يدّور)، حيث يستخدم اسم الفاعل بمعنى الفعل.

وأغلب الظن أن الجمع بين " الكاف " و " مثل " فى " كمثل "، إنما هو من تأثير لهجات الخطاب تأثيراً مباشراً.

ومن ذلك قوله :

عرفت أن قلبك الأسيان

كمثل قلبى،

شارد يبكى على دمامة الزمان[2].

أو قوله :

لأن الحب قهار كمثل الشعر

يرفرف فى فضاء الكون .. لا تعنو له جبهة

أحدثكم – بداية ما أحدثكم – عن الحب[3].

والحق أن الجمع بين " الكاف " و " مثل "، أو " الكاف " و " شبه " وقع فى الشعر العربى القديم. ومن ذلك قول الأعشى :

كميت يرى دون قعر الإنى كمثل قذى العين يقذى بها[4]

وقوله :

كونى كمثل التى إذ غاب وافدها أهدت له من بعيد نظرة جزعا[5]

أو قوله :

والأرض حمالة لما حملُ اللهُ وما إن ترد ما فعلا

يوما تراها كشبه أردية الخمس ويوما أديمها نغلا [6]

---

(١) أقول لكم، من أنا ص ١٥٩.
(٢) شجر الليل، وقال فى الفخر ص ٩٣.
(٣) أقول لكم، الحب، وأنظر أمثلة أخرى : الناس فى بلادى، رسالة إلى صديقة ص ٨٢.
(٤) ديوانه، دار صادر – بيروت (١٩٦٦) ص ٢٥.
(٥) المرجع السابق ص ١٠٦.
(٦) نفسه ص ١٧٠.

obeikandi.com

ومع ذلك، فإننى أحسب أن التأثير المباشر فى استخدامها إنما يرجع إلى لغة الخطاب الدارجة، التى تأتى فيها " كمثل " فى آخر الجملة عادة، نحو : الدهب رخص، والدولار كمثل !

لقد ترك أسلوب الحديث اليومى والسرد أثره واضحاً فى (حجم الجملة) عند صلاح عبد الصبور؛ إنها تطول حيث الاستغراق العاطفى أو التأمل الفكرى أو تصيد التفصيلات، وتقصر حيث الوثبات العاطفية المفاجئة المتقطعة، والخروج المباشر من فكرة إلى فكرة، دون التقيد الصارم بالتنظيم والترتيب. ولنأخذ مثالاً على ذلك هذه الأسطر من قصيدة (شنق زهران ١٨–١٩) :

١ – وثوى فى جبهة الأرض الضياء

٢ – ومشى الحزن إلى الأكواخ، تنين له ألف ذراع

٣ – كل دهليز ذراع

٤ – من أذان الظهر حتى الليل ... ياالله

٥ – فى نصف نهار

٦ – كل هذى المحن الصماء فى نصف نهار

٧ – مذ تدلى رأس زهران الوديع

.....

٨ – كان زهران غلاما

٩ – أمه سمراء، والأب مولد

١٠ – وبعينيه وسامة

١١ – وعلى الصدغ حمامة

١٢ – وعلى الزند أبو زيد سلامة

١٣ – ممسكا سيفا، وتحت الوشم نبش كالكتابة

١٤ – اسم قرية

١٥ – " دنشواى "

١٦ – شب زهران قويا

١٧ – ونقياً

١٨ – يطأ الأرض خفيفا

١٩ – وأليفا .

فى الأسطر السابقة يمكننا – فى يسر – ملاحظة ما يلى :

(١) تطول الجملة فى الاستهلال، والتقديم للحكاية، ورسم خطوطها العامة، على نحو ما نجد فى الجزء الأول بعامة، لا سيما الجملة الأولى والثانية، والجملة التى تشغل السطرين ٦، ٧.

(٢) مع الانتقال المفاجئ من فكرة إلى فكرة بالإخبار والوصف، تقصر الجملة، وتبنى – حينئذ – من وحدتين أو ثلاث وحدات صرفية، كالجمل : أمه سمراء – الأب مولد – بعينيه وسامة – على الصدغ حمامة ..... إلخ.

(٣) (القطع) بين عناصر الجملة، وهذا القطع كالوقفة القصيرة التى يقفها المتحدث للتفكير وتصيد ما نقص من كلامه. ونجد ذلك فى قوله : شب زهران قوياً– ونقياً، يطأ الأرض خفيفا – وأليفا.

(٤) صياغة التشبيه البليغ عن طريق (القطع) أو الفصل بين المشبه والمشبه به، كما نرى فى السطر الثانى، الذى يبدو كقولنا : (آدى محمد ماشى هناك أسد يهز الأرض) !

(٥) فى هذه الجمل القصيرة المتوالية يختزل ما يمكن اختزاله أو إسقاطه من وحدات صرفية اعتماداً على دور السياق فى الإفهام والتوصيل. ومن ذلك الضمائر وحروف العطف والأسماء الموصولة، أى الأدوات اللغوية الرابطة. ويبدو ذلك فى العبارات : تحت الوشم – نبش كالكتابة – اسم قرية – دنشواى، فى مقابل : (نبش كالكتابة هو (بمثابة) اسم قرية (تدعى) دنشواى).

(٦) الحرص على إفهام السامع؛ ويبدو ذلك هنا فى قوله : " فى نصف نهار " بعد قوله " من أذان الظهر حتى الليل "، لتحديد المدة الزمنية تحديداً واضحاً.

(٧) إعادة بعض العبارات وتكرارها بهدف التوضيح والتأكيد كذلك، على نحو ما نفعل فى حديثنا الحى، ويتجلى ذلك هنا فى إعادة عبارة (فى نصف نهار). وقد تكرر بعض الكلمات بهدف التفصيل والإضافة، كتكرار كلمة (ذراع).

ويبدو التكرار فى شعر صلاح عبد الصبور أكثر جرأة؛ حين تتكرر الكلمات السياقية contextual words[1] فى أسطر متوالية تواليا مباشراً، على نحو ما نجد فى قوله مثلاً :

---

(١) وهى الكلمات التى يرتبط معدل تكرارها بموضوع العمل اللغوى ذاته، ولا تمثل ميلاً أسلوبياً أو نفسياً :
Ullmann, Stephen, Meaning and Style, p. 73 .

وجه حبيبى خيمة من نور

شعر حبيبى حقل حنطة

خدا حبيبى فلقتا رمان

جيد حبيبى مقلع من الرخام

نهدا حبيبى طائران توأمان أزغبان

حضن حبيبى واحة من الكروم والعطور

الكنز والجنة والسلام والأمان قرب حبيبى[1].

وهذه الأبيات — كما يقول الدكتور محمد النويهى — تستثير نظائرها من الصور والأنغام فى شعرنا الدارج، من أمثال : عيونها .. عيون غزلان. وشعرها .. سبل جمال. ومناخيرها .. نبقة من الشام، وحنكها .. خاتم سليمان، وسنانها .. لولى ومرجان، ورقبتها .. بلاط حمام، وصدرها .. فحلين رمان[2]. كذلك، فقد لاحظ الدكتور النويهى — وهى ملحوظة ذكية صائبة — " أن كلمة (حبيبى) التى تتكرر فى الأبيات لها نبرة مختلفة تماماً عن نبرة كلمة (الحبيب)، حين تأتى فى الشعر المقلد. فنبرتها هنا هى النبرة الحية الساخنة التى نسمعها فى كلامنا فى الواقع، وفى الجيد من أغانينا "[3].

وينبغى الإشارة هنا إلى أن تمثل لغة الحديث اليومى على هذا النحو، قد زود شعر صلاح عبد الصبور بقيمة أسلوبية إضافية، تبدو فى المناسبة الذكية الواعية بين طبيعة الموضوعات وطبيعة اللغة المستخدمة للتعبير عن تلك الموضوعات.

وفى ديوانيه (تأملات فى زمن خريج) و (شجرة الليل)، اللذين يغلب عليهما الطابع الصوفى الفلسفى التأملى، يضعف التأثر بلغة الحياة اليومية إلى حد كبير، وإن ظل النسيج العام لشعره مصطبغا بهذه اللغة. وفى الحالين : التمثل فى الدواوين الأخرى، وضعفه فى هذين الديوانين، تبقى المناسبة كامنة — باختصار — فى مراعاة الحدث الكلامى – speech event للمقامspeech – situation، أو بالعبارة المشهورة : مراعاة الكلام لمقتضى الحال.

أو ليس ذلك جوهر البلاغة ؟

---

(١) الناس فى بلادى، أغنية حب ص ٦٧.

(٢) قضية الشعر الجديد ص ١٠٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٠٥.

(١٠) التكرار وقيمه الأسلوبية :

بعد التكرار repetition ظاهرة لغوية من حيث اعتماده – فى صوره البسيطة والمركبة – على العلاقات التركيبية syntagmatic relations بين الكلمات والجمل. وهو يعد – فى علو معدلات تكراره – وسيلة بلاغية rhetorical device ذات قيم أسلوبية مختلفة.

ويمكننا – وفقا للتصنيف العام عند أولمان[١] – التمييز بين نمطين أساسيين للتكرار فى شعر صلاح عبد الصبور :

(الأول) التكرار البسيط simple repetition.

و (الآخر) الأنماط المركبة للتكرار complex patterns of repetition وإذا كان هذا التصنيف يجرى على أساس تركيبى، فإن لكل نمط مما سبق صوراً بلاغية أخرى.

أما النمط الأول، فيمكن أن نجعله لتكرار الكلمة – أيا كان الجنس الصرفى الذى تنتمى إليه – فى جملة واحدة أو فى عدة جمل متوالية. ويمكننا – على أساس شكل التكرار وقيمته الأسلوبية معا– أن نجد لهذا النمط فى شعر صلاح عبد الصبور صوراً صغرى متعددة:

(١) تكرار الكلمة – السياق contextual – word، على نحو ما رأينا فى تكرار كلمة (حبيبى) مثلا فى قصيدة (أغنية حب) السابقة. وتبدو قيمته هنا فى إبراز أهمية الكلمة المكررة فى السياق، وجعلها بمثابة (المركز) الذى يدور حوله الحديث.

وقد تلعب الكلمة – السياق دوراً أخطر من ذلك، فتكون كالنغمة الأساسيةkey-note التى تصور المشهد بكامله، وتعبر عن جو القصيدة العام. ومن ذلك تكرار كلمة (حياة) فى قوله :

وأتى السياف مسروراً وأعداء الحياة
صنعوا الموت لأحباب الحياة
وتدلى رأس زهران الوديع
قريتى من يومها لم تأتدم إلا الدموع
قريتى من يومها تأوى إلى الركن الصديع
قريتى من يومها تخشى الحياة
كان زهران صديقا للحياة

---

(١) Ullmann, Stephen, Op. Cit., p. 61 .

مات زهران وعيناه حياة

فلماذا قريتى تخشى الحياة ؟[1].

ويعرف هذا النمط – على المستوى التركيبى الخاص – باسم Epipher أى تكرار اللفظ فى نهاية عدة جمل أو أجزاء من الجمل Satzteile يتلو بعضها بعضاً تواليا غير مباشر[2].

ولكننا نلاحظ – من ناحية أخرى – تكرار (قريتى ...) لارتباط الكلمة – السياق بها، أو لارتباطها بالكلمة السياق. وتكرارها هنا جاء فى بداية عدة جمل متوالية؛ وهذا الشكل يعرف باسم Anapher[3].

فإذا انتقلنا إلى التفسير الأسلوبى، رأينا أن كلمة (حياة) قد تكررت فى الأسطر التسعة السابقة ست مرات. وهى لا تلعب دورها هنا أساساً من مجرد التكرار العددى، وإنما هى التى تقوم بدور (المقابل) للحالة الشعورية المسيطرة. إن الخوف هنا ليس خوفا من الموت، كما تقضى الطبيعة الإنسانية، وإنما هو خوف من الحياة. ولذلك يرتكز الشاعر على كلمته المكررة للحض على البقاء والترغيب فى الحياة، ونفى الخوف منها. وقد عبر الشاعر عن ذلك بوسائل بلاغية مختلفة :

(أ) المقابلة بين أعداء الحياة وأحباب الحياة.

(ب) التعلق بالحياة وأسبابها وإن تسلط الموت، ويبدو ذلك فى عبارة :

مات زهران وعيناه حياة.

و(زهران) هنا هو الرمز الذى يجسد معانى الصراع ضد الموت (ولاحظ إيثار" العينين" هنا).

(ج) الاستنكار والتوبيخ فى عبارة :

فلماذا قريتى تخشى الحياة ؟

ومن الأمثلة على هذا النمط كذلك كلمة (انكسار) فى قوله :

هجم التتار

ورموا مدينتنا العريقة بالدمار

.....

---

(١) الناس فى بلادى، شنق زهران ص ٢٢.

(٢) Fleischer-Michel, Stilistik, S. 168 .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٨.

والأفق مختنق الغبار

وهناك مركبة محطمة تدور على الطريق

والخيل تنظر فى انكسار

الأنف يهمل فى انكسار

العين تدمع فى انكسار

والأذن يلسعها الغبار[1].

هنا يسيطر مشهد الدمار الذى ألحقه التتار بتلك المدينة العريقة. وتسهم كلمة (انكسار) هنا فى تعميق الحالة الشعورية المسيطرة؛ وهى الحقد والثورة والغضب لهذا الدمار، لا بدلالتها فحسب، بل بتكرارها كذلك فى جمل قصيرة متوالية، لتصوير الانفعال الحاد بهذا المشهد.

ولاشك أن هنالك وسائل تعبيرية أخرى مساعدة، هى :

(أ) إهمال واو العطف فى الجمل المشتملة على الكلمة المكررة، على نحو يظهر التوالى المفاجئ السريع لجزئيات المشهد.

(ب) الإخبار فى هذه الجمل المتوالية بالفعل المضارع، الذى يقوم بوظيفة تصوير الحدث واستحضاره :

الخيل تنظر — الأنف يهمل — العين تدمع.

(ج) اشتمال كلمة (انكسار) ذاتها على الراء فى آخرها؛ وهو يوصف بأنه (صوت مكرر).

(٢) تكرار الكلمة للتعبير عن انفعال معين، بدلاً من التعبير على نحو منطقى يحكمه (الحصر) المُفرغ. إنه — كما يقول فندريس — تعبير عن الانفعال الذى يصحب التعبير عن عاطفة قد دفعت إلى أقصاها[2]. هذه العاطفة لا يناسبها الحد والحصر والتقييد. وهو يمد العبارة بزيادة فى القوة، ويدل على الوفرة ومجاوزة الحدّ المألوف. ويمكننا أن نسمى هذا النوع باسم (التكرار الانفعالى). ومن أمثلته تكرار الفعل (تسيل) فى قول الشاعر :

ومات أبى، والدموع تسيل تسيل على وجنتيه

---

(١) الناس فى بلادى، هجم التتار ص ١٤ – ١٥.

(٢) فندريس، اللغة ص ١٩٩.

وفى كفه مزقة من رداء حرير[1].

أو تكرار الفعل (صغر) فى قوله :

فى قلب العاجز ماذا يلقى العاجز

ماذا يهب العريان إلى العريان

إلا الكلمة

والجلسة فى الركن النائى، قزمين ودودين

صغرا صغرا، حتى دقا[2] .

وذلك فى مقابل (تسيل فى غزارة، أو غزيرة، أو تظل تسيل، ونحو ذلك)، أو (صغرا جداً) ونحوه، مما لا يخفى ما فيه من (فتور) فى الإحساس. و (نثرية) فى الصياغة.

أما التكرار المركب، فله كذلك عدة صور فرعية منها :

(١) تكرار عبارة أو جملة بذاتها، أو إعادة صياغتها مرة أخرى عن طريق التغيير فى العلاقات التركيبية بين عناصر الجملة، بالتقديم أو التأخير أو الحذف أو الإضافة ... الخ. ومن النوع الأول، وهو الشائع فى شعر صلاح عبد الصبور، وفى الشعر الحديث بعامة، لا سيما فى نهاية المقاطع أو نهاية القصيدة (التى تكون غالباً جملة المطلع) قوله :

أين أعلق تذكاراتى

والحائط منهار ؟

أين أسمر حزنى، شغفى

أفراحى، ولهى، لهفى

والحائط منهار ؟ [3].

حيث يكون تكرار الجملة الحالية (والحائط منهار) كالنور العالى الذى يقوم بوظيفة التحذير والتنبيه حين يكون الإحساس بالتردد والحيرة. ولاشك أن فى هذه الأسطر عوامل لغوية مساعدة لنقل هذا الإحساس، كالاستفهام، وتزاحم الكلمات الدالة على إحساسات متناقضة. وقد لا تتكرر الجملة بذاتها أحياناً، وإنما يعتورها التغير اللفظى الذى يعكس التغير فى الشعور والانفعال، أو بعبارة أخرى، يعتورها التعديل اللغوى الذى يعكس التعديل فى مسار العاطفة، كقوله :

---

(١) أحلام الفارس القديم، مذكرات الملك عجيب بن الخصيب ص ٢٥٥.

(٢) تأملات فى زمن جريح، يا نجمى الأوحد ص ٣٣٣.

(٣) شجر الليل، تأملات ليلية (المقطع الثالث) ص ١٥.

جارتى مدت من الشرفة حبلا من نغم

نغم قاس، رتيب الضرب، منزوف القرار

.....

بيننا يا جارتى بحر عميق[1].

فقد عدُل التركيب (بحر عميق) للإحساس بنقصان ما يلزم التعبير عنه، وهو تحديد جنسه ووصفه بصفة أخرى.

وقد يأخذ هذا النوع من التكرار صورة أخرى، هى التكرار لا للحاجة إلى الإضافة والتعديل، بل للرغبة فى التأكيد، كقوله :

بعد أن تاه عن البيت سنينا

.....

كان طفلا عندما فر عن البيت وولى

من سنين عشرة، ذات مساء، كان طفلاً[2].

فلاشك أن (كان طفلاً) الثانية ليست فضلة أو زائدة عن الحاجة؛ لأنها ليست (كان طفلاً) الأولى؛ فبالرغم من أنها هى هى (كان طفلاً) الأولى فى اللفظ، إلا أنها ليست هى هى (كان طفلاً) الأولى فى المعنى، فإذا كانت الأولى لمجرد الإخبار، فالثانية وسيلة بلاغية للتأكيد. وهى أبلغ من أية وسيلة نحوية أخرى للتأكيد.

(٢) ويدخل فى التكرار المركب كذلك تكرار الجملة على نحو يختلف عما سبق. فالانتباه هنا لا يتجه إلى الجملة المكررة بأسرها بقدر ما يتجه إلى التصرف فى تغيير موقع إحدى كلماتها ووظيفتها النحوية. ويعرف هذا النمط باسم التكرار عن طريق التلاعب اللفظى.

ومن ذلك قول صلاح عبد الصبور :

أنا رجعت من بحار الفكر دون فكر

قابلنى الفكر، ولكنى رجعت دون فكر

أنا رجعت من بحار الموت دون موت

---

(١) الناس فى بلادى، لحن ص ٦٤.

(٢) أقول لكم، العائد ص ١٣٤.

obeikandl.com

حين أتانى الموت، لم يجد لدى ما يميته

وعدت دون موت[1].

فالجملتان المكررتان هنا هما : رجعت دون فكر ورجعت / عدت دون موت.

وأحسب أن انتباهنا لا يوجه هنا إلى تكرار هاتين الجملتين بكاملهما، بقدر ما يوجه إلى التلاعب اللفظى بكلمة (فكر) فى الأولى، و (موت) فى الثانية (ولاحظ التمهيد لتكرار الجملة الأولى بـ : قابلنى الفكر، والتمهيد لتكرار الثانية بـ : حين أتانى الموت ... إلخ).

وقد يأخذ التكرار عن طريق التلاعب اللفظى Wiederholung mit Hilfe von Wortspielen صورة فرعية أخرى، حيث تظهر الكلمات هنا تشابهاً صوتياً، وأصلاً اشتقاقياً واحداً، مع اختلافات صرفية[2].

ومن ذلك قوله :

وأعلم أنكم كرماء

وأنكم تحبون القريض وأهله الشعراء

وأنكم ستغتفرون لى التقصير عن سبق إلى تعبير

وعن تدوير ما يمتد فى الدنيا إلى كلمات

.....

وعن وحشة موسيقى السماء بقلبى الموحش[3].

(٣) ومن التكرار المركب أيضا هذا النمط الذى يشبه (الاسترجاع أو الفلاش باك flash back). وتقدم لنا قصيدة (أبى) هذا النوع؛ فهى تبدأ بجملة تلخص جوهر الحدث الذى تحكيه أو خلاصته. ثم تتوالى الجمل الأخرى التى تصور أحد مشاهده، فإذا ما انتهت تلك الجمل، تكررت الجملة الأولى، ثم يستأنف مشهداً آخر جديداً، وهكذا. والجملة المكررة معطوفة بالواو على محذوف، ويعبر عن ذلك بالنقط الثلاث. والمحذوف هو — بطبيعة الحال — الحكاية بكاملها التى يحكيها لنا بعد ذلك تفصيلاً فى مشاهدها المختلفة.

تبدأ القصيدة بجملة :

..... وأتى نعى أبى هذا الصباح

---

(١) أقول لكم، الظل والصليب ص ١٤٩.

(٢) أنظر فى ذلك : Fleischer und Michel, Suilistik, S. 170

(٣) أقول لكم، أقول لكم ١– من أنا ؟ ص ١٥٨.

obeikandl.com

ثم تتوالى جزئيات المشهد الأول :

نام فى الميدان مشجوج الجبين

حوله الذؤبان تعوى والرياح

ورفاق قبلوه خاشعين

وبأقدام تجر الأحذية

وتدق الأرض فى وقع منفر

طرقوا الباب علينا

فتتكرر هذه الجملة :

وأتى نعى أبى[1].

وهكذا بعد انتهاء كل مشهد. والمشهد الواحد هنا كالقصة أو الفيلم السينمائى. وليست الجملة التى يبدأ بها أول الخيط، ولكنها آخره المقلوب.

(٤) ومن أنماط التكرار المركب بالإضافة إلى ما سبق، ما يمكن أن نسميه باسم (التكرار التصويرى)، قياساً على (الموسيقى التصويرية)، حيث يلعب تكرار الجملة اللغوية عند الشاعر دور الموسيقى التصويرية بعينه فى الفيلم السينمائى. ولنتأمل مثلاً على ذلك تكرار (مطر يهمى، وبرد، وضباب) فى قوله :

كان فجراً موغلاً فى وحشته

مطر يهمى، وبرد، وضباب

ورعود قاصفة

قطة تصرخ من هول المطر

وكلاب تتعاوى

مطر يهمى، وبرد، وضباب[2].

فالأصوات تتوالى : قصف الرعود، وصراخ القطة، وعواء الكلاب. وكل صوت منها يعبر عن حدث جديد، أما الخلفية فلا جديد فيها ولا تغيير؛ فمازال المطر يهمى، ومازال البرد والضباب.

---

(١) الناس فى بلادى، أبى ص ٢٣.

(٢) الناس فى بلادى، أبى ص ٢٣ ، ٢٤.

(٥) وهناك نمط آخر طريف للتكرار يختلف عما سبق، يتمثل فى المحافظة على الجملة الأساسية مع اختزال أحد مكونات الجملة المكررة فى كل سطر حتى تتلاشى، ثم يبدأ (العد التنازلى) لمكونات الجملة الرئيسية، حتى تنتهى بأصغر مكوناتها التى يسمح بها النظام النحوى. ونجد ذلك فى قول صلاح عبد الصبور :

أرتد إلى هذى الفكرة كل مساء
مثل صدى يرتد إلى صوت
.....
تبغى أن تعرفها يا جاسوس الوقت ؟
لا، إنى أكتمها عنك
بل إنى فى الحق
لا أعرف كيف أعبر عنها لك
لاشئ يعينك .... لاشئ يعينك
لاشئ يعينك .... لاشئ يعين
لاشئ يعينك، لاشئ
لاشئ يعينك
لاشئ
لا .... (١).

وأحسب أن هذا النمط من التكرار ليس (تشكيلاً بصرياً) مجرداً، وإنما هو وسيلة تعبيرية وموسيقية مهمة؛ إنه يشبه — إلى حد كبير — (القفلة الموسيقية) التى تسبق، أو يمهد لها، باختزال مدة (الاستغراق الزمنى) للجملة الموسيقية كاملة؛ فتكون النغمة هادئة، بطيئة، متكسرة، حتى تنتهى الجملة بأصغر وحداتها النغمية.

وأود أن أشير هنا إلى محاولة الشعر الحديث استغلال طريقة الكتابة فى جعلها وسيلة إيضاحية لأداء جزء معين من القصيدة على النحو الذى يريده الشاعر؛ لنشترك معه فيما يحس به. ومن أمثلة ذلك فى شعر صلاح عبد الصبور قوله :

---

(١) شجر الليل، تأملات ليلية ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١.

obeikandl.com

أحسّ أنى خائف،

وأن شيئا فى ضلوعى يرتجف

وأننى أصابنى العى، فلا أبين

وأننى أوشك أن أبكى

وأننى،

سقطت،

فى،

كمين[1].

فلاشك أن الفصل بين الكلمات التى تتألف منها الجملة على هذا النحو، وانفراد كل كلمة منها بسطر كامل، على غير ماهو مألوف، بل على غير ما يسمح به النظام النحوى العادى، إنما هو (كالتصوير البطئ) لحدث السقوط، حيث يكون من الضرورى هنا أن نقرأ كل كلمة من تلك الكلمات، بمطل أصوات اللين، والوقوف عليها وقفة قصيرة.

وهكذا يجعل الشاعر من طريقة الكتابة عنصراً أسلوبياً تعبيرياً خارجياً، أى لا يعتمد على اللغة ذاتها. إنه تصوير – بالكتابة – للمدة الزمنية التى تتخلل النطق بهذه الكلمات عندما (يقتضى الحال) نطقها على هذا النحو.

*** *** ***

(١) شجر الليل، تأملات ليلية ص ١٢.

obeikandl.com

تزاوج الاستطيقى والأيديولوجي
في الخطاب الشعري
" نموذج من محمود درويش"

قصيدة : بين حلمي وبين اسمه كان موتى بطيئاً

باسمها أتراجع عن حلمها. ووصلت أخيراً إلى
الحلم. كان الخريف قريباً من العشب.
ضاع
اسمها بيننا .. فالتقينا.
لم أسجل تفاصيل هذا اللقاء السريع . أحاول
شرح
القصيدة كي أفهم الآن ذاك اللقاء السريع.
هي الشيء أو ضده، وانفجارات روحي
هي الماء والنار، كنا على البحر نمشى
هي الفرق بيني .... وبيني
وأنا حامل الاسم أو شاعر الحلم. كان اللقاء
سريعاً.
أنا الفرق بين الأصابع والكف. كان الربيع
قصيراً. وأنا الفرق بين الغصون وبين
الشجر.
كنت أحلمها، واسمها يتضاءل. كانت تسمى
خلايا دمى. كنت أحلمها
والتقينا أخيراً
أحاول شرح القصيدة / كي أفهم الآن ماذا

obeikandl.com

حدث ..

– يحمل الحلم سيفاً ويقتل شاعره حين يبلغهُ – هكذا أخبرتني المدينة حين غفوت على ركبتيها

لم أكن حاضراً

لم أكن غائباً

كنت بين الحضور وبين الغياب

حجراً .. أو سحابة.

– تُشبهين الكآبة

قلت لها باختصار شديد

تشبهين الكآبة،

ولكن صدرك صار مظاهرة العائدين من الموت ..

ما كنت جندي هذا المكان

وثوري هذا الزمان

لأحمل لافتةَ، أو عصا، في الشوارع

كان لقائي قصيراً

وكان وداعي سريعاً

وكانت تصير إلى امرأة عاطفية

فالتحمت بها

وحلمت بها

وصارت تفاصيلها ورفاً في الخريف

فلملمها عسكري المرور

ورتبها في ملف الحكومة

وفى المتحف الوطني.

– تشبهين المدينة حين أكون غريباً

قلت لها باختصار شديد :

obeikandl.com

تشبهين المدينة.
هل رآك الجنود على حافة الأرض
هل هربوا منك
أم رجموك بقنبَلة يدوية ؟
قالت المرأة العاطفيَّة :
كل شيء يلامس جسمي
يتحولُ
أو يتشكلُ
حتى الحجارة تغدو عصافير.
قلت لها باكياً :
ولماذا أنا
أتشرد
بين الرياح وبين الشعوب ؟
فأجابت :
في الخريف تعود العصافير من حالة البحر
– هذا هو الوقتُ
– لا وقت
وابتدأتْ أغنية :
في الخريف تعود العصافير من حالة البحر
هذا هو الوقت، لا وقت للوقتِ،
هذا هو الوقتُ.
– ماذا تكون البقيةْ ؟
– شبه دائرة أنت تكملها
– اذهب الآن ؟
– لا تذهب الآن . إن الرياح على خطأ دائماً.

والمدينة أقرب.

– المدينة أقربُ ! ! أنت المدينة

– لست المدينةْ

أنا امرأة عاطفية

هكذا قلت قبل قليلْ

واكتشفت الدليل

وأنت البقية

– آه، كنت الضحية

فكيف أكون الدليل ؟

وكنت أعانقها. كنت أسألها نازفاً :

أأنت بعيدة ؟

– على بعد حلم من الآن،

والحلم يحمل سيفاً. ويقتل شاعره حين يبلغهْ

– كيف أكمل أغنيتي

والتفاصيل ضاعت. وضاع الدليل ؟

– انتهت صورتي

فابتدئ من ضياعك

أموت – أحبك

إن ثلاثة أشياء لا تنتهي :

أنت، والحب، والموت

قبلت خنجرك الحلوَ

ثم احتميت بكفَّيك.

أن توقفني عن الموتِ

هذا هو الحب.

إني أحبك حين أموت

obeikandl.com

وحين أحبك
أشعر أنى أموتُ
فكوني امرأة
وكوني مدينة !
ولكن، لماذا سقطت، لماذا احترقتِ
بلا سبب ؟
ولماذا ترحلت في خيمة بدوية ؟
– لأنك كنت تمارس موتا بدون شهيه
وأضافت، كأن القدرْ
يتكسرُ في صوتها :
هل رأيت المدينة تذهب
أم كنت الذي يتدحرج من شرفة اللهِ
قافلةً من سبايا ؟
هل رأيت المدينة تهربُ
أم كنت أنت الذي يحتمي بالزوايا !
المدينة لا تسقط، الناس تسقط !
ورويداً .. رويداً تفتَّت وجه المدينة
لم نحول حصاها إلى لغةٍ
لم نسجل شوارعها
لم ندافع عن الباب
لم ينضج الموت فينا.
كانت الذكريات مقراً لحكام ثورتها السابقة
ومرَّ ثلاثون عاماً
وألف خريف
وخمس حروب

وجئت المدينة منهزماً من جديد
كان سور المدينة يشبهني
وقلت لها :
سأحاول حبك ..
أنا لا أذكر الآن شكل المدينة
لا أذكر اسمي
ينادونني حسب الطقس والأمزجة
لقد سقط اسمي بين تفاصيل تلك المدينة
لملمه عسكري المرور
ورتبه في ملفَ الحكومة
– تشبهين الهوية حين أكون غريباً
تشبهين الهوية.
– ليس قلبي قرنفلةً
ليس جسمي حقلاً
– ما تكونين ؟
هل أنت أحلى النساء وأحلى المدن
– للذي يتناسل فوق السفنْ
وأضافت :
بين شوك الجبال وبين أماسي الهزائم
كان مخاضي عسيراً
– وهل عذَّبوك لأجلى ؟
– عذَّبوك لأجلَى
هل عرفت الندم ؟
– النساء — المدن
قادرات على الحب. هل أنت قادر ؟

obeikandl.com

– أحاول حبك

لكن كل السلاسل

تلتف حول ذراعي حين أحاول ...

هل تخونيننني ؟

– حين تأتي إليّ

– هل تموتين قبلي ؟

سألتك موتي !

– أيجديك موتي ؟

– أصير طليقاً

لأن نوافذ حبي عبوديَّة

والمقابر ليست تثير اهتمام أحد

وحين تموتين

أكمل موتي.

بين حلمي وبين اسمه

كان موتي بطيئاً بطيئاً.

أموت – أحبك

إن ثلاثة أشياء لا تنتهي

أنت والحب، والموت

أن تقتليني

وأن توقفيني عن الموت

هذا هو الحب

... وانتهت رحلتي فابتدأت

وهذا هو الوقت : ألا يكون لشكلك وقت.

لم تكوني مدينة

الشوارع كانت قبلْ

obeikandl.com

وكان الحوار نزيفاً
وكان الجبلْ
عسكرياً. وكان الصنوبر خنجرْ.
كانت ذراعاك نهرين من جثث وسنابل
وكان جبينك بيدر
وعيناك نار القبائلْ
وكنت أنا من مواليد عام الخروج
ونسل السلاسل.
يحمل الحلم سيفاً ويقتل شاعره حين يبلغه –
هكذا أخبرتني المدينة حين غفوت علي ركبتيها
لم أكن غائباً
لم أكن حاضراً
كنت مختفياً بالقصيدةْ،
إذا انفجرت من دماغي قصيدة
تصير المدينة ورداً
كنت أمتشق الحلم من ضلعها
وأحارب نفسي
كنت أعلن يأسي
علي صدرها، فتصير مدينة .
كنت أعلن أن رحيلي قريب
وأن الرياح وأن الشعوب
تتعاطى جراحي حبوباً لمنع الحروب.
بين حلمي وبين اسمه
كان موتي بطيئاً
باسمها أتراجع عن حلْمها. ووصلت.
كان الخريف قريباً من العشب.

obeikandi.com

ضاع اسمها بيننا .. فالتقينا.
لم أسجل تفاصيل هذا اللقاء السريع
أحاول شرح القصيدة؛
لأغلق دائرة الجرح والزنبقة
وأفتح جسر العلاقة بين الولادة والمشنقة
أحاول شرح القصيدة
لأفهم ذاك اللقاء السريع
أحاول .. أحاول .. أحاول !

مدخل :

ترتبط (الاستطيقية) بـ (الأيديولوجية) في الخطاب الشعري ارتباط الشكل بالمضمون، فالنص الشعري الجيد قادر علي أن يعكس (وإن كان بشكل غير مباشر) شيئاً ما خارجه، هذا الشيء الذي يعد في هذه الحالة أيديولوجية. ويرى آلتوسير Althusser أنه من الممكن فهم الشعر علي أن له استقلاليته، ووصفه نسبياً علي المستوي التاريخي[(١)].

ويعلق إيستوب Easthope علي ذلك بقوله : " فمن جانب يكون الشعر ممارسة متميزة وملموسة في استقلاله الخاص، ومن جانب آخر، وفي الوقت نفسه، يكون الشعر دائماً بمثابة خطاب شعري، أعني جزءاً من التكوين الاجتماعي المحدد تاريخياً " [(٢)].

إن التقليد الشعري – كما يقول إيستوب – " ممارسة تتمتع باستقلال نسبي. إنه خطاب خاضع لقوانين طبيعته المادية ومكانه في التاريخ وهو لا يعكس التاريخ ولكن التاريخ مدون فيه علي مستوى الدال " [(٣)].

والحق أن أيديولوجية الشعر/ الشاعر، إنما تتبلور – في صورتها الصريحة أو الضمنية – من الإمساك بالخيط الذي تسلك فيه المدلولات (بما بينها من علاقات متشابكة) علي مستوي النص الشعري بكامله. وبالرغم من الترابط الحتمي والطبيعي بين الدوال ومدلولاتها في الاستخدام اللغوي، فإن الدوال هي دائماً – عند تحليل النص – المفاتيح إلي المدلولات، أي أن الأيديولوجية – بناءً علي ذلك – تتعلق أساساً بمدلولات النص، وإن احتجنا في تفسيرها

(١) انتوني إيستوب، الخطاب الشعري بوصفه أيديولوجية، ترجمة حسن البنا، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الثالث (١٩٨٥)ص ٩٩
(٢) المرجع السابق ص ٩٩.
(٣) المرجع السابق ص ١٠٠.

(وبالتالي تفسير أيديولوجية النص) إلي مجموعة النصوص الأخرى التي أنتجها الشاعر نفسه، بل إلي الظروف التاريخية التي أنتجت فيها تلك النصوص.

ومن هذا الفهم أجدني مختلفاً مع إيستوب الذي يرى أنه باختفاء ثنائية الشكل/ المحتوى لا يعود من الممكن أن نميز المدلول (الذي هو أيديولوجي) من الدال أو من وسائل التمثل (التي هي غير أيديولوجية)، وأن الأيديولوجية لا يمكن أن تحصر في كونها متعلقة فحسب، أو متعلقة أساساً، بالمدلول[1].

إنني أرى – انطلاقا من التحليل العملي للنص – أن أيديولوجيته تنحصر أساساً في كونها متعلقة بمدلولاته، فتلك هي البداية الطبيعية لتحديد مفهومه الأيديولوجي، وإن عاونتنا – في تعميق هذا المفهوم وضبطه وتثبيته – عوامل أخرى خارجة عن النص المفرد، كما أشرت.

إن التداخل بين الفن (ومنه الشعر بالطبع) والأيديولوجيا لا يعني – بأي حال من الأحوال – محو الخصائص التي تميز أحدهما عن الآخر.

فالفن – بما فيه من تشكيلات جمالية – يبقى محتفظاً ومستعلياً بخصوصيته، وإن عكس مفاهيم عقائدية وأيديولوجية. والفنان الواعي هو الذي لا يضحي بجماليات فنه لحساب قضايا سياسية، بل هو الذي يدرك أن العلاقة الجدلية بين الفن والأيديولوجيا تعني إثراء كل منهما للآخر، تعني (التزاوج المتكافئ) بين الطرفين. هنا لا تقدر الأيديولوجيا علي (تسييس) بالفن – بالمعنى المباشر لكلمة السياسة – وقتل جمالياته، وهنا أيضاً ينأى الفن عن كونه ترديداً لأفكار مبتذلة، أو حقل تجارب يعزله عن متلقيه.

تلك هي المعادلة الصعبة، فماذا عن محمود درويش ؟

لقد جعل محمود درويش شعره – منذ البداية – تعبيراً عن معاناة الشعب الفلسطيني والعربي وطموحاته من أجل الخلاص من الواقع المرير تحت وطأة الاحتلال.

وكان شعره – ولا يزال – مرآة للثورة الفلسطينية التي يحركها هذا الواقع يوماً بعد يوم. هنا تبرز هذه العلاقة الجدلية التي نتحدث عنها بين الفن والأيديولوجيا. وهي في شعر محمود درويش علاقة حارة لا تنقطع حرارتها.

والمسألة هنا – بالفعل – مسألة درجة حرارة؛ ففي دواوينه الأولي (أوراق الزيتون) و(عاشق من فلسطين) و (آخر الليل) تميزت درجة حرارة هذه العلاقة بالعلو الشديد، فكانت

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٠.

أشعاره في هذه المرحلة صرخات محتدمة من شاب يعيش في وطنه غريباً، ولذلك امتلأ شعره بعبارات المواجهة المباشرة، واكتظ معجمه اللغوي الشعري بمفردات البيئة الفلسطينية والواقع اليومي، كالقرية، والكوخ، والزيتون، والسنابل، والسلاسل ونحوها، أو بألفاظ تستدعي الماضي وتذكر به، كالعصافير، والرمال، والمجد ... الخ.

في هذه المرحلة التي عانى فيها الشاعر ما عاناه من سجن وتعذيب، كانت لغته صرخات تحد وتمرد عالية، علي نحو ما نجد في قصيدته (تحد) :

شدوا وثاقي
وامنعوا عني الدفاتر
والسجائر
وضعوا التراب علي فمي
فالشعر دم القلب .. ،
ملح الخبز ..
ماء العين ..
يكتب بالأظافر
والمحاجر
والخناجر
سأقولها
في غرفة التوقيف ..
في الحمام ..
في الإسطبل ..
تحت السوط ..
تحت القيد ..
في عنف السلاسل ..
مليون عصفور
علي أغصان قلبي

obeikandl.com

يخلق اللحن المقاتل[1].

في مثل هذا النموذج، يكشف محمود درويش عن أيديولوجية الشعر عنده في ذلك الوقت، فهو دم قلبه وماء عينيه، وهو يكتب بالأظافر والمحاجر والخناجر (وكلها رموز لغوية علي التحدي الصريح).

في هذه الفترة من رحلة محمود درويش الشعرية، علت كفة (الأيديولوجية) — بمفهومها الذي صوره شعره في هذا الوقت — علي جماليات القصيدة علواً ملحوظاً؛ لبساطة التجربة، وتواضع الأدوات، ولكنها أثمرت شكلاً تعبيرياً جديداً علي القصيدة الدرويشية والقصيدة العربية بعامة، هو ما أسميه بـ (قصيدة الموقف) التي تبنى علي لغة موقفية لا نكاد نشعر معها أننا بإزاء شاعر يشكل قصيدته تشكيلا جماليا ولغويا ولا يعنيه ذلك في الأساس — وإنما هو شخص عادي، ينقل موقفاً بسيطاً، نقلاً عفوياً؛ بلغته اليومية. وهذا ما نراه في قصيدته المعروفة (بطاقة هوية)[2].

أما المرحلة الثانية، والتي يمكن أن تمثلها دواوينه (العصافير تموت في الجليل) و (حبيبتي تنهض من نومها) و (أحبك أو لا أحبك)، فلم تفقد اتصالها المباشر كذلك بالجرح الفلسطيني، بل أضافت إلي ذلك تطويراً في المعجم الشعري، فاكتسبت كلمات كثيرة في معجمه دلالات رمزية جديدة، كالرمل والنخيل والخريف.

من ناحية أخري تضاءلت مفردات مثل الدار والطفولة والسلاسل ونحوها، لتبرز مفردات أخرى كالموت والحب والمدينة.

من ناحية أخرى، لم تعد القصيدة — في الأساس — تفريغاً عارضاً لتجربة ذاتية لحظية، تتوسل — في بنائها المتواضع : كماً وكيفاً — بمفردات مكرورة وقوالب لغوية جاهزة وشعارات رنانة، علي نحو قوله :

وطني ! لم يعطني حبي لك
غير أخشاب صليبي !
وطني ! يا وطني، ما أجملك !

---

(١) تحد (عاشق من فلسطين) الأعمال الكاملة، دار العودة — بيروت (طـ ١٢ — ١٩٨٧) ص ١٢٣ — ١٢٤.

(٢) بطاقة هوية (أوراق الزيتون) ص ٧٣ — ٧٦. ويذكر محمود درويش أن هذه القصيدة قد ولدت ولادة عفوية عند لقائه بضابط إسرائيلي في دائرة الأحوال المدنية لاستخراج بطاقة هوية عند بلوغه سن الرشد القانونية، فسأله الضابط عن جنسيته فقال له: أنني عربي، فاستنكر الضابط الإسرائيلي ذلك. فقال له بالعبرية (سجل أنا عربي) ثم خرج وهو يدندن بهذا المقطع إلى أن اكتملت القصيدة: (جاء ذلك في حوار للشاعر مع الأستاذ مفيد فوزي نشرته مجلة الدوحة، قطر، العدد ١٢٠ ديسمبر (كانون الأول)(١٩٨٥) ص ٥.

خذ عيوني، خذ فؤادي، خذ .. حبيبي ![1].

أو قوله :

رأيتك ملء ملح البحر والرمل

وكنت جميلة كالأرض .. كالأطفال .. كالفل

وأقسم

من رموش العين سوف أخيط منديلاً

وأنقش فوقه شعراً لعينيك

واسماً حين أسقيه فؤاداً ذاب ترتيلاً

يعد عرائش الأيك ..

سأكتب جملة أغلى من الشهداء والقبل ..

" فلسطينية كانت . ولم تزل " [2] .

ولكن ذلك كله لم يميز شعر محمود درويش في هذه المرحلة باختلاف جوهري في الرؤية الإبداعية والأيديولوجية، وإنما هو – بالأحرى – تنويع على أشعاره السابقة.

أما المرحلة التالية، والتي نرى بدايتها بديوانه (محاولة رقم ٧)، وهو بالفعل ديوانه السابع في رحلته الشعرية، فهي تفاجئنا بهذا الثراء الفادح لمعجمه الشعري، ونضج التشكيل الفني للقصيدة، وتكثيف اللغة. في هذه المرحلة، أصبحت القصيدة تشكيلاً جمالياً صارماً في أحكامه وهندسته. ولم يعد من السهل تحديد الرؤية الأيديولوجية في النص إلا باستقراء دواله وتحليل جماليات بنائه.

في هذه المرحلة، كانت رؤية الشاعر الأيديولوجية أكثر رحابة، فقد اكتسبت قضيته بعداً إنسانياً عاماً إلي جانب البعد القومي الخاص، وصارت مفاهيمه أكثر عمقاً وتماسكاً؛ فلم تقف القضية عند مجرد (الصدق الوجداني) نحو تجربة التعبير عن آلام الوطن، بل صارت – في جوهرها – (اتحاداً وجدانياً) وامتزاجاً بالأرض، في تجربة ذهنية تأملية روحية، بل شبه صوفية أيضاً. لم تعد الأرض عالماً أو تجربة شعرية فحسب؛ بل صارت الأرض والشاعر وجوداً واحداً، لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

---

(١) (رباعيات) أوراق الزيتون ص ٦٤.

(٢) عاشق من فلسطين (عاشق من فلسطين) ص ٨٢.

obeikandl.com

في هذه المرحلة، أظهر محمود درويش قدرة فائقة وقدم مثالاً حيًّاً علي الإمكانية الفعلية لتزاوج الرؤية الأيديولوجية بالموهبة الإبداعية المتطورة.

النموذج والتحليل :

إن هذه النقطة التي وصلنا إليها تصلح مدخلاً للنص الذي أقدمه الآن، فهو ينتمي إلي هذه المرحلة الأخيرة، التي تمثل أنضج مراحل الشاعر فنياً وأيديولوجياً. والنص من مطولاته ذات القيمة الفنية العالية، التي تقدم نموذجاً باهراً للتحليل اللغوي الأسلوبي.

هذا النموذج هو قصيدته (بين حلمي وبين اسمه كان موتى بطيئاً)[1]، التي أعتبرها من أجود ما أنتجه محمود درويش، بل من أجود ما تمخضت عنه حركة الشعر العربي المعاصر بعامة.

تتشكل هذه القصيدة من تسعة مقاطع متفاوتة من حيث الكم وهندسة البناء. وبالرغم من قيام كل مقطع منها علي محور دلالي خاص، فإنها تعتمد علي التنامي والتكامل بين مجموع المحاور الدلالية الخاصة؛ للكشف عن الدلالة النصية، أي دلالة النص العامة.

والبنية الإيقاعية للقصيدة أشبه بالتشكيل البوليفوني Polyphonic لا التشكيل المونوفوني Monophonic؛ من حيث اعتمادها – في الأساس – علي التقابل الحواري بين صوتين : صوت الشاعر وصوت المرأة (أو المدينة)، بحيث لا يصبح النص غنائياً خالصاً معتمداً علي العزف المنفرد (على صوت الشاعر)، بل يتآلف الصوتان موسيقياً، وإن اختلفا في النغم Tone، وفي الوقفات Stops. وتجدر الإشارة هنا إلي أن قراءتنا لهذا النص لا تتوقف عند القراءة الاستكشافية Heuristic التي تتغيا فهم النص، بل تتجاوزها إلي مرحلة القراءة الاسترجاعية Retroactive التي تتغيا التفسير والتأويل. ولذلك فهي – في الوقت نفسه – قراءة تأويلية Hermeneutic.

ويرتبط ذلك بطبيعة النص المختار؛ لاعتماده علي التركيب (كلية النص) والرمز وتعدد الأصوات.

ومن ثمة، فإن هدف هذه القراءة هو الوقوف علي (وحدة الدلالة) التي تكمن في النص لا الاكتفاء بـ (وحدة المعنى) التي تكمن في العبارات والجمل[2].

---

(١) محاولة رقم (٧) ص ٤٩٣ – ٥٠٣ ولاشك أن لهذه المرحلة مقدمات وجذوراً سابقة في شعر محمود درويش، كما نجد في قصيدتيه المعروفتين (مزامير–ديوان: أحبك أولا أحبك ص٣٦٥) و(سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا–ديوان: أحبك أولا أحبك ص ٤٤٥)

(٢) انظر في تفصيل ذلك : سيموطيقيا الشعر، دلالة القصيدة لمايكل ريفاتير، من كتاب : مدخل إلى السيموطيقيا، بإشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية (١٩٧٧) ص ٢١٧ وما بعدها.

في المقطع الأول، تتجلى المثيرات الأسلوبية الدالة فيما يلي :

(أولاً) أسلوب القطع، الذي يعتمد عليه هذا المقطع اعتماداً أساسياً، حيث ينتقل الخطاب من معنى إلي آخر لا يرتبط به ارتباطاً مباشراً، في جمل صغيرة الحجم، متوازية لا متراكبة. ويزيد هذا التوازي من تنبيهنا إلي هذا الانتقال السريع، كما يسهم في ذلك أيضاً (المقابلات الإيقاعية) بين جملتين متواليتين، أو بين عدة جمل، كأن تتقابل الجملة الأولى مثلاً (باسمها أتراجع عن حلمها) تقابلاً إيقاعياً ونغمياً مع الجملة التي تليها (وصلت أخيراً إلي الحلم)، من حيث كون الأولى ذات نغمة صاعدة وإيقاع بطئ، وكون الأخرى ذات نغمة هابطة وإيقاع سريع. تزيد هذه المقابلات من إحساسنا بقطع هذه الجملة عن تلك : تركيبا ودلالياً. إنها تنبهنا إلي استقلالية كل جملة نسبياً بدلالة خاصة، وقيامها بذاتها، دون أن تدخل مع جيرانها في علاقات دلالية مباشرة.

(ثانياً) وإذا نظرنا إلي طبيعة العلاقات التركيبية بين جمل هذا المقطع، لرأيناها تقوم علي أساس (التقابل) كذلك. وهو إما تقابل خارجي : ينشأ بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية، أو تقابل داخلي : ينشأ بين جملتين من جنس واحد. ويبدو النوع الأول في مثل قوله :

هي الماء والنار، كنا علي البحر نمشي.

أو قوله :

وأنا حامل الإسم أو شاعر الحلم. كان اللقاء سريعاً.

أنا الفرق بين الأصابع والكف. كان الربيع قصيراً.

وهذا التقابل له قيمته الأسلوبية الكبرى؛ لأنه يعكس بدوره تقابلاً بين صوت كان، صوت مقيد بزمان (كان الشاعر طرفاً فيه = الجملة الفعلية) ومعنى ثابت لا يتغير ولا يتقيد بزمان (= الجملة الاسمية)، هو ما تمثله المحبوبة / الوطن للشاعر (هي ...) أو ما يمثله الشاعر للمحبوبة (وأنا حامل ...).

وأما المقابلة الداخلية، فيصنعها الماضي والمضارع في مثل :

باسمها أتراجع عن حلمها

ووصلت أخيراً إلي الحلم

أو قوله :

لم أسجل تفاصيل هذا اللقاء السريع

أحاول شرح القصيدة كي أفهم الآن ذاك اللقاء السريع .

ولا يمثل التقابل بين الفعلين تقابلاً بين زمنين علي المستوى اللغوي فحسب، ولكنه يمثل تقابلاً بين ذاكرتين: ذاكرة الماضي بأحداثه التي كانت (لاحظ توارد الجمل المبدوءة بـ " كان " و " كنا ") وذاكرة الحاضر التي تستدعي ذكريات الماضي من ناحية، وتصف موقف المحبوبة / الوطن من الشاعر وموقف الشاعر في محاولته شرح القصيدة (وصف اللقاء الذي كان) من ناحية أخرى.

(ثالثاً) يعتمد البناء اللغوي لهذا المقطع – إذاً – علي (التداعي) أو ما يسمى– في تكنيك الرواية – بـ (تيار الوعي)؛ إذ يسترجع الشاعر تفاصيل لقائه السريع، وترتبط هذه النقطة – في الواقع – بمقابلة أخرى بين الضميرين : (هي) و (أنا) التي تحتدم في جملتين متواليتين مثل :

هي الفرق بيني وبيني

وأنا حامل ...

أو في جملة واحدة مثل :

كنت أحلمها، واسمها يتضاءل.

ولا ينبغي أن تخفي علينا وظيفة الضمير الثالث (نحن) الذي يجمع الضميرين السابقين في وحدة معنوية واحدة في جملة فعلية (والتقينا) أو (والتقينا أخيراً). أضف إلي ذلك قيمة الانحراف النحوي في (أحلمها، مقابل : أحلم بها) في الدلالة علي نظرته إلي المحبوبة باعتبارها عالم أحلامه الذي لا يشركه فيه شيء آخر.

إن لهذه الوحدة المعنوية دلالة التوحد والامتزاج بين الـ (أنا) والـ (هي)، بين الشاعر والمحبوبة. ولهذه الجملة الفعلية دلالة إبراز الحدث والفاعلية، وكأنه توحد فعال أو متفاعل!

(رابعاً) أضف إلي كل ما سبق من أشكال التقابل في هذا النوع من التقابل الداخلى فى الجمل الاسمية مثل (هي الشيء، أو ضده) أو (هي الماء والنار) ونحوهما، حيث تجمع المحبوبة في نظر الشاعر بين الشيء ونقيضه في وقت واحد، كأنها صارت له الوجود بكامله، الوجود بكل صوره ومتناقضاته.

هكذا تتولد صورة الحلم، بكل ما يلابسها من غموض وتلاحق وانفصام وانفصال وجمع بين المتناقضات، اعتماداً علي عنصرين أساسيين : التقابل والتداعي.

إذا كان المقطع الأول قد أوضح أمامنا صورة هلامية للحلم، وكأنه لم يتشكل بعد، أو لم ينسخ في ذهن الشاعر (لاحظ إلحاحه علي هذا المعنى بتكرار : أحاول شرح القصيدة ...) فإن

هذا المقطع يبدأ بسرد ما حدث في هذا اللقاء. ولم يشأ الشاعر أن يجعل ذلك سرداً من طرف واحد، هو نفسه، بل جعله في قالب حواري، يشترك فيه مع محاورته التي ألمح إليها في المقطع الأول بضمير الغائبة، والتي بدأت الآن تكشف عن نفسها، فهي المدينة. وكان أول ما قالته له في هذا اللقاء – مع اقتضاب العبارة – أشبه بدرس في الجهاد. إن هذا الحوار لم يبدأ بكلمات ناعمة تهمس بها المدينة في أذني الشاعر؛ ولكنه بدأ حاداً حاسماً، وضعت فيه المدينة النقاط فوق الحروف. إن الحلم الذي تعرفه هو هذا الذي يحمل سيفاً ويقتل شاعره حين يبلغه (لاحظ المفارقة الحادة بين مقولة المدينة والوضع الذي كان عليه الشاعر: " حين غفوت علي ركبتيها "). ليس هذا الحلم – إذاً – من أحلام السعادة، إنه حلم نبيل ثمنه الحياة. وبإزاء ذلك تصبح كلمات الشاعر مبررة :

لم أكن حاضراً

لم أكن غائباً

فهذه الكلمات تعكس – بسبب الحب الغريزي للحياة – شيئاً من التردد والتدبر أمام حلم من هذا النوع. هنا تتنازع الشاعر حالتا الحضور والغياب (= الاستجابة والنكوص)، ولا تحسم إحداهما الأمر لصالحها :

كنت بين الحضور وبين الغياب

حجراً .. أو سحابة .

هذه (البينية) هي التي تمثل – حتى الآن – موقف الشاعر من مقولة المدينة، وهي التي يصر الشاعر على تجسيدها بلفظتين دالتين علي محسوس : الحجر : (والتي ترمز – بالتالي – إلي الثبات وعدم الاستجابة) والسحابة (والتي ترمز إلي الحركة والاستجابة).

على هذا النحو، كان التردد بين الاستجابة وعدم الاستجابة، هو رد فعل الشاعر الصريح على مقولة المدينة. وهذه الوحدة المعنوية تصير إلي وحدة دلالية عند اكتمالها بنظيرتها في المقطع الثامن من النص.

إن إحساس الشاعر في هذا المقطع (الثاني) بالعجز عن المبادرة الفورية باتخاذ القرار (وهذه حيلة أيديولوجية في النص) هو الذي يغير مجرى الخطاب في المقطع الثالث. إن احتدام عاطفة الشاعر هي التي جعلته يرى في مدينته الآن شبهاً بالكآبة. وتغيير النغمة ولهجة الخطاب (قلت لها باختصار شديد ...) يشتم منه رفض لكآبتها، بل هذه اللهجة الغاضبة هي التي ترسم (المقام) الذي قد يحدد حقيقة (المقال) بعد ذلك. فالشاعر في قوله:

ما كنت جندي هذا الزمان

وثوري هذا الزمان

لأحمل لافتة، أو عصا، في الشوارع.

لا يعني – حرفياً – عجزه عن أن يكون ثورياً، ولكنه – فيما أظن– يريد أن يقدم بين يديها – بعيداً عن نخوة وطنية ساذجة – رؤياه للثورة، ويفهم ذلك من حديثه عن الثوري بالتهويل والإطلاق الساخر (هذا الزمان) أو الوصف المستخف (حمل العصي واللافتات في الشوارع).

أما المقطع الرابع، فإنه يبدو – من الناحية الشكلية – منفصلاً دلالياً عن المقطع السابق. ولكن الأمر ليس كذلك، فمازالت (المدينة) حاضرة في الخطاب، وإن صارت إلي (امرأة عاطفية)، يلتحم بها الشاعر ويحلم معها. ولكن لا يدوم طويلاً، فسرعان ما تفقد كينونتها الأولى وتصير لغيره (العسكري رمز المحتل) ليصنع منها دولة (ملف الحكومة) وتاريخاً (المتحف القومي). وهنا يشتد قلق الشاعر على هذه المرأة العاطفية؛ لأنه يرى فيها – عند غربته – شبهاً بمدينته التي كان يغفو على ركبتيها، ولذلك يتوجه خطابه إليها في خاتمة المقطع.

وفي المقطع الخامس تكشف هذه المرأة عن صورتها الحقيقية التي غابت عنه. إنها مازالت باقية خالدة، تتغير الأشياء وتتحول وهي باقية، بل إن لديها هذه القدرة السحرية على تحويل الأشياء إلي غير أجناسها (حتى الحجارة تغدو عصافير). بإزاء ذلك يعتب الشاعر عليها تشرده وتبدده بين البلاد والشعوب، فتأتيه إجابتها تؤله بالعودة :

في الخريف تعود العصافير من حالة البحر

هذه الجملة التي تصنع (مدار الخطاب) في هذا المقطع، لم يضعها الشاعر في قالب خطابي، وإنما اعتمدت وحداتها على دلالاتها الرمزية، فالخريف يرمز إلي زمن الشدة، بينما ترمز العصافير إلي أبناء الوطن الغائبين عنه، ويرمز البحر إلي الرحيل والهجرة. وتستمد هذه الجملة خصوصية بنائها من اعتمادها على ثلاث مفردات أثيرة في معجم درويش الشعري.

لقد استخدمت هذه المفردات في أشعار محمود درويش الأولى باعتبارها علامات لغوية على ما تطلق عليه في الحقيقة، وإن كان ذلك فى سياقات رومانسية، فالعصفور طائر يحمل رسالة الشاعر إلي أمه :

أقول للمذياع .. قل لها أنا بخير

أقول للعصفور

إن صادفتها يا طير

لا تنسني ، وقل : بخير[1].

والخريف أحد الفصول يتغنى المغنى بشمسه :

والمغنى

يتغنى بشعر شمس الخريف

يضمد الجرح .. بالوتر[2].

والبحر يذكر بالسفر :

وأبي قال مرة حين صلى على حجر :

غض طرفاً عن القمر واحذر البحر .. والسفر[3].

لقد كانت جملة (في الخريف ...) هي محرك الحوار بعد ذلك، بل هي التي اختارت له مفرداته وطبيعة تراكيبه .

كان سؤال الشاعر عن وقت العودة، ولم تر (المرأة) وقتاً لهذا الوقت، وكأنها تترك للشاعر اختيار وقت عودته، والتدبير لهذه العودة. من هنا كانت حيرة الشاعر وكانت تلك الأغنية التي أخذ يلوكها في فمه معتمدة على تكرير نص الحوار :

(هذا هو الوقت ، لا وقت للوقت ، هذا هو الوقت)[4] .

والذي يسترعى انتباهنا — بعد ذلك — في بنية الحوار، هو ورود لفظة (المدينة) على لسان تلك المرأة العاطفية. وكان الشاعر ذكياً، حين أثار هذه الكلمة على لسانها ليعمق البناء الدرامي للحوار، عن طريق الدهشة والمفاجأة، كما عمقه من قبل عن طريق (الحبكة). هنا تكون عند سماع صوت المدينة التي رآها الشاعر منذ قليل امرأة عاطفية. ولكن هذه المرأة تنكر ذلك، وتريد أن تمتلك عليه حلمه، وكأني بالشاعر يريد — على مستوى صناعة النص الشعري — أن ينقل الحلم في صورته الواقعية، أو يوحي بهذا النقل، حيث تتزاحم المشاهد وتتداخل وتتقاطع وتتكامل في الوقت نفسه. هنا يصور لنا الشاعر الحوار بكاميرا اللغة تصويراً، حيث يأتي صوت المرأة ولا يراها الشاعر،لا يعرف أين تكون:

---

(١) رسالة من المنفى (أوراق الزيتون) ص ٣٤.

(٢) قال المغني (أوراق الزيتون) ص ٨٧.

(٣) أبي (عاشق من فلسطين) ص ١٤٥.

(٤) أصبحت هذه الصياغة من الصياغات الأثيرة عند محمود درويش، ومنها في ديوانه الأخير (هي أغنية. هي أغنية) :

- لم يبق لي غير الذي لم يبق لي / ص ٧٠ .
- أمر بالشيء كاللاشيء ... لا أحد . الشيء الذي يوجد / ص ٢٧ .

– أأنت بعيدة ؟

– على بعد حلم من الآن

والحلم يحمل سيفاً، ويقتل شاعره حين يبلغه.

هنا تتجلى مقدرة محمود درويش العجيبة على صياغة الحوار، ففي سؤاله انعكاس تلقائي لوعيه العميق بأنه يحكي حلماً، وفي إجابتها تفجير للطاقة الدرامية في الحوار؛ حيث تقاس الأبعاد والمسافات بالأحلام. وهي أحلام تحمل سيوفاً، وعلى قدر شوقه لتقصير المسافات ينبغي أن يكون حماسه لحمل السيف، وإن أودى بحياته.

هكذا يكشف النص عن شيء من محتواه الأيديولوجي، بل إننا لنفهم ضمناً من حوار المرأة أن حمل السيف صار على الشاعر (أبناء الوطن) قدراً مقدوراً، وأن الحيرة والضياع اللذين يشكو منهما الشاعر لا يعنيان – بحال – التقاعس عن حمل السيف، فمن الضياع تكون البداية :

– انتهت صورتي فابتدئ من ضياعك

وحديث الحلم الذي يحمل سيفاً – على مستوى (وحدة الدلالة التي تمثل البعد الأيديولوجي الأساسي في النص)– هو اللحن المهيمن الذي تدور حوله صراحة تنويعات المقطع السادس. هذا اللحن هو الذي يقرب بين الشاعر والمرأة أو (المدينة)، كأنما راقه أن يستمع منها إلي هذا اللحن، فكان إفضاؤه إليها بحبه هنا قناعة بما سمعه منها هناك. ولا بأس – وقد وصلا في الحوار إلي هذا الحد – أن يفصح لها عن حبه، ولتكن ما تكون : امرأة أو مدينة.

وحين أحبك ، أشعر أني أموت . فكوني امرأة وكوني مدينة !

هكذا يرتبط الحب والموت أحدهما بالآخر، ويؤدي هذا إلي ذاك، في ثنائية اتصال وامتزاج عجيبة :

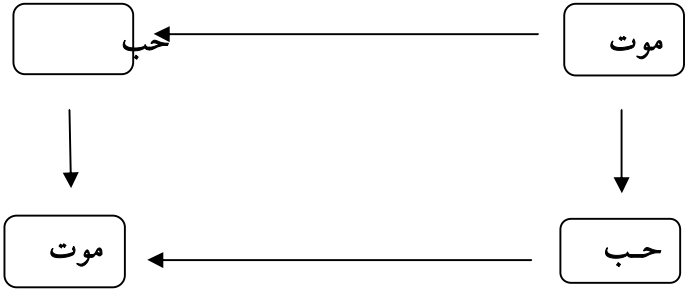

إنه لا يموت فيها حباً، ولا يحبها لدرجة الموت؛ بل يموت يحبها ويحبها في موته. إن (حين) تفقد – في جملتيها – ما توحي به ظاهرياً من وظيفة الفصل بين زمنين، لتدل على (الحالية)، أي وقوع الفعلين في حال واحدة. ويؤكد هذا المعنى قوله في مفتتح هذا المقطع :

أموت – أحبك

والحب والموت باقيان لا يحدهما زمان؛

لأنهما يرتبطان بها، وهي لا تنتهي :

إن ثلاثة أشياء لا تنتهي :

أنت ، والحب ، والموت.

ويقدم لها الشاعر دليل الحب :

قبلت خنجرك الحلو

ثم احتميت بكفيك.

هنا تتكشف علاقته بالمحبوبة (لاحظ قيمة استعمال " اليدين " هنا وكأنها تمر بهما على جسده لتهدئ من روعه)، هي التي يقبل خنجرها، وهي التي يحتمي بيديها. والتقبيل والاحتماء حالتان للحب. وهو حب أشبه بـ (وحدة الوجود) في العشق الصوفي، حين يفنى المحب في محبوبته، فيجد في عذابه لذة. وهذا ما نراه هنا، فالشاعر يجد في الخنجر إذا قبله حلاوة . لم يعد للخنجر (رمز الموت) رهبة؛ لأنه من المحبوب، أو هو ذات المحبوب. إنها موته وملاذه من الموت في آن معاً. هكذا يرى الشاعر الحب :

أن تقتليني

وأن توقفيني عن الموت

هذا هو الحب

ويأخذ الحوار اتجاهاً آخر لتكون هذه المواجهة أو المصارحة القاسية مع المدينة. وليقدم لنا الصراع المحتدم في لغة الحوار بين الشاعر والمدينة أيديولوجيا محمود درويش عن السقوط أو الهزيمة: (المدينة لا تسقط ولكن الناس هم الذين يسقطون. المدينة باقية لا تذهب، ولكن الناس هم الذين يحتمون بالزوايا).

ويقدم الشاعر هذه الرؤيا على لسان المدينة بوسائل أسلوبية تناسب المقام، هي الاستفهام الاستنكاري :

هل رأيت المدينة تذهب

أم كنت أنت الذي يتدحرج من شرفة الله

قافلة من سبايا ؟

أو الكناية المبتكرة :

– لأنك كنت موتاً بدون شهية.

أو الجملة المركزة التي تقابل بمثلها للتقرير والحسم :

المدينة لا تسقط ، الناس تسقط !

ويستغرق الشاعر – في أحد عشر سطراً " ورويداً ... منهزماً من جديد " – في الإفصاح – بلغة تقريعية تملؤها الحسرة والمرارة – عن تقاعس أبناء هذه المدينة في الدفاع عن حصاها وشوارعها وأبوابها، حتى تفاجئنا هذه الاستعارة العجيبة : (لم ينضج الموت فينا). هذه الاستعارة التي تختزل كل ما يجيش به صدره، والتي تتلاقى مع زميلتها السابقة (الموت بدون شهية) ليصنعا (وحدة دلالية) واحدة هي : عدم إخلاص النية في الموت من أجل هذه المدينة. أجل، لقد جعل حكام ثورتها السابقة أنفسهم أسرى الذكريات. ولذلك بقيت الحال على ما كانت عليه، وقد انصرفت الأعوام ومرت الحروب. وهنا يجدد الشاعر ولاءه وحبه لمدينته :

قلت لها

سأحاول حبك

إنها هويته في هذا الضياع الذي يعانيه، والقهر الذي يلاقيه. ولكن يبدو من الحوار الدرامي الذي يدلي به الشاعر على لسان المدينة، أنها لا تقبل منه موقفه السلبي، أن يراها هوية وقرنفلة وحقلاً، أن يراها أحلى النساء وأحلى المدن، فكذلك ما يراها العاجز عن العطاء، أو المشغول عنها بأمور دنياه، هذا (الذي يتناسل فوق السفن). وكأن الشاعر يريد أن يضيف إلى مقولته الأيديولوجية السابقة فقرة جديدة، هي أن الوطن ليس – فحسب – أرضاً جميلة ننعم بجمالها، ليس مكاناً أو جغرافيا نسند إليها هويتنا.

بعد هذه الجملة التي تخرس كل متشدق (للذي يتناسل ..) ، يصبح الحوار والسؤال سخفاً وهراءً. وهنا يبرز وعي محمود درويش وتعمده مطل الحوار والإلحاح على الأسئلة لينقل إلينا هذا الإحساس. فإذا كان السؤال الثقيل :

– وهل عذبوك لأجلي ؟

صوبت له القول :

– عذبوك لأجلي .

وإذا كان السؤال اللحوح :

– هل عرفت الندم ؟

كانت الإجابة متحدية ومثيرة :

النساء ، المدن.

قادرات على الحب ، هل أنت قادر ؟

هكذا يتفجر الصراع في الحوار من المقابلة بين كاف المخاطبة وكاف المخاطب من ناحية، ومن الاستفهام الذي يقصد به إثارة الهمة والفعالية من ناحية أخرى.

لقد أفلحت المدينة في أن ترد للشاعر وعيه الغائب، ولذلك يحدثنا في المقطع السابع مرة أخرى عن ثلاثية (أنت والحب والموت) التي لا تنتهي، وهنا يتجلى الوعي التاريخي العميق للشاعر، حين يرفض (موسمية) وجود مدينته، فصورتها باقية خارجة عن حدود الزمان :

... وانتهت رحلتي فابتدأتُ

وهذا هو الوقت : ألا يكون لشكلك وقتُ.

إن الوقت الذي تتجلى فيه صورة المدينة هو كل وقت. الآن يرى الشاعر مدينته بوجهيها : ما يسوؤه وما يرضيه. يرى الجثث (الموت) كما يرى السنابل (الحياة).

إن الشاعر يعتمد في إنتاج الدلالة على خلق علاقات جديدة بين الألفاظ فيما يعرف بالتشبيه البليغ فالجبل العسكري والصنوبر خنجر ... الخ.

إن اضطراب الحلم وتشكله في شخوص وهيئات مختلفة مع عدد من المقاطع ليس إلا وسيلة لتوليد الحوار وتوجيهه في اتجاهات متباينة يكشف فيها الشاعر برموزه اللغوية عن مقولاته الأيديولوجية. بيد أننا في المقطع الثامن لا نسمع – باستثناء مقولة المدينة القديمة – إلا صوت الشاعر فيما يشبه شرح الموقف (لم أكن غائباً ...).

ويشترك هذا المقطع مع المقاطع التي تليه في بنائها بناء غنائياً، وكأنما يريد الشاعر بذلك أن يفتش في ذاته عن صدى الحوارات السابقة.

ويدخل إلى الكلام في هذا المقطع دال جديد هو (القصيدة)، وكأنما يريد الشاعر أن يعلن لمدينته عن إيجابيته حتى في اختفائه عنها.

تلك الإيجابية التي تبدو من حمل أمانة الكلمة الخالصة المخلصة للوطن (لاحظ في هذا المقطع دلالة الكلمات " انفجرت " و " دمائي " على ذلك).

هنا تعلو الكلمة / القصيدة على مجرد التنفيس عن انفعالات ذاتية محبوسة، إلى حمل رسالة التغيير إلى الأجمل (تصير المدينة ورداً). في هذا المقطع بخاصة تتميز لغة الشاعر بالتكثيف الشديد. وتتعاون الدوالّ على إنتاج وحدة معنوية هي إعلان الشاعر عن عواطف حادة متضاربة تتنازعه (حنين إلى الوطن ويأس من لقائه) بإزاء تلك الشعوب المستهينة المتاجرة بالقضية.

أما دور الدوالّ فيؤديه اختيار مفردات بعينها (لاسيما الأفعال : انفجرت – أمتشق – أحارب) ذات دلالات حادة، كأنما هي طرقات حديدية يوقظ بها الشاعر نفسه والآخرين. وهي تنقل هذا التنازع العاطفي بالمقابلة (يأسي : حبي)، كما تنقله بدخولها في علاقات جديدة مع مفردات أخرى، كامتشاق الحلم (الذي يستحضر عملية امتشاق السيف) وكأنما تمثل هذه العلاقة الجديدة صدى صوت المدينة المتردد بين مقاطع القصيدة غير مرة بالنداء (يحمل الحلم سيفاً).

من ناحية أخرى، يعتمد هذا المقطع في توليد الدلالة على ما يشبه (ميلودراما المغايرة) بين الألفاظ المتصاحبة في العرف اللغوي، ويبدو ذلك من قوله :

كنت أعلن أن رحيلي وقريب

وأن الرياح وأن الشعوب

تتعاطى جراحي حبوباً لمنع الحروب.

حيث تعكس المغايرة الأولى (تتعاطى جراحي) إدانته لتلك الشعوب المخدرة المنصرفة عن قضيته، بينما تعكس المغايرة الثانية (حبوب منع الحروب) سخريته المرة من تلك الشعوب المستهينة. (ولاحظ تفجر تلك الدلالات من تقابل المصاحبة الأولى " تتعاطى جراحاً " بالمصاحبة العرفية " تتعاطى المخدرات".

وبالمثل، تقابل المصاحبة الثانية " حبوب منع الحروب " بالمصاحبة المعتادة " حبوب منع الحمل " !. ولاحظ – من ناحية أخرى – دور الجناس الناقص بين : حبوب وحروب في التنبيه إلى المقابلة الدلالية الداخلية بينهما).

أما المقطع الأخير من هذا النص؛ فإنه يعتمد على تكرار مفتتح القصيدة، أو بعضه، ليلعب دور (القفلة الموسيقية) للنص بكامله. وهذا الشكل من التكرار مألوف في القصيدة العربية المعاصرة، بل هو من أبرز سماتها البنيوية.

وكثيراً ما اعتمد عليه محمود درويش في قصائده الأخرى. بيد أن الذي يثير اهتمامنا في هذا المقطع هو أن هذه الأسطر المكررة تلعب دوراً آخر، هو التمهيد دلالياً لوقوع سطرين

جديدين على الأسطر المكررة، يكثفان خلاصة ما انتهت إليه أيديولوجيا الشاعر في هذه القصيدة :

أحاول شرح القصيدة

لأغلق دائرة الجرح والزنبقة

وأفتح جسر العلاقة بين الولادة والمشنقة.

هنا تتقابل الدوالّ (الجرح – الزنبقة) و (الولادة – المشنقة) بمدلولاتها الرمزية على مستوى الجملة، كما تتقابل المدلولات الكلية للجملتين بدءاً بالفعلين (أغلق) في الأولى و(أفتح) في الثانية.

وكأن الشاعر يريد بهذين السطرين أن يجعلهما خيطاً واحداً يسلك فيه مفاهيمه الأيديولوجية المبعثرة في النص كله. إنه يريد لمرحلة من تاريخ الوطن أن تنتهي : مرحلة الجراح والورود، مرحلة الموت البطيء بين شكوى العاجز ورضا المضطر، لتبدأ مرحلة جديدة مع التضحية بالنفس والحياة.

ولعل ترديد الفعل (أحاول) في خاتمة المقطع الأخير من معزوفته يأتي كالدقات المتواليات التي تؤكد الاستقرار على المدلول النهائي السابق.

هكذا تثبت هذه القصيدة مقولة ف . ريابوف، : " أن الفن الرفيع المستوى، الفن عالي الإبداع والجمالية والروعة، هو دائماً وسيظل مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بروح عصره، ومعبراً بشكل دقيق وموهوب عن أهم مشكلات الواقع " [1].

*** *** ***

(١)) ف. ريابوف، الفن والأيديولوجيا، ترجمة: د. خلف الجراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية – سوريا ط١(١٩٨٤) ص ١٣.

الوطن المحرم وقضية اللغة في قصيدة النثر

صارت (قصيدة النثر) شكلاً مميزاً من أشكال التعبير الأدبي المعاصر، يروق لبعض المبدعين اتخاذه إطاراً فنياً يعبرون من خلاله عن مضامين فكرية وشعورية متعددة. وبالرغم مما لقيه هذا المصطلح من انتقاد وإلحاح على التعديل، فإنه مازال اسماً شائعاً على هذا الجنس الأدبي.

والحق أنني لست ممن يقرون هذه التسمية إذا قابلناها بالمسمى الذي أطلقت عليه؛ ففضلاً عن التناقض الظاهر بين عنصريها اللغويين (قصيدة) و (نثر) – بما لكل منهما في تراثنا الأدبي والتراث العالمي من ماهية راسخة — فإنها لا تصدق على طبيعة ما أطلقت عليه، وكأنها اسم على غير مسمى.

من ناحية أخرى، فإن هذه التسمية لا تصدق إذا عرضناها على المقولة النقدية الأولية المؤسسة على (التوحد) بين الشكل والمضمون؛ وذلك أن مصطلح (قصيدة النثر) يتعارض تعارضاً تاماً مع متطلبات الشكل الذي تنتج فيه، كمراعاة الوزن والقافية معاً، أو الوزن وحده على الأقل. ومن هنا يصبح مصطلحاً أبتر؛ لاستناده على ساق واحدة، هي علاقته الروحية بالشعر، أعني بروح الشعر بما فيه من سمات تعبيرية وتصويرية وانفعالية.

بناءً على الأسس الموضوعية السابقة، ينبغي أن نطلق عليه اسم (النثر الشعري)، فهو مازال منتسباً إلى النثر، وإن توافرت له بعض خصائص التعبير الفني الشعري. هكذا ينطبق الاسم على المسمى، وهكذا أنظر إليه ناقداً. وإنما آثرت هنا أن يكون كلامي تحت اسم (قصيدة النثر) لشيوعه ولكونه المصطلح الذي يرتضيه أصحاب هذا الفن ويحبون أن يطلقوه على صناعتهم.

والحق أن ما يعرف بقصيدة النثر ليس خيراً كله، وليس شراً كله كذلك. يصدق ذلك إذا نظرنا إلى هذا اللون من التعبير وحكمنا عليه في حدود إمكانياته الفنية وبلاغته الخاصة، باعتباره صيغة وسطى بين النثر التقليدي والشعر بمعناه المتكامل. فهو ليس نثراً أدبياً تقليدياً، لانفراده بسمات تعبيرية وبنائية ليست من جوهر النثر الأدبي التقليدي عادة كما سنرى. وهو بالطبع ليس شعراً؛ لخلوه من الإيقاع الموسيقي المنتظم؛ فإيقاعه إيقاع بنية لغوية، لا إيقاع وزن وقافية. لا يبنى الحكم على هذا اللون من التعبير إذاً إلا بما يمكن أن تقدمه لنا — على المستوى الإبداعي — صيغة فنية ليست نثراً خالصاً ولا شعراً خالصاً، ولكنها (نثر شعري).

ونتساءل الآن. ما أهم الخصائص اللغوية والأسلوبية لقصيدة النثر كما تبدو في " الوطن المحرم " لعائشة أرناؤوط ؟.

إن هذا الكتاب يشتمل على ديوانين اثنين هما : (الفراشة تكتشف النار) و (لا). يحكي الديوان الأول معاناة الإنسان الفلسطيني خاصة والعربي عامة بعد حصار (بيروت). أما الديوان الثاني — وهو سابق في تاريخه على الديوان الأول — فيصور عذابات ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧. والعنوان الذي يتخذه هذا الكتاب بديوانيه معاً هو اسم لإحدى قصائد الديوان الأول منهما. وإذا كنا قد اجتزنا — تاريخياً — اهتمامات الديوان الثاني، فمازال صالحاً على المستوى الفني للتأمل والدراسة.

إن أهم ما يلفت النظر إلى هذا العمل بديوانيه (ولنسمهما هكذا مجازاً) هو لغته، فالذي يشد انتباهنا — لأول وهلة — ليست مضامينه الفكرية ومحاوره الموضوعية وتوجهاته الأيديولوجية، وإنما الإطار التعبيري الذي تؤدي فيه هذه المضامين والتوجهات.

من هذا المنظور، يصبح الحديث عن بناء (قصيدة) النثر في جوهره حديثاً عن اللغة والأسلوب، ويصبح الحديث عن السمات اللغوية والأسلوبية لـ (قصيدة النثر) – بناءً على ذلك – ضرورة علمية، لا يجدي معها الرفض أو المصادرة.

ولو أردنا الآن التعرف على أهم السمات اللغوية ــ الأسلوبية لقصيدة النثر عند (عائشة أرناؤوط)، من خلال ديوانيها السابقين، لأمكننا حصر تلك السمات فيما يلي :

١ ـ تقديم مشتقات جديدة.

٢ ـ إعلاء القيمة الأسلوبية للصفة.

٣ ـ إقامة علاقات لغوية جديدة بين الألفاظ.

٤ ـ خلق استعارات خاصة.

٥ ـ التعبير المختزل.

٦ ـ الغموض والغرابة.

٧ ـ امتلاك معجم شعري متميز.

وينبغي الإشارة هنا إلى الدور الكبير الذي أسهم به الشعر العربي المعاصر في تجديد اللغة واستغلال الطاقات الأسلوبية الكامنة فيها كما يتجلى في نصوصه المتازة عند رواده من أمثال السياب وصلاح عبد الصبور وأدونيس وغيرهم. وربما كان التلاقي الواضح بين قصيدة النثر عند (عائشة أرناؤوط) ونصوص هذا الشعر في تقنياته الفنية والتعبيرية، من جرأة في التعبير، وازدحام الرموز، واستضافة مفردات جديدة إلى المعجم الشعري .. الخ، ربما كان ذلك مدعاة للقول بتأثر (عائشة أرناؤوط) وغيرها من أصحاب (قصيدة النثر) مثل (محمد الماغوط) و

(حسين عفيف) – في أعماله الأخيرة – وغيرهما، بروح الشعر المعاصر وطريقته في التعبير. ولننظر الآن إلى الخصائص السابقة كل على حده :

(١) المشتقات الجديدة :

من البديهيات أن اللغة تتجدد – على المستوى التعبيري – على أيدي المبدعين بها شعراً أو نثراً. وربما كان سعي (قصيدة النثر) إلى ابتكار أبنية جديدة مظهراً أساسياً من مظاهر (الجرأة اللغوية) فيها. وهي – حتى الآن – مازالت جرأة محصورة في إطار النظام اللغوي للعربية، والعربية لغة اشتقاقية كما نعرف. أضف إلى ذلك أن هذه الاشتقاقات كانت عند (عائشة أرناؤوط) – بخاصة – مما تفرضه ضرورات التعبير الفني؛ فهي اشتقاقات موظفة لغايات تعبيرية تأثيرية. وربما كان إخلاصها لتلك الغايات سبباً أساسياً في ندرة المشتقات الجديدة في كلا الديوانين.

ويمكننا الآن أن نقدم مثالاً على ذلك بالفعل (تجذّر) من (الجذر) في قولها :

" هنا حيث ترتخي النزوات وتتجذّر اللوامس،
هنا حيث تلتحم الحنجرة بالجناح،
الصرخة والطيران واحد " [(١)].

ولا نكاد نجد فعلاً أدل على امتداد هذه اللوامس وتأصلها من هذا المشتق الجديد (تجذّر)، بما يستحضره في الذهن من صورة مادية ممتدة الجذور.

وقد تشغل البنية الجديدة وظيفة شعرية مختلفة، بتأثير جدتها وطرافتها، وانظر مثلاً إلى قولها :

" وطننا قالب عائم من الجص
وبحارنا من الأسيد
زماننا نسيج مجهري
مرهون بأصابع الآخرين " [(٢)].

(٢) الدور الأسلوبي للصفة :

تلعب الصفة في قصيدة النثر عند (عائشة أرناؤوط) دوراً أسلوبياً خطيراً، بحيث يمكن القول بأنها تمثل – على مستوى الجملة الشعرية عندها – (نقاط الارتكاز اللفظي) تماماً كالنبر، الذي يمثل (نقاط الارتكاز الصوتي) على مستوى المقاطع الصوتية.

---

(١) الوطن المحرم (الديوان الأول = د ١)، دار فكر للدراسات والنشر، ط ١، القاهرة، (١٩٨٧) ص ٥٥.
(٢) الوطن المحرم، د ١ ، ص ٦٨.

إن الصفة عند (عائشة أرناؤوط) ليست سمة لغوية أساسية فحسب، ولكنها ترقى إلى درجة (اللازمة اللغوية) التي تتكرر بمعدل مرتفع في جميع قصائدها. وانظر إلى المقاطع الثلاثة التالية :

" أيها الفجر المتوهج
الهارب من سجلات التاريخ المزور
يا بوصلة روحي المتأنية في خروجها
أيها الفجر الهائم
تعال احتذ جسدي المهتريء
وتسكع في روث الزمن
في ركام الجثث المتخبطة بالحجارة.
تعال نحو موتنا الطلسم
جثتنا سريعة العطب
وغداً لن يكون بإمكاننا استقبالك بلا رائحة.
أيها الفجر النبيل
لاتخف ..
اعبر الهواء الذي مازال موشوماً
بالنظرات الأخيرة لرعبنا الأبيض ..
تعال تأبط حلمي الصغير المحفوف بالمخاطر " [1].

فالصفات تطارد الموصوفات، لتمييز أجناسها ووصفها وصفاً يعتمد عليه المعنى العام والصورة الكلية في كل مقطع اعتماداً أساسياً. والموصوفات في تلك المقاطع هي ذاتها (الكلمات – الموضوعات)، كالجسد والجثث والموت .. الخ. وإذا كانت بعض تلك الصفات مما يعهده النثر التقليدي مثل (الجسد المهتريء) و(الحلم الصغير المحفوف بالمخاطر)، فإن منها ما هو شعري مبتكر، مثل (الموت الطلسم) و(الرعب الأبيض)، حيث توحي الأولى باستنكار الموت لغموض أسبابه، وتوحي الثانية بالمسالمة وصفاء النية بالرغم من ذلك الموت !

(١) نفسه، د ١ ، ص ٦٨.

obeikandl.com

وينبغي لنا أن نؤكد أن الصفة عند (عائشة أرناؤوط) ليست لازمة لغوية عفوية، وإنما هي لازمة موظفة توظيفاً أسلوبياً عالياً. ويبدو ذلك – على وجه الخصوص – من (الصفات المجازية) التي أبدعتها في مواضع كثيرة من هذين العملين، بحيث أصبحت (الصفات المجازية) من أبرز سماتها اللغوية والأسلوبية وأخطرها. يبدو ذلك من القيم الأسلوبية المختلفة التي تمتلكها، وهي :

١ ـ صنع المفارقات الساخرة.

٢ ـ تفريغ الأحاسيس الانفعالية القوية.

٣ ـ الإيحاء بالمعنى.

تبدو القيمة الأولى في سياقات (تلمع) فيها الصفة، وتلقي بضوئها على الموصوف، فتكون السخرية اللاذعة، من علاقات تقيمها الكاتبة بينهما، هي غاية في الجدة والطرافة، كـ (الفشل الفاخر) في قولها :

" إليك أيتها الكيمياء الميتافيزيقية

إليك أيها الحب ، أيها السحر المأخوذ

والمعجون في نبرة الجسد.

فوق الفشل الفاخر

وتحت كل الرغبات البسيطة المذهبة.

أنطق جرعتي العربيدة " [1].

و(الكلمات الصلعاء) أو (النيئة) في قولها :

" المقاهي الرخيصة

والمناضد والوجوه

وأنقاض الأقدام والمرايا المكسورة

والعقارب المتحركة على الجدار الصغير

الراقد فوق اليد بشكل مائل

رموز لا تنتهي ولا تتدفق

رموز مبتورة ومحقونة بالزمن

---

(١) نفسه، د ٢، ص ١٧٩.

obeikandl.com

وكلمات صلعاء .. وكلمات أنيقة.

والحلم بالتجسيد النهائي

والكلمة الأخيرة النيئة

والعارية حتى الهيكل " [1].

إن الصفة عند (عائشة أرناؤوط) لا تلعب الدور التقليدي المحصور كالتأكيد والتخصيص ونحوهما، ولكنها تتقدم إلى الصف الأول من (المثيرات اللغوية) في جميع قصائدها، فهي عندها من أهم الوسائل الأسلوبية لتفريغ الأحاسيس الانفعالية العارمة، كما نجد في الحديث عن (الموجة المتقرحة) في قولها :

" عبرت الموجة المتقرحة والدمامل

ولأنني حملت قوس قزح كذكرى

وضعت في محجر صحي " [2].

أو (الجنون الدموي) في قولها :

" هذا الذهان التأويلي لسلطة من القش

هذا الجنون الدموي الذي يلبس الأشباح المنظورة

والمصنفة في سجلات خلد أعمى

انسجام مسبق لاحتضار نسور الكتف

في محرق السقوط " [3].

أو (الأوراق المبحوحة) دلالة على سكونها وحزنها، في قولها :

" أوراق الأشجار مبحوحة وبائسة

فالتراب يفتح قاعاته الفسيحة

يغلف جميع النداءات الآتية من المجهول

برطوبة الندى وخطى مسافر لن يعود " [4].

---

(١) نفسه، د ٢، ص ٨٣.

(٢) نفسه، د٢، ص ١٩٦.

(٣) نفسه، د ١، ص ٣٩.

(٤) نفسه، د ٢، ص ١٤٨ .

obeikandl.com

(٣) إقامة علاقات دلالية جديدة :

وتخلق (عائشة أرناؤوط) دلالات إيحائية، تنتج عن تلك العلاقات الجديدة (الطازجة) التي تقيمها بين الصفة والموصوف كذلك. وتعتمد في إقامة تلك العلاقات على (الجمع بين المتناقضين) مثل (النور الأسود) في قولها :

" أبدأ العرس بالبكاء

وحتى الآن لم يعرف سيدي الدمعة

لو أنها تتجسد قبل أن تصير مدينة وطائراً

قبل أن تصير أدغالاً مبنية بالنور الأسود.

وأعشاباً هائلة من الصمت والماء " (١).

وربما استطاعت في هذه الصفة أن توحي بتشابك الأدغال وكثافتها، حتى تسلب النور وتبخسه حقه في أن يظل كذلك، فيأخذ لون النقيض. ومن الجمع بين المتناقضين كذلك (الخصب المجدب) في قولها، تخاطب الأحراش الجبلية :

" فيك البصيرة المختنقة

والجراثيم المضاءة

فيك لوعة الخصب المجدب

فيك أشتهي أن أبصق

وأرفض أن أضاجع انحناءاتك في جسدي " (٢).

فالصفة هنا تسلب من الموصوف طبيعته، فهو خصب ضائعة خصوبته، خصب مفقود لا يستغل، ولذلك فهو في حكم المجدب.

وكثيراً ما تعتمد على (تراسل الحواس) كالتراسل بين المسموع والملموس في (الأنين الطري) في قولها :

" الأحشاء خرجت والأنين طري

جثث .. موتى .. أنصاف موتى

الاحتضار يعرف الملاحة جيداً

---

(١) نفسه، د ٢، ص ١٠١.

(٢) نفسه، د ٢، ص ١٥٠.

obeikandl.com

والمدججون بالسلاح يبخلون برصاصة الرحمة " [1].

فالأنين الطري هو الضعيف لخروج الأحشاء والاحتضار.

وتعتمد (عائشة أرناؤوط) كذلك في خلق العلاقات الدلالية الجديدة بين الألفاظ على المزاوجة بين لفظتين مزاوجة مجازية، مثل (خوار النار) في قولها :

أمام خوار النار

تتسلح العصور العمودية

وتحيط وعل النور بالشباك " [2].

و (خوار النار) من المزاوجات المجازية الطريفة التي تقدمها لنا لغة (عائشة أرناؤوط)، وتبدو الطرافة هنا من العلاقة الجديدة التي تقيمها بين المرئي والمسموع، فالمرئي يخرج عن طبيعته المعهودة إلى طبيعة كائن حي ذي صوت عال، يصعب أن تحده، فهي نار شديدة عالية منتشرة.

وتعي (عائشة أرناؤوط) بحساسية فنية مرهفة قيمة التقابل بين الصور وتأثيره في المعنى، فتراها تقابل بين (خوار النار) و (عل النور). وترى (عائشة أرناؤوط) العلاقات الخاصة بين الألفاظ بوضع اللفظة في غير موضعها من أصل الاستعمال، على نحو ما نجد في (ثغاء الأمطار) دلالة على علو أصواتها وتداخلها وتواليها، وذلك في قولها :

" حوافر كل الجياد الجامحة تحترق غابة تلاقياتنا المعتمة

تحت كل ورقة شاحبة جرس صغير معبأ بثغاء الأمطار

ورائحة رضيع ميت تحت ثدي مجهول وحزين " [3].

ولعل من أهم الوسائل اللغوية لخلق العلاقات الشعرية الجديدة بين الألفاظ عند (عائشة أرناؤوط) وسيلة (كسر المصاحبات اللفظية) التقليدية الثابتة في موروث اللغة، وإن كانت حالاتها قليلة، ومن ذلك قولها :

" يغيب ترابك تحت الجثث فلا نعرف لونه.

توازين بين الدليل وعكسه.

ولا تصلين إلى نظام الأشياء.

---

(١) نفسه، د ١، ص ٣٠.

(٢) نفسه، د ٢، ص ١٩٤.

(٣) نفسه، د ٢، ص ١٤٨.

أيتها الطريدة المدججة بالنور

التي توغل بعيداً في ليل تالف

المهماز يحرق خصرك المنتش جروحاً.

والحذاء مستورد من بلاد قفراء " [1].

فهي تصنع هنا مصاحبة شعرية جديدة في (المدججة بالنور)، تستمد قيمتها الأسلوبية من مفاجأتها للسامع ومخالفتها للمصاحبة اللغوية التقليدية (مدجج بالسلاح)، وقدرتها الفائقة على التعبير عن المعنى فهذه الطريدة (وربما كانت رمزاً للوطن) قوية في تمسكها بالنور قوة المدجج المتمسك بسلاحه. هنا يقع (النور) موقع (السلاح) رمزاً لمسالمة تلك الطريدة الموغلة في ذلك الليل التالف.

(٤) خلق استعارات خاصة :

للتعبير المجازي في ديواني (عائشة أرناؤوط) دور كبير في التعبير الفني عن المعاني. ففضلاً عن المزاوجات المجازية التي رأينا أمثلة لها فيما سبق، نرى أن لها استعاراتها الخاصة، التي ولدت طبيعة التجارب الفنية والهموم الإنسانية العامة التي عبرت عنها، كآلام الغربة، وعذابات الهزيمة، والفساد الأخلاقي، والجوع الروحي، والأحلام الضائعة، .. الخ. وقد تشكلت استعاراتها على نار هذه التجارب القاسية، فصارت مرتبطة بها غير دخيلة عليها.

إن الاستعارة عند (عائشة أرناؤوط) تستمد خصوصيتها من خصوصية رؤياها للأشياء، ومواقفها من قضايا الوطن، وآلام الإنسان العربي المعاصر وآماله وتمييزها الدقيق بين ما تشابه على الناس من أمور.

ويمكننا القول بأن استعارة (عائشة أرناؤوط) تتميز بثلاثة سمات أساسية :

(أولاها) دلالة لوازم المشبه على الشدة والعنف والصور المنفرة.

و(الثانية) وقوع المشبه معنوياً في كثير من الحالات.

و(الثالثة) قوة إيحاء الأبنية الاستعارية بالمعاني المقصودة.

وإذا أردنا اجتزاء أمثلة من استعاراتها، فلننظر إلى (تورم الحلم) في قولها :

" ما معنى أن أضيف أسفي كل يوم

إلى صندوق التأملات

---

(١) نفسه، د ١، ص ٢٧.

صرت طفلة بالغة الهرم

عيناي تعميان دون حجارتك العتيقة

أنا المصنوعة من طينتك وبخورك الدائريّ.

ذبلت الريح وتورم الحلم.

وصار معرضاً للانفجار مفصولاً بخيط شعرة " (١).

إذ توحي (تورم الحلم) بامتلائها بالأحلام القديمة التي طال عليها الأمد حتى صارت عرضة للانفجار.

وتدخل كلمة (الأحلام) في استعارة أخرى تبدعها الشاعرة في قولها :

" ولست إلا عابراً .. رأيت شوكة عند الباب

تنبت زهراً له رائحة العفن.

فدخلت

وهنا تجعدت كل أحلامي كالقصدير الرقيق " (٢).

وتجعد الأحلام دلالة على الخوف، بل على اليأس من تحقيقها.

وإذا كان انفجار الأحلام المرتقب – في الاستعارة السابقة – رمزاً على فعل إيجابي مستقبلي، فإن تجعد الأحلام هنا رمز على فعل سلبي في الحاضر، وبين الخوف من الحاضر والأمل في المستقبل يكمن قلقها النفسي الدائم العنيف.

وأحلام الكاتبة ليست شيئاً من أحلام المدينة الفاضلة، ولكنها أحلام لوطن مغترب عن أهله، أحلام من وطن محرم، ولذلك كانت دائماً أحلاما محفوفة بالمخاطر :

أيها الفجر النبيل لا تخف.

أعبر الهواء الذي مازال موشوماً

بالنظرات الأخيرة لرعبنا الأبيض

تعالَ تأبط حلمي الصغير المحفوف بالمخاطر " (٣).

وتحمل صيغ الأمر والنهي هنا شيئاً من الخوف والأمل اللذين نتحدث عنهما؛ فالنهي عن الخوف يعني وجود ما يخيف، وأمر الفجر بالعبور وتأبط الأحلام يعكس أملاً في القدرة على تحقيق هذه الأحلام مهما كانت محفوفة بالمخاطر.

---

(١) نفسه، د ٢، ص ٩٣.

(٢) نفسه، د ٢، ص ١٣٧.

(٣) نفسه، د ١، ص ٦١.

obeikandl.com

إن الثورة على الظلم الذي يعاني منه الوطن، وعلى القهر الذي يلقاه أبناؤه، هي الإطار الذي يحدد اختيار عناصر الاستعارة في قصيدة النثر عند (عائشة أرناؤوط)؛ فهي تختار العناصر اللغوية التي تثير في النفس حنقاً وضيقاً وثورة على الواقع الذي تتحدث عنه، كقولها:

" ليس هنالك سوى صدى الطائرات العمودية
المحومة كجراد معدني يبتعد
هاربة باتجاه حملة نسور الكتف
باتجاه أسدين يحرسان بوابة الموت
طائرات عمودية أفرغت حمولتها وتقيأت الرصاص
على نسيج من اللحم البشري
الذي تراقص على شكل تلال دموية "[1].

فالفعل (تقيأ) – في ذاته – يثير في النفس حنقاً وقرفاً، وهو في هذه الاستعارة يرسم صورة لأقصى ما يتعرض له الإنسان من قهر وبطش. إنه هنا تقيؤ رصاص علي لحم آدمي.

وفي قصائد (عائشة أرناؤوط) غير ذلك من المواضع التي تشهد على بكارة استعاراتها ومهاراتها العجيبة في الجمع بين عناصر تلك الاستعارات. وخذ أمثلة على ذلك استعاراتها التي تلمح فيها ملامح نسائية واهتمامات نسائية، مثل : (رائحة الحنان المشتعلة)[2] و(شعر العدالة الأشعت)[3] و(الصوت المشوي)[4] و (نضوج الشمس)[5] و (عجن المحبة)[6].

هكذا، يمكننا الانتهاء إلى أن استعارة (عائشة أرناؤوط) إفراز لغوي على قدر همومها وطبقاً لطبيعة تجاربها، وهي – كما رأينا – ليست تجارب وجدانية ناعمة، ولكنها تجارب نفس مغتربة وشعب معذب.

(٥) التعبير المختزل :

تتميز لغة (عائشة أرناؤوط) بالاختزال الشديد، فهي لا تسترسل حتى تصير الجملة (نثرية) فاترة، ولكنها تقتصد غالباً في وحدات الجملة، فتبدو مكثفة، رامزة، مشعة بالإيحاء.

---

(١) نفسه، د ١، ص ٢٨.
(٢) نفسه، د ٢، ص ١٩٥.
(٣) نفسه، د ٢، ص ١٧٣.
(٤) نفسه، د ٢، ص ١٧٣.
(٥) نفسه، د ٢، ص ١٢٩.
(٦) نفسه، د ٢، ص ٩٤.

obeikandl.com

والراجح عندى أن تميز قصيدة النثر بسمة التعبير المختزل يرجع إلى الإحساس الفطرى عند الشاعرة بالأثر الخطير الذى يتركه خلوها من موسيقى الشعر. فلاشك أن خلو (قصيدة النثر) من الموسيقى يخفض حرارة التعبير الشعرى فيها بدرجة لا يستهان بها. هنا يصبح الاختزال ضرورة فنية لا غنى لقصيدة النثر عنها، إذا أرادت أن تحصل على بعض من سمات التعبير الشعرى.

وتستعين الكاتبة على تكثيف مفردات الجملة بوسائل مختلفة من أهمها :

الرمز.

كسر التناسق المنطقى للغة لغاية تعبيرية.

إنها تطارد مفردات اللغة وتلاحقها وتستثمر ما فيها من طاقات رمزية. والرمز ليس صفة خالصة لكل مفردات اللغة بالطبع، فهناك مفردات تصلح لأن تستعمل استعمالا رمزيا، وهناك مفردات أخرى لا تمكنها دلالاتها المعجمية من ذلك. وبديهى أن مثل هذه الألفاظ الرامزة تستمد دلالاتها من السياق، وهنا ينبغى الإشارة إلى أن الكاتبة قد خانها التوفيق فى كثير من الحالات فى خلق السياقات المعنوية المناسبة التى تشف عن تلك الدلالات الرمزية أو تعين على فهمها. ومن ذلك مقطوعاتها (كالزبد) و (وطن بلا أطراف) وغيرهما. وربما كان تعدد الرموز وازدحامها فى القصيدة الواحدة سببا جوهريا فى غموض دلالاتها. فالرمز الواحد لا يكاد يمثل عمودا فقريا لبناء القصيدة، وإنما هى رموز متداعية زئبقية الدلالة. إنها رموز أشبه برموز الفن التشكيلى السريالى.

ويستثنى من ذلك بالطبع، تلك الألفاظ ذات الدلالات الرمزية الأخرى كالأظافر والرماد وغيرهما.

والحق أن لعائشة أرناؤوط رموزاً خاصة، لعل من أهمها وأكثرها طرافة رمزى (القنفذ) و(الأورام). فالرمز الأول لم ينل حقه فى نصوص الشعر العربى المعاصر. وربما انفردت الشاعرة باستغلال قيمته الرمزية، بالرغم من شهرته فى الاستعمال الشعبى.

ويعد هذا الرمز مثالا للرموز التى أحسنت استخدامها فنياً، على نحو ما نجد فى قصيدة (زمن القنافذ لا زمن الورثة) فالقنفذ — سواء أتحدثت عنه أم إليه — هو نقطة المركز الذى تدور حوله محاور القصيدة الموضوعية.

أما رمز (الأورام) فهو رمز مستحدث، استخلصته (عائشة أرناؤوط) من جسد الواقع الفلسطينى والعربى. ويعكس هذا الرمز المادى الاعتلال النفسى وتضخم عذابات الروح

العربية. ويتردد هذا الرمز فى قصائدها تردداً ملحوظاً، لا تجد له نظيراً عند أديب معاصر آخر، فقد وصلت به إلى درجة (الكلمة – المفتاح) فى ديوانيها.

ومن ذلك قولها :

" تستتر صحراؤك بالجثث

كخمار دموى لعينيك الباكيتين

والريح تفقد وشائعها وجهاتها الأربعة

متحولة إلى تويجات صماء وسط البرارى.

كل شئ ساكن إلا الأورام المتفتقة.

كل شئ ساكن فى التهابه الأخير.

كل شئ ساكن

حتى تصدع الغصة فى حنجرتك المهشمة " [1].

إن (الأورام) عند (عائشة أرناؤوط) ليست رمزاً أحادى البعد، وإنما رمز على (حالة)، حالة عامة وشاملة للوطن بكل أبعادها السياسية والعسكرية والاجتماعية. أما كسر التناسق المنطقى، فهو بالجمع المقتضب بين لفظين متناقضين فى الدلالة المعجمية المنطقية جمعا يولد – من احتكاكهما المباشر – معنى إيحائيا جديدا.

ومن أمثلته الجمع بين الصراخ والصمت فى قولها :

" إنها لحظة مناسبة للخرس

أواه .. أيتها الصرخة المكمومة بالدبابيس.

ومقابض المسدسات

إنها لحظة مناسبة للخرس

حيث لوحة التسديد تفقد دوائرها.

وتصرخ بصمت " [2].

وربما ارتبط التعبير المختزل بطبيعة الفكرة الذهنية المجردة، حيث تتوالى الجمل محدودة الحجم ممتدة الإيحاء، كقولها :

---

(١) نفسه، د ١، ص ٢٧.

(٢) نفسه، د ١، ص ٤٧.

obeikandl.com

" الدمعة كائن .. الابتسامة حركة

فى الكائن لا يوجد كائن

فى الكائن توجد حركة " [1].

فهى – بهذه الجمل المختزلة – تصوغ مسلمات شعرية بلغة (المسلمات الافتراضية) التى تقود إلى (نتيجة منطقية) من خلال قياس (المحمول) على (الموضوع). وتحتل هذه المسلمات الشعرية الطريفة قيمتها من (أسلبة) الخطاب الشعرى، أى وسمه بسمة أسلوبية خاصة، كما تحمل قيمتها من تعبيرها المتميز عن رؤيا الكاتبة وفلسفتها ونظرتها البكر للأشياء. وينبغى الإشارة هنا إلى أن بعضا من قصائدها لم تخل من مقاطع تطغى فيها (النثرية) المباشرة، ويضعف (سبك) الجملة، ويتراجع الإيحاء، بتأثير العبارات والتراكيب الجاهزة، التى لا تختلف كثيرا عن لغة الخطب السياسية، كقولها :

" ضد أجيال لا تعرف قضيتها

ولا تفرق بين خيط العناكب وناب الأسد

ضد أولئك الذين يخططون معاركهم الحربية

فى المباغى

ضد التمزقات الغوغائية التى نعيشها.

بكل تهريجنا المكثف بالعار والتضليل.

أتحدث ويملؤنى القئ بعد كل كلمة.

وأتدثر بالبرد لأن شمسكم لم تعد تكفى.

ضد هذه الأشياء التى ترغمنى

على إخفاء رأسى تحت ذبابة ميتة.

أتحدث. وألملم أشلاء الأطفال الممزقين بالحصى " [2].

فلاشك أن احتواء مثل هذا المقطع على قوالب تعبيرية جاهزة مثل (التمزقات الغوغائية) و (ألملم أشلاء الأطفال) ونحوهما، أو جمل مبتذلة معهودة على نحو ما نجد فى السطر الأول والثالث والتاسع بخاصة، لاشك أن ذلك كله يقطع عن مثل هذا الكلام حرارة التعبير الشعرى المكثف.

---

(١) نفسه، د ٢، ص ١٦٥.

(٢) نفسه، د ٢، ص ١٥٥.

obeikandl.com

(٦) الغموض والغرابة :

والغموض من أهم السمات اللافتة للنظر فى قصيدة النثر بعامة، وقصيدة النثر عند (عائشة أرناؤوط) بخاصة؛ فالغموض لا يبلغ عند بعض كتاب قصيدة النثر مثل (محمد الماغوط) و (أدونيس) وغيرهما مبلغه عند الشاعرة، التى تستعصى بعض قصائدها على الفهم أو التذوق؛ ذلك أن النص يتحول أحيانا غير قليلة إلى لغة خاصة، شديدة الخصوصية، بل إلى لغة فردية لا تفصح ولا تعرب عن مكنون عقلى أو انفعالى محدد الملامح. إننا نشعر مع بعض القصائد أننا انتقلنا إلى لغة فقدت وظيفتها التوصيلية ومحورها الموضوعى، فلا تعرف عن أى شئ تحدثك، فصارت فيها الكلمات سواء، لا تستطيع أن تدرك لاستعمال إحداها – فى موضع بعينه – دون الأخرى مغزى، ولا تستطيع أن تحدد لبعض جملها – مهما طال اعتيادك للغتها – قصدا ولا معنى. وقد عرف امبسون W.EMPSON الغموض بأنه عبارة عن الظلال التى تترك فرصة لاستجابات متبدلة لنفس القطعة اللغوية[١]. ويمكننا – فى ضوء تقسيماته للغموض – أن نجد له أنواعا عدة عند (عائشة أرناؤوط)، ومنها :

(١) الغموض الناتج عن تجاور معان غير متصلة تجاورا مباشراً، كقولها :

" الهواء فوقى بين مد وجزر
لحظة من الرخام ولحظة من الزئبق.
مازلت ألملم أصابعى المتناثرة.
كى أحزم على مهل شهيقى الأخير.
وأحقن به زهرة تتفتق "[٢].

فلا تستطيع أن تحدد لهذا المقطع معنى كلياً واضحاً، فما دلالة المد والجزر فى الهواء ؟ وما العلاقة الحتمية بين الرخام والزئبق ؟ و ما معنى حقن هذه الزهرة المتفتقة ؟ وإلام ترمز هنا ؟ وما علاقة الرمز بما سبق كله ؟.

(٢) الغموض الناتج عن معان تعكس حالة معقدة فى ذهن الكاتبة، ومن ذلك قولها :

" الهواء صعب .. والغابة تتنفس الطحالب ..
الهواء صعب.. وسكينة الألم كذلك ..

---

(١) انظر : p.I. Empson, W., Seven Types of Ambiguity, Penguin Books, Brtain (1961)
(٢) الوطن المحرم، د ١، ص ٦٣.

الهواء صعب .. التنفس صعب ..

وتحمل الأصابع التى لا تحمل شيئا صعب كذلك ..

الهواء صعب .. والتراب صعب .. والماء صعب .. والنار صعبة ..

من هذه العناصر صنعت طينى ..

فكان رمادا .. ثم صار ريحا وجدت فيها

عصفوراً يحمله جناح واحد ..

كان مخجلا أن أقلده ..

لا جناح لى ولا خابية أردم فيها رمادى ..

لا جناح لى .. لا موت لى .. لا أصابع لى .. لا فراغ لى ..

و لا مكان لى .. "[1].

فهذا المقطع يحمل معنى عاما هو الإحساس بالغربة والعجز وفقدان الذات، بين مكونات الحياة، التى استحالت — مع كونها عناصر طبيعية ممنوحة — إلى أشياء صعبة. وهنا يبرز التعقيد الذهنى الذى تعكسه تلك الصورة المركبة؛ فمن هذه العناصر الطبيعية صنعت طينتها، فصار الطين رمادا، رأت فيه عصفورا بجناح واحد .. وربما رمزت بالطين إلى ذاتها، وبالرماد إلى تحول تلك الذات عن كليتها الأولى وفقدانها بعض مكوناتها، وبالريح إلى الهجرة من مكان إلى آخر، وبالعصفور ذى الجناح الواحد إلى معنى العجز والفناء الوشيك!!..

وينتج التعقيد هنا عن هذه المتوالية السياقية للرموز اللغوية، التى تعكس بدورها تواليا صوريا مفاجئا..

(٣) الغموض الناتج عن التعبير عن فكرة غير منطقية، ومن ذلك قولها :

"من تراب الأرض خرجت .. من حيث ستخرج أنت ..

لم تعرفنى انعطافة الليل ..

ولم يسألنى أحد عن اسمى ..

وبزوبعة القلب كتبتك على شطآن العالم ..

وفى كل مكان كانت رائحة ذراعك تنعشنى ..

رسمتك على وجه التراب ولم أعرف وجهك ..

---

(١) نفسه، د ١، ١٩ — ٢٠.

عندما كنت طفلة، قبل أن أولد .. بعد أن مت " [1].

ففضلا عن غرابة العلاقة بين مفردات السطر الثالث، يبدو المعنى فى السطرين: الخامس والسادس غامضا، للتعبير عنه على نحو غير منطقى، فإذا كان المخاطب هنا هو الوطن، فكيف ترسمه على وجه التراب قبل أن تولد؟ بل كيف استطاعت رسمه بعد الموت؟!..

ولا يكشف المعنى عن بعض ملامحه إلا إذا فهمنا أشباه الجمل : (عندما كنت طفلة) و(قبل أن أولد) و (بعد أن مت) على المجاز، فمراحل الطفولة، وما قبل الميلاد، والموت، ينبغى أن تفقد الآن معانيها الحرفية، وتصبح المرحلتان الأوليان كناية عن ارتباطها بوطنها وتعلقها به منذ الصغر، وتصبح مرحلة ما بعد الموت كناية عن شدة هذا التعلق واتصاله وخلوده.

(٤) الغموض الناتج عن استعمال رموز غير لغوية، وهو استعمال ذاتى محض، يجعل معنى هذه الرموز مبهما، ويجعل تفسيرها ضربا من التكهنات . ومن ذلك الرمز المبهم O فى قولها :

" وجدت مكاناً فى هذه الدمعة المتحجرة على طرف صحراء ..

الحرف الأبجدى الأول ..

كيف اكتشفت القبلة الأولى ؟ ومتى عرف الحب نقاط الفراغ ؟

متى نما الإبهام وصغر الخنصر ؟ متى نحدد عدد العيون .. ؟

زالت قشور الطين، وامتلأت الأنساغ بالروح الخضراء ..

وجدت مكانا فى هذه ال O المتحدرة من سلالات الجليد ..

المتحررة عن رحم امتلأ بأسماك تبتلعنى " [2].

فلا ندرى على وجه اليقين ماذا تعنى بهذه ال O المتحدرة من سلالات الجليد، فهل ترمز بها إلى عين الماء الصافية (التى ترمز بدورها إلى الحياة الهادئة فى القدم) فى مقابل (الرحم) الذى يرمز إلى بحر ملئ بالأسماك (وبالتالى إلى حياة متلاطمة، يأكل القوى فيها الضعيف) ؟ ..

وقد ترمز بالعلامة V ــ فى مثل قولها :

---

(١) نفسه، د ٢، ص ١١٤.

(٢) نفسه، د ١، ص ٢٣.

" آه .. أيها الوطن المذعور كالطريدة ..

احمل جلدك الملسوع ..

وضع علامة الجذر V - تحت عمودك الفقرى ..

الأقنعة بدأت بالتغوط " [1].

فلا ندرى كذلك الارتباط الموضوعى الحتمى بين علامة الجذر هذه والمعنى. أما الغرابة عند (عائشة أرناؤوط)، فهى سمة فنية، لا تكاد تحول دون فهم معانيها وأفكارها، بل ربما حملت إلى التعبير عن تلك المعانى والأفكار جدة وطرافة. ولنجعل من تشبيهاتها الغريبة أمثلة على ذلك، فمنها (التلاشى كاللاشئ) فى قولها :

" أركاديا : الحب والمحبة ..

أركاديا عاقر ولكنها ولدت العالم ..

.....

خارقة كأعماق البحر ومتلاشية كاللاشىء " [2].

ومنها (داهية كضمير ألكترونى) و (الجليد الأجوف كاللعنة) فى قولها :

" حيث يجتمع الماء حول الساق والعنق ..

ندفع ضرائبنا بيدنا اليسرى ..

ونحدق .. وندون تصدعنا بنجاح ..

مقابل الإعدام ..

جليد بحرى يتكسر دون تحديد ..

أجوف كاللعنة ..

وداهية كضمير ألكترونى " [3] **..**

فالغرابة فى مثل هذه التشبيهات يمكن جعلها (غرابة فنية) تعكس سعياً دؤوباً إلى اكتشاف لغة مجازية، توحى بالمعنى ولا تعبر عنه بالمشاع من التشبيهات. ويعتمد إيحاؤها على ما تراه بين المشبه والمشبه به من علاقات جديدة بعيدة.

---

(١) نفسه ، د ١ ، ص ٤٤ .

(٢) نفسه، د ٢، ص ١٦٩.

(٣) نفسه، د ٢، ص ١٨٩.

(٧) تميز المعجم الشعرى :

لا شك أن لـ (عائشة أرناؤوط) معجما شعريا متميزا، وإن كنا نرى أن كثيرا من عناصره تعد امتدادا لما أنجزته القصيدة العربية المعاصرة فى تطوير معجمها التعبيرى. فمن أهم سماتها فتح الباب لاستضافة مفردات وتراكيب جديدة لم يألفها— أولم يسترح إليها — الشعر التقليدى، كالمفردات ذات الدلالات الفجة المقززة، أو مفردات الجنس الصريحة، أو المصطلحات العلمية البحتة، أو المفردات التى ارتبطت بلغة النثر .. الخ.

ولعل الجديد الذى قدمته (عائشة أرناؤوط) وأسهمت به فى تطوير هذا المعجم هو استعمال المفردات من الأنواع السابقة جميعا بجرأة أشد وحرية أوسع، فلم تجد بأسا من معاملة لسائر المفردات الأخرى فى اللغة. وليس هنالك مايمنع من ذلك على الإطلاق، مادامت تعبر عن تجاور وغايات تعبيرية تقتضيها وتستوجب استخدامها بالتبعية. وتعكس هذه المفردات بالتأكيد ثراء التجربة الفنية فى قصيدة النثر واتساعها، وانفتاحها على أغراض مختلفة.

أما هذه الجرأة التى نتحدث عنها، فلعل خير دليل عليها هو تلاحق المفردات من الأنواع السابقة وتكرارها تكرارا ملحوظا جدا فى ديوانيها معا؛ فأنت تجد فيهما مفردات مثل : (البغاء) و (المرحاض) و (الدمامل) و (الأورام)، كما تجد مفردات العلوم الطبيعية كـ (الكيمياء) و (الفيزياء) و (الكلس) و (السلالة) و (المبيدات) و (الأكسيد)، ومفردات جغرافية وطبيعية، كـ (الطفح) و (المنحدرات) و (التضاريس) و (الكسوف) .. الخ، بل مفردات تجارية كـ (التصدير) و (الاستيراد) !.

والحق أن هذه الألفاظ لم تكن عبئا على الخطاب اللغوى عند (عائشة أرناؤوط)، فقد ملّكتها قيما رمزية وأسلوبية مختلفة. وبالرغم من ذلك، فإن هذه الألفاظ فى ذاتها لا تصنع

أثرا أدبيا، بل هى تدين — أينما وقعت — إلى الأثر الأدبى ذاته، بما يعرضة من تجربة شعورية ورؤيا إبداعية تستوجب — بالتبعية — تداول هذه الألفاظ وتكرارها. ويصدق هنا رأى ميشونك H. MESCHONNIC فى قوله :

" الأثر إنما هو الذى يصنع الأسلوب ، أما الأسلوب فلا يصنع الأثر " [(١)].

---

(١) نقلاً عن : النقد الأدبى والعلوم الإنسانية، تأليف : جان لوى كابانس، ترجمة الدكتور فهد عكام، دار الفكر، ط١، دمشق (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، ص ١١١، والنص فى كتابه :
Meschonnic, H., Pour la Poe'tique, I.Gallimard, Paris (1970), p.20.

وينبغى الآن الإشارة إلى ملحوظتين مهمتين :

(الأولى) هى أن أهمية هذه المفردات لا تبرز من التوالى العددى وارتفاع معدلات تكرارها فحسب، وإنما تتجلى أساسا من قيمتها الرمزية ودخول بعضها فى تراكيب لغوية، مثل :

– (التضاريس الروحية) أو (تضاريس الروح)[١] . .

– (ترمد الروح)[٢] ..

– الزمن المؤكسد)[٣] ..

و(الأخرى) أن هذه المفردات قد وسمت معجم (عائشة أرناؤوط) بسمة (المادية) المفرطة، بل انعكست هذه السمة على عبارتها كذلك، كالسطر الثانى من قولها :

"تعلّم الآن كيف تتمتم ونحن ننتظر الهاوية ..

وضع على قلبى الحجرى قليلا من العزاء ..

باعتناء وفخر وغرابة "[٤] ..

وخلاصة القول أن (قصيدة النثر) — كما تبدو عند (عائشة أرناؤوط) — قد شقت للعربية طريقا جديدة للنثر الفنى الذى يختلف عن النثر الكلاسيكى فى اقترابه الشديد من سمات الشعر وخصائص بنائه اللغوى، كالإيحاء، والتكثيف، والغرابة، والاستغراق، والتعبير بالرموز المتقابلة والمتوازية، وعناصر المعجم الشعرى، والتراكيب الشعرية، وتوجهات الشعر واهتماماته الموضوعية والأيديولوجية الجادة.

إن (قصيدة النثر) ليست — فى مفهومنا — لونا من ألوان الشعر، وإنما هى لون من ألوان النثر الفنى مهما كان نسيجه شعريا. ولا أرى — كما يثبت (الوطن المحرم) لـ (عائشة أرناؤوط) بديوانيه ما يراه الأستاذ الدكتور إبراهيم حمادة، من أن أبرز عيوب (قصيدة النثر) هو " محدودية الموضوعات التى يمكن أن تتناولها "[٥]. فإن هذا الكتاب — بديوانيه — ينفى هذا الحكم وينقضه؛ لتعدد موضوعاته واختلافها بين ذاتية داخلية وموضوعية خارجية. وإنما الذى أراه — من تأمل هذا العمل — أن أبرز عيوب (قصيد النثر) هو عجزها عن توفير قدر أدنى من التوصيل والإفهام فى حالات غير قليلة. ويبدو لى أن الإحساس بخلو (قصيدة النثر)

---

(١) الوطن المحرم، د١، ص ٢٦ — د٢، ص ٩٣.

(٢) نفسه، د١، ص٣٨.

(٣) نفسه، د١، ص٥٩.

(٤) نفسه، د ٢، ص ١٧١.

(٥) أنظر مقالته الافتتاحية لمجلة القاهرة، العدد ٧٣، (١٩ ذو القعدة ١٤٠٧ هـ) — (١٥ يوليو ١٩٨٧م)، ص١.

من موسيقى الشعر قد جعل أصحاب هذا الفن يبالغون فى الإثقال على أنفسهم وعلى اللغة بما لها من طاقات تعبيرية وإمكانيات أسلوبية، وجعلوا ذلك تعويضا عن فقدان العنصر الموسيقى، فكانت كثير من أعمالهم كالمترجمات الغامضة، بل أشد غموضا، وكانت لغتهم كالشفرة، بل أشبه بميتافيزيقا اللغة.

*** *** ***

obeikandl.com

الخطاب الروائى فى " ثرثرة فوق النيل "

إذا نظرنا إلى ما كتب عن لغة الرواية والقصة عند نجيب محفوظ لرأيناه شحيحا واهيا فى مجمله، يتناول بمنهج نقدى كلاسيكى أعمالاً روائية هى فى قمة الجدة والحداثة.

لقد استطاع نجيب محفوظ – برحلته الأدبية طوال نصف قرن تقريبا – أن يجعل للأدب الروائى فى العربية لغته الخاصة، فاكتسبت العربية – بذلك – ثراء فنيا واتساعا تعبيريا، تدين بكثير منهما لهذا الأديب العظيم.

وقد تعددت مستويات التعبير اللغوى الروائى عند نجيب محفوظ، بتعدد المراحل الفنية التى تندرج فيها أعماله الإبداعية. فهى لغة ملحمية، تمزج بين التراث ولغة التخاطب المعاصرة فى المرحلة التاريخية الأولى. وهى لغة وصفية انسيابية تسجيلية، يميل الحوار فيها إلى الاستاتيكية فى المرحلة الثانية، وهى المرحلة التى بلغت ذروتها مع الثلاثية الشهيرة. وهى لغة ميتافيزيقية إيحائية مضغوطة، يمتزج فيها خطاب (سرد) الكاتب بتيار الوعى، فى المرحلة الثالثة الفكرية، وهى المرحلة التى نجد أصدق مثال لها هذه الرواية التى نتناولها : " ثرثرة فوق النيل ". وهى لغة رمزية إسقاطية تركز على تكنيك المفارقة وتشابك خيوط اللحظة الرهنة بأصولها فى الزمن الماضى فى المرحلة الرابعة، وهى تلك المرحلة التى يمكن التمثيل لها بملحمة الحرافيش وليالى ألف ليلة ونحوهما.

وغنى عن البيان أن هذه الأحكام السالفة أحكام نسبية عامة، ذلك أن لكل عمل إبداعى جيد لغته الخاصة، التى تظل كذلك مهما قبل الدخول مع غيره فى مرحلة فنية واحدة.

وتعد رواية (ثرثرة فوق النيل) نموذجاً فريداً للغة الأدبية الروائية. فقد برزت فيها (أدبية) العمل الروائى، وصار للغة فيها وظيفة إخبارية ودلالية جوهرية، سواء أكان ذلك على مستوى السرد أم على مستوى الحوار. وهى وظيفة لم تكن تؤديها اللغة بهذه الكفاءة والأهمية فى أعماله الروائية السابقة، حتى فى روايته الثلاثية الشهيرة. ففى مرحلة الثلاثية وما قبلها، كانت الأهمية للحدث، والبيئة، والشخصيات، بينما انزوى التشكيل اللغوى الأدبى للرواية فى ركن بعيد.

لقد كان البطل – بلغة الرواية – فى أعماله الأولى، هو الحدث. وكان هذا الحدث : اجتماعيا أو تاريخيا حدثا ممتدا، تنقطع فيه أنفاس التعبير اللغوى فى تتبع حكائى، يصيره من غاية فنية جمالية إلى وسيلة مجردة للقص.

أما البطل فى هذه الرواية، فهو – بحق – هذا الاستخدام الفنى الجمالى للغة. أو بعبارة أخرى، هذه العلاقة الحميمة القوية بين اللغة وإيقاع الجمال فى السياق الروائى. لم تعد البيئة هنا ولا الشخصيات ولا الأحداث مطلوبة لذاتها، وصارت الشخصيات أقرب إلى الرمز أو النموذج. ولم تعد البيئة تعرض بتفاصيلها، بل صارت – كما يقول نجيب محفوظ ذاته – أشبه بالديكور الحديث، والأحداث، يعتمد اختيارها على بلورة الأفكار الرئيسية.

(١) مضمون الرواية :

تدور أحداث هذه الرواية فوق عوامة بالنيل، يجتمع فيها كل ليلة عدد من الأصدقاء : رجالاً ونساء فى (مجلس الكيف) يتناقشون فى أمور حياتهم وهموم مجتمعهم، ثم يعود بعضهم إلى منزله، ويبقى أحدهم (أنيس) الذى يقيم بالعوامة. وقد ينفرد بعض رواد العوامة ببعض الرائدات؛ لتحقيق رغبة جنسية.

وشخصيات الرواية من ذوى الثقافة والمهن المختلفة : فأنيس زكى موظف بوزارة الصحة. وهو رجل مثقف. كان طالبا ريفيا قدم إلى القاهرة من الريف وحيدا. درس فى كلية الطب، ولكنه لم يكمل دراسته. وانقطعت عنه الموارد، فعمل بوزارة الصحة، بمساعدة أحد أساتذته فى الكلية. ماتت زوجته وطفلته فى شهر واحد (لاحظ أثر ذلك فى سلوكه بعد ذلك). وهو يحب التاريخ والثقافة ولا يكتب. وهو مقيم بالعوامة. اعتاد الإدمان ولا يكاد يفيق. وهو – كما يسميه رفاقه – فارس (الشلة) وولى أمرهم. وأراه بوق الكاتب. وكثيرا ما يطلقه للتعليق على ما يدور حوله أو التعبير عن أفكار وتأملات عميقة، بالاعتماد على تكنيك (تيار الوعى). وربما لم توجد هذه الشخصية بالذات إلا لأداء هذه الوظيفة، فهو لا يكاد يجاذب رفاقه الحديث .

أما الشخصيات الأخرى، فهي: أحمد نصر مدير الحسابات، ومصطفى راشد المحامي، وعلي السيد الناقد الفني، وخالد عزوز كاتب القصة، ورجب القاضي الممثل، وسمارة بهجت الصحفية، وسناء الرشيدي الطالبة بكلية الآداب، وليلى زيدان المترجمة بالخارجية، وسنية كامل الرائدة القديمة بالعوامة وصديقة على السيد، وعم عبده حارس العوامة وخادم روادها.

وقد اتبع المؤلف في هذه الرواية اسلوباً جديداً في بلورة الشخصيات وجلائها اجتماعياً وخلقياً ونفسياً، بخلاف الحوار والسرد، عن طريق مذكرات إحدى الرائدات، وهي سمارة بهجت الصحفية وهاوية التأليف المسرحي، التي ترسم لنا شخصيات تلك الرواية في مذكراتها باعتبارها مشروعاً لعمل مسرحي تنوي كتابته.

وتشترك هذه الشخصيات – باستثناء عم عبده حارس العوامة – في عدة أشياء، كالثقافة، والإدمان، والتسيب الخلقي، والانغماس في المتع الحسية بعامة. ويجدون في العوامة المهرب لهم والملاذ من همومهم الخاصة والعامة. وهم ليسوا – مع كل ذلك – بمعزل عن الحياة الاجتماعية والسياسية حولهم، يتناقشون في أزمة كوبا وفيتنام، وفي الرشوة، والاشتراكية، كما يتناقشون في مشاكل العمال والفلاحين، واللحوم، والجمعيات التعاونية!

وكانت العقدة في هذه الرواية هي الحيرة التي انتابت أفراد الجماعة بعد أن صدموا بالسيارة شخصاً في طريق الهرم، أثناء نزهتهم الليلية، فقتل، فحاروا، ماذا يفعلون ؟ هل يبلغون الشرطة أولاً ؟ وكان هذا الحادث تجربة عملية لاختبار نواياهم وما يزعمون من آراء ومبادئ سامية.

وقد اتفقوا جميعاً على ألا يبلغوا الشرطة عن هذا الحادث، ماعدا أنيس، الذي هدد – في البداية – بالإبلاغ، ولكنه سرعان ما ظهرت نيته بالتظاهر، ولم يبلغ .

(٢) تفسير المضمون :

من المسائل المهمة في تحليل الرواية مناقشة وجهة النظر التي توجه الأحداث والشخصيات. وقد فسرت هذه الرواية تفسيرات عدة، منها أن المؤلف يصور الموقف السلبي لأبطالها تجاه الأحداث العامة بالانغماس في السمر وتعاطي المخدرات. ومنها أن المؤلف قصد إلى تصوير سلبية المثقفين عموماً. ومنها أن الرواية تهدف إلى النقد السياسي للسلطة أو القيادة في تلك الفترة.

والحق أن هذه التفسيرات جميعاً تعد تفسيرات أولية وحرفية؛ أى تكتفى بتفسير المستوى الفكرى الأولى البسيط للرواية، فالرواية : شكلاً ومضموناً، ليست عملا روائيا تقليديا، هدفه القص الأفقى للأحداث، وإنما تتحول فيه الشخصيات والأحداث إلى رموز على معان كبرى.

وأجدنى متفقا فى تفسير وجهة النظر فى هذه الرواية مع الناقد الدكتور حمدى السكوت، فهى " تصور أساسا وضع الإنسان فى الكون وحيرته أمام أسراره، وبخاصة ما يتصل منها بقضية الوجود ولغز الموت.

وهذه التساؤلات تستحكم فى رؤوس أبطال القصه فيمسون (غرباء) بالمعنى الفلسفى للكلمة، وتفقد الحياة معناها بالنسبة لهم وتتجسد أمامهم لامعقولياتها، ولايرون فيها شيئا

واحدا يستأهل اهتمامهم .. والعبث الذى يعيشه أبطال الرواية يعرف بأنه فقدان المعنى، معنى أى شىء وانهيار الإيمان، الإيمان بأى شىء. والسير فى الحياة بدافع الضرورة وحدها ودون اقتناع، وبلا أمل حقيقى، وتمسى البطولة خرافة وسخرية " [1].

وقد يؤخذ الدليل على ذلك من قول سمارة بهجت الصحفية " الحق أنى أؤمن بالجدية " فتنهال الأسئلة : " أى جدية ؟ الجدية لحساب أى شىء ؟ أليس من الجائز أن نؤمن بالعبث بجدية ؟ والجدية تتضمن أن يكون للحياة معنى فما المعنى ؟ " ثم يتساءلون : " على أى أساس جديد نقيم المعنى؟ " فتقول سمارة فى إيجاز " إرادة الحياة " (ثرثرة فوق النيل، مكتبة مصر (١٩٧٧) ص٦٩).

(٣) ملحوظات أولية فى اللغة :

من الخطأ فى تحليل لغة الرواية إهمال حياة اللفظة خارج معمل الفنان، كما يقول باختين[2]؛ أى وسط الفضاءات الشاسعة للساحات العمومية والأزقة والمدن والقرى والفئات الاجتماعية والأجيال والحقب.

وإذا كانت الأسلوبية لا تهتم بالكلام الحى، بل بتفصيله النسيجوى وباللفظة المجردة التى هى فى خدمة قدرة الفنان على التحكم والتطويع[3]، فإن ذلك لا يسمح للكاتب بانتقاء ما يراه أكثر مناسبة وتعبيرية من غيره من الألفاظ، لاسيما إذا ارتبط اللفظ المنتقى بحالة شعورية معينة أو باصطلاحات مهنية خاصة أو بفئة اجتماعية ذات معجم مميز.

ونجيب محفوظ من أكثر الروائيين دراسة لأبطال رواياته : ثقافاتهم ولغاتهم الاجتماعية وما يفيض به معجمهم اللغوى من مفردات وتراكيب نمطية.

وفى (ثرثرة فوق النيل) نلمح هذا التفاعل الحى بين البنية الروائية ممثلة فى البيئة وثقافة الشخصيات والبنية اللغوية ممثلة فى اختيار ما ينتج عن تلك البيئة والشخصيات من تراكيب ومفردات. ففى الحديث عن أنيس زكى بطل الرواية فى عمله الحكومى يرد فى سرد الكاتب مشتق جديد تألفه لغة الإدارة هو (يسرِّك) – بتضعيف الراء– فى قوله : " وبتصميم مفاجىء راح يسرِّك مجموعة من الخطابات " (الثرثرة ص٦). وإذا كان المشهد الرئيسى المتكرر لرفاق العوامة هو عكوفهم على تعاطى المخدرات، فإن السياق اللغوى الروائى يتوافق

---

(١) دكتور حمدى السكوت : مقالة بعنوان : سعمال أسهمت فى منح الجائزة : ثرثرة فوق النيل، مجلة المصور، العدد ٣٣٤١ ، ٢١ أكتوبر ١٩٨٨ ، ص ٢٧.

(٢) ميخائيل باختين: الخطاب الروائى، ترجمة محمد برادة، دار فكر للدراسات والنشر، ط١(١٩٨٧) ص ٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٥.

مع هذا المشهد كذلك، فتكثر فى السرد بل فى الحوار كذلك مفردات مما يعنى بدراستها فى علم اللغة الاجتماعى، تحت باب (اللغات الخاصة) ، مثل : الصنف، والتموين (أى الحشيش)، والبلبعة، والانسطال، والكيف، والسلطنة، والغبارة، والغرزة ونحوها. بل لقد تمخضت بعض تلك المفردات عن خلق (مجازات سياقية) تتشكل عناصرها من مادة السياق اللغوى الروائى، مثل: (الضياء المسطول) فى قوله الذى ينقل تداعيات أنيس زكى ونجواه : " الربيع الأولى المختفى يضفى على الظلمة ضياء مسطولاً كعين البنفسج الناعسة. أتذكر كيف كان البدر مرهقاً فى ليالى الغارات ؟ " (الثرثرة ص ٧٩).

ولا شك أن (الضياء المسطول) و (القمر المرهق) هى معادلات لفظية حسية لحالة أنيس الشعورية والنفسية وإحساسه الحاد بالتشتت وعجز الإرادة.

ومن الطريف الآن أن نضيف إلى العبارة السابقة عبارة أخرى ينتمى الفعل فيها إلى (الحقل الدلالى) السابق نفسه. وقد وردت هذه العبارة على لسان سناء الرشيدى فى حوارها مع رجب القاضى الذى يؤكد لها أن سمارة بهجت لا تتعامل مع (الجوزة)، فتتساءل بسخرية :

- إذاً.. فلماذا تدمن على زيارة العوامة ؟ (الثرثرة ص ١٣٠)

ومع جريان السرد والحوار فى أعمال نجيب محفوظ على اللغة الفصحى، فإنه لم يتجهم فى وجه ألفاظ وتراكيب عامية، بل ينقلها بحالها ؛ لقدرتها على الإيحاء بالمعنى المقصود وتصويره. يصف الكاتب هيئة أنيس فى السيارة– أثناء النزهة الليلية – فيقول : " تزحزح أنيس عن الباب المغلق وجلس جلسة مريحة لأول مرة، وهو ينفض جلبابه ليطلق سراحه، ويفتش بقدمه عن فردة شبشبه التى انسلت فى الزنقة " (الثرثرة ص ١٤٥).

فالعبارة الأخيرة تنقل للقارىء شيئاً عن ضيقه ولامبالاته وقد خرج مع أصحابه مكرها.

وأود أن أقف – الآن – قليلاً، لأبرز مسألة مهمة فى دراسة لغة الرواية؛ هى تأثير السياق اللغوى الروائى فى الوظيفة التى تشغلها بعض الحروف والأدوات فى اللغة. وأكتفى – فى هذا المقام – بأن أضرب مثالاً بالحرف (لكن). فهو – كما نعلم – للاستدراك، وعادة ما يكون بين المستدرك والمستدرك به علاقة معنوية كالضدية أو المغايرة، بحيث لا يتعدى ذلك (وحدة المعنى).

أما فى الرواية– بخاصة– كما يدل النص الذى بين أيدينا، فإن وظيفة هذا الحرف تتعدى (وحدة المعنى) إلى (وحدة الدلالة)، بمعنى ان يشغل فى سياق أكبر وظيفة تركيبية جديدة، ربما كانت كالتركيب : أما... ف... ، ولا تدل – إذ ذاك – على استدراك ما

تقدم، بل الإضراب عنه كلية، والانتقال المفاجىء إلى ما لايمت له بصلة. ويمكننا أن نطبق هذا الكلام على النص التالى : " وقال أحمد نصر إن كل حى هو جاد ويمارس حياته على أساس من الجدية، وأن العبث يقتصر عادة على الأدمغة ... ولم تقبل سمارة الرأى على علاته. قالت إن ما يستقر فى الرأس لابد وأن يؤثر بطريقة أو بأخرى فى السلوك أو على الأقل فى المشاعر. وضربت الأمثال بالسلبية واللا أخلاقية والانتحار المعنوى. ولكى يبقى الإنسان إنساناً، فعليه أن يثور ولو كان كل سنة مرة .. ، ولكن رجب اقترح عليها أن تبقى حتى يشاهدوا مطلع الفجر من وراء أشجار الأكاسيا أندوزا " (الثرثرة ص ٧٥).

فاقتراح رجب نقلة مفاجئة فى الخطاب، تعكس نقلة مفاجئة فى السياق الروائى. وهو يدلنا على عدم مبالاته بنقاش سمارة الجاد، فإذا كان حماس سمارة لرأبها ناراً، فإن اقتراح رجب كالماء الذى يقطع ألسنة تلك النار، لا سيما إذا أدركنا ما فى عبارة (حتى يشاهدوا مطلع الفجر...) من تلميح إلى ممارسة الجنس!

(٤) لغة السرد :

لعل من أبرز مميزات اللغة السردية عند نجيب محفوظ هذه المهارة والحرفية الفائقة فى الوصف. فهو يستغرق طويلاً– وبأناة – فى وصف التفاصيل الصغيرة الدالة الملتصقة ببنية الرواية. والوصف– فضلا عن كونه من أدوات الروائى الضرورية فى السرد– فهو على المستوى الأسلوبى أداة مهمة، يمكن إدخالها ضمن أدوات (تنبيل اللغة) فى الرواية. ولكن الوصف أكثر أهمية إذا تجاوز هذا الحد إلى وظيفة (الترميز) وصنع (الإسقاطات السيكولوجية والفكرية) التى تلقى الضوء على أبعاد الحدث أو الفكرة المجردة أو البعد السيكولوجى فى الشخصية.

يصف الكاتب جذع شجرة عتيقة وقد لفتت انتباه أنيس ذكى الذى خرج لأول مرة من عوامته مفيقاً إلى الشارع بقوله: " واعترضه جذع شجرة، فاستوقفه لضخامته وغلظه، فرفع عينيه إلى الغصون المنتشرة فى الهواء كقبة هائلة مغروسة الهامة فى سحابات الصباح الشفافة الدانية، ثم رجع إلى الجذع المعمر هابطاً إلى جذور كالحة متفرعة عن أصله وضاربة فى أرض الطوار، كأنما تنشب أظافرها فى اندفاعة متوترة تتحدى الألم. وهاك رقعة من اللحاء الخارجى قد تآكلت كاشفة عن طبقة من اللحاء الداخلى ذات لون أصفر باهت على هيئة بوابة قوطية استوت أمامه بطول قامته داعية إياه للدخول " الثرثرة ص١٦٠ ".

فالاستغراق فى وصف جذع الشجرة الذى قامت عليه هذه العبارات لا ينبغى أن يفهم على ظاهره، بل الأحرى بنا أن نربطه بسياقه الروائى، فهو– فى نظرى – رمز إلى فكرة

مهمة هى ضرورة سعى الإنسان إلى استلهام فلسفة الكون والوجود من كائنات الطبيعة الحية الأخرى. وهى فلسفة جوهرها تحدى الألم وإثبات الإرادة.

وقد ندلل على معقولية هذا الفهم بأشياء مختلفة :

١- أن الكاتب جعل أنيس ذكى مفيقا لأول مرة فى خروجه إلى الشارع وكأنه يعى ما يرى ويكاد يستشعر شيئاً ما نحوه.

٢- إلحاح الكاتب على وصف جذع الشجرة والغصون المنتشرة فى الهواء والجذور التى تنشب أظافرها فى أرض الطوار.

ولا شك أن وصف الشجرة على هذا النحو إنما هو مقابل مادى لحالة أنيس ذكى النفسية وإحساسه الحاد بالعجز والضيق بالحياة. وقد انعكس هذا الإحساس على حديثه عن طول عمر الشجرة حيث قال : " إن طول عمر الشجرة — وحده – يكفى لإقناع من لايريد أن يقتنع بأن النبات كائن لا عقل له " (الثرثرة ص ١٦٠). كما انعكس هذا الإحساس على تساؤلاته الوجودية الغريبة : " ترى ألون الوجود أحمر أو أنه أصفر ؟ " هل لحاء الشجرة كجلد ميت، ولكن متى رأيت جلد ميت ؟ " (الثرثرة ص ١٦٠).

وينبغى لنا أن نربط التساؤلات السابقة بقوله فى موضع آخر : " الداء الحقيقى هو الخوف من الحياة " (الثرثرة ص ٩٧). ويبدوالاستغراق الوصفى — أحياناً – أداة لبلورة فكرة ما يحملها تيار الوعى وهو دائما تيار وعى بطل الرواية أنيس ذكى؛ فالكاتب يستغرق فى وصف النار على هذا النحو : " حمل أنيس المجمرة إلى عتبة الشرفة، بعد أن زودها بقطع من فحم، تعرضت هناك لتيار الهواء، وراح ينتظر. اتسعت المراكز المحترقة فى شتى القطع حتى استحال سواد الفحم حمرة متوهجة هشة عميقة ناعمة. واندلعت عشرات من الألسنة الصغيرة المرسومة بالشفق، فانتشرت ثم تلاقت أجنحتها مكونة موجة راقصة نقية شفافة مكللة الأطراف بزرقة خيالية، ثم أزت فتطاير من جوفها سرب من عناقيد الشرر (الثرثرة ص ٥٠).

فهذه اللغة الوصفية الشاعرية ليست — فى الأساس — تلميحاً إلى كون المجمرة جزءاً من حياته، فذلك تبسيط للأمور. بل لأن النار هنا يمكن اعتبارها (المعادل الموضوعى) لشخصيته التى تتنازعها قوى الخير وقوى الدمار. وربما اتضحت هذه الفكرة بنظرته إلى النار — بعد الوصف السابق — على " أنها أجمل من الورد والأعشاب والفجر البنفسجى، فكيف أمكن أن تطوى بين جوانحها أكبر قوة مدمرة " (الثرثرة ص ٥٠). ولابد لنا من الانتباه إلى مسألة مهمة أخرى هى أن الكاتب قد واءم مواءمة فنية دقيقة بين التركيبة النفسية والثقافية

لشخصية بطل الرواية أنيس ذكى وبين المادة العلمية والمعطيات الإخبارية المقدمة عنه فى السرد، مما حقق للرواية تناغماً فنياً عجيباً بين اللغة المتحدث بها فى السرد والشخصية المتحدث عنها فيه. ومن الطريف الآن أن نضع أيدينا على هذه المواءمة ولو فى جانب واحد منها فأنيس شخصية مثقفة كما رأينا. وهو يحب قراءة التاريخ. وهنا يتلاعب الكاتب– فنياً– فى لغته السردية بإسقاطاته التاريخية ممثلة فى شخصيات أو أحداث على حاضره وما يشارك فيه من أحداث، وإن اتخذت تلك الإسقاطات تكنيك (المونولوج المباشر) أحياناً أو (المونولوج غير المباشر) أحياناً أخرى. والأمثلة على ذلك عديدة. وهى جميعاً ذات وظيفة واحدة، هى تعميق دراما الموقف الحاضر واللحظة الراهنة.

ونكتفى بمثال واحد. عندما يتحدث أنيس إلى ليلى زيدان صديقة أعوامه العشرة الماضية، فتغضب لحديثه. يتخلل الحوار هذه العبارات السردية : وغمغمت .. وغد، فقرأ فى وجهها نذيراً خفيفاً بالغضب، ولكنه لم يعثر بأثر للكراهية فآمن بأنها لا يقاس لهوها بامرأة مثل فكتوريا ملكة العصر المحافظ المشحون بالتقاليد (الثرثرة ص ٢٠).

وقد واءم نجيب محفوظ – من ناحية أخرى– بين الطابع الرمزى للرواية والطابع الشعرى للغة السردية. فمن أخص خصوصيات الدلالة الرمزية التكثيف، والإحالة، والغموض الفنى، والتكنية، وهى بعينها خصوصيات التعبير الشعرى. وتنطبق تلك الخصوصيات على كل من خطاب (سرد) الكتاب ولغة المونولوج الداخلى على لسان أنيس. ولعل من أهم العوامل التى ساعدت على صبغ لغة الرواية بهذه الصبغة الشعرية تداخل الأزمنة، وامتزاج الحلم بالرمز بالواقع، والارتكاز على لغة التداعيات برحابتها وثرائها واتساع إمكانياتها التعبيرية والتصويرية. ويمكننا أن نجعل هذا الصوغ الشعرى للغة الرواية شكلاً من أشكال (الأسلبة) فى مصطلح باختين. وهى تندرج ضمن (التهجين القصدى) الذى هو طريقة من طرائق إبداع صورة اللغة فى الرواية وفى الأسلبة نجد وعيين لغويين مفردين : وعى من يشخص (وعى المؤسلب)، ووعى من هو موضوع للتشخيص والأسلبة[1].

وإذا كان وعى المؤسلب عائد إلى الكاتب نفسه، فإن وعى من هو موضوع التشخيص والأسلبة فى النموذج الذى أسوقه الآن عائد إلى الشخصية المحورية فى الرواية : أنيس " كان يفكر فى الحلقات المفزعة التى تحاصره كل يوم كشروق الشمس وغروبها وبزوغ القمر وأفوله والحضور والانصراف من الوزارة والإقبال والإدبار فى الجلسة والصحو والنوم، تلك

(١) المرجع السابق، ص ٣٠.

الحلقات المذكرة بالنهاية، والتى تجعل من أى شىء لاشىء. وقد دار معها الآباء والأجداد. وتنتظر الأرض انتظاراً لا يعرف الجزع لتستمد من آمالنا ومسراتنا أسمدة لتربتها. فلا بأس أن تحتدم الأشواق فى سحابات الدخان المضمخ بشذا السحر المحرم الغامض " (الثرثرة ص ١٣١).

ولابد من الانتباه إلى أن النص السردى السابق ليس لمتكلم واحد هو الكاتب؛ فالجملة الأخيرة فيه ينبغى أن ترد إلى وعىآخر، لأنها من كلام واحد آخر، امتزجت فى شكل مستور (أى بدون إشارة واضحة لا نتمائها إلى " آخر " انتماءً مباشراً) بخطاب (سرد) الكاتب. ولا يفصل بين هذين القولين — وبالتالى — بين هذين الوعيين إلا السياق الروائى.

إن من آيات الحداثة فى هذه الرواية أن اللغة السردية لم تعد تكتفى فيها بدورها الكلاسيكى المحصور فى القص والحكاية ونثر الأحداث، بل تجاوزت ذلك كله ليصبح لها فى ذاتها قيمة دلالية كشفية خطيرة، بمعنى أنها صارت أداة لكشف ما يدور فى الحوار الخارجى (حوار الشخصيات) من أفكار وبلورتها، وبذلك قوى التفاعل وتبادل الأخذ والعطاء بين السرد والحوار.

وتتجلى هذه القيمة الدلالية الكشفية للسرد فى التعقيب على الحوار عادة بعبارة أو عبارات خاطفة دالة. ويصنع هذا التعقيب نوعاً من المقابلة الدلالية الحادة بين مضمون الحوار ومضمون العبارة المعقبة. وهى مقابلة تشى بتنازع وعيين فى الرواية تنازعاً قد يصل إلى درجة الضدية : فخالد عزوز وسمارة بهجت يتناقشان فى مشروع المسرحية التى تنوى سمارة كتابتها ويشير عليها خالد بأن تجعلها مسرحية هزلية أو مسرحية عبثية فوضوية تعبر عن عالم ماهيته الفوضى، ويختلفان فى الرأى، حتى تفاجئنا هذه الجملة السردية التى تقيم مع مضمون الحوار السابق عليها علاقة دلالية تكميلية كعلاقة الأبيض بالأسود : " لاشىء هنا يدور بيقين وهو يعرف هدفه إلا الجوزة ! ".

وعندما تقدم سناء خطيبها رءوف إلى رفاق العوامة تفاجأ بترحاب رسمى فاتر لانشغالهم (بالجوزة). ولذلك، فإن عبارة سردية مثل : " وتلقت التهانى من جميع الشلت " بإحلال كلمة (الشلت) محل كلمة أخرى كالحاضرين أوالمجلس ونحوهما، تكون قد وقعت موقعها الدقيق المناسب من الخطاب؛ لما تؤديه من معنى تصويرى هو استدارتهم كل بشلتته، وانصرافهم إلى (الجوزة). ومن تفاعل السردى والحوارى خلق (المفارقة) الساخرة، حين تبدو الجملة الحوارية — سياقياً — جزءاً من السرد. ومن ذلك النص التالى :

" وقبيل المغيب جاء عم عبده ليعد المجلس؛ فهنأ أنيس بالعيد لثالث أو لرابع مرة، وهو يظن أنه يهنئه لأول مرة. وسأله أنيس عما يعلم عن العيد، فأجاب الرجل بأنه اليوم الذى هاجر فيه النبى من الكفار ولعن الكفار، فقال أنيس : سوف يملأون هذا المجلس الذى تعده بعد قليل ! (الثرثرة ١٣٦).

ومن أهم الظواهر اللغوية التى ينبغى الالتفات إليها فى هذه الرواية ما يعرف باسم (جملة اللحن الرئيسى) وهى تلك الجملة او العبارة التى تلاحق القارىء وتتخلل مواقف متشابهة فى الرواية. وهى ذات قيمة درامية عالية، من حيث تعميق دلالتها الرمزية للسياق الروائى. ولا يفهم مرموز هذه الجمل إلا من خلال ذلك السياق، لأنها صادرة عنه وملتحمة به أشد التحام. فكلما أعد المجلس وحلا الحوار والنقاش، كانت هذه العبارة المجازية : " وها هو الظلام بدأ يتكلم " .. وكلما اشتد الحوار الداخلى فى نفس أنيس وأرهقه التركيز والتفكير كانت هذه العبارة كذلك : " فحول عينيه إلى الليل ".

وقد تبدو هذه الظاهرة فى صورة أخرى هى صورة الجملة السياقية الرابطة أى التى تتكرر فى عدة مواقف مختلفة بالتغيير فى بنيتها السطحية مع ثبات البنية العميقة. ومهمة الجملة الرابطة، الربط بين السياقات والمواقف وتصوير درجات التوتر النفسى. فالكاتب يسوقها — عادة — على لسان أنيس فى حواره الداخلى. ومن ذلك قوله بعد حوارية داخلية له : " وأين ذهبت الفكرة الطريفة التى اعتزمت طرحها للمناقشة عندما حملت إلى الشرفة المجمرة ؟! " (الثرثرة ص ٥١) وقوله : " ولكن ما الشىء الذى تود تذكره طيلة الجلسة دون جدوى ؟ " (الثرثرة ص ٥٦)، ثم قوله فى حوارية أخرى : " ألا تعلم بأننى على موعد مع فكرة مجردة ذات طابع جنسى ؟ " (الثرثرة ص٥٧)، حتى يسائل نفسه عن هذه الفكرة : " وتفشت حركة انهزام مستسلمة، فاستعد الجالسون للذهاب. حلت اللعنة التى تجعل لكل شىء نهاية. أهى هذه الفكرة التى استعصت طويلا على الذاكرة ؟ ولم يبق فى المجمرة إلا رماد " (الثرثرة ص ٥٩).

(٥) تكنيك تيار الوعى :

ويوشك تيار الوعى فى هذه الرواية أن يطغي على سرد الكاتب. هو دائماً تيار وعى أنيس. وقد أسند الكاتب إليه بطولة الرواية لهذا الغرض ذاته وهو ما يقدمه للرواية من تكنيكات مختلفة لتيار الوعي.

وهو يبدو مسطولاً في الرواية دائماً باستثناء الفصل الأول والأخير، وهما الفصلان اللذان يقل فيهما تيار الوعى، ليفسح المجال لسرد الكاتب، وإن بدت عليه أعراض التهويمات في المشهد الأخير من الرواية. ولتيار الوعى تكنيكات أربعة وهي :

١ – المونولوج الداخلي المباشر.

٢ – المونولوج الداخلي غير المباشر.

٣ – الوصف عن طريق المعلومات المستفيضة.

٤ – مناجاة النفس.

ويستخدم المونولوج الداخلي في الرواية أو القصة بغية تقديم المحتوى النفسي للشخصية. والفرق بين المونولوج الداخلي المباشر والمونولوج الداخلى غير المباشر هو استخدام ضمير المفرد المتكلم في إحداهما وضمير الغائب أو المخاطب في الآخر.

ويلاحظ أن المونولوج غير المباشر يعطي للقارئ إحساساً بحضور المؤلف المستمر، في حين يستغنى المونولوج المباشر عن هذا الحضور كلية أو على نحو واضح. وهذا الفرق يعنى بدوره فوارق أخرى خاصة، مثل استخدام وجهة نظر المفرد الغائب بدلاً من وجهة نظر المفرد المتكلم في المونولوج غير المباشر، ومثل استخدام الطرق الوصفية والتفسيرية على نحو واسع في تقديم ذلك المونولوج ويضاف إلى هذا إمكان تحقيق المزيد من الترابط والمزيد من الوحدة الشكلية في اختيار المواد المعالجة، وإمكان تحقيق الانسياب والإحساس بالواقعية في تصوير حالات الشعور في الوقت نفسه[١].

ولو نظرنا في ضوء الأفكار السابقة إلى (ثرثرة فوق النيل) للاحظنا ما يلي :

أولاً : استعانة الكاتب بالأشكال المختلفة لتكنيكات تيار الوعي في هذه الرواية.

ثانياً : أن أكثر صور هذه التكنيكات تأثيراً أو أقواها أثراً في بنية هذه الرواية هو المونولوج الداخلي غير المباشر.

ثالثاً : أن تغليب المنولوج غير المباشر على المباشر قد أعطى القارىء إحساساً بحضور المؤلف. ولكن هذا التغليب قد أفاد من ناحية أخرى؛ ذلك ان المنولوج الداخلى غير المباشر يتيح للمؤلف الواسع المعرفة – وهو ما يلاحظه القارىء بيسر فى هذه الرواية – ان يقدم مادة غير متكلم بها، ويقدمها كما لو كانت تأتى من وعى شخصية ما، هذا مع القيام بإرشاد القارىء طريقه وخلال تلك المادة. وذلك عن طريق التعليق والوصف[٢].

ويلاحظ أن نجيب محفوظ يمزج مزجاً فنياً عجيباً بين المنولوج الداخلى المباشر والمنولوج الداخلى غير المباشر، ويحد تدفق اللغة من انتباه القارىء إلى هذا المزج فلا يدرك إلا بقراءة

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك : تيار الوعى فى الرواية الحديثة، تأليف : روبرت همفرى، ترجمة دكتور محمود الربيعى، دار المعارف (١٩٧٤) ص ٤٤ ، ٥١ – ٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

متأنية. بعد أن عاد أنيس من النزهة الليلية مع رفاق العوامة، قض مضجعه هذا الحادث الذى ارتكبوه بالسيارة، وهو قتل انسان مجهول، فكانت هذه العبارات التى يمتزج فيها سرد الكتاب بخطاب أنيس، الذى يمتزج فيه – بالتالى – الداخلى المباشر بالداخلى غير المباشر بل بنجوى النفس كذلك :

" وتناهى إليه صوت عم عبده وهو يؤذن فقال إننى وحيد. وأنه يحسن به أن يدعو احداً أو أن ينضم إلى أحد. ولوح بذراعه لليل. وقال إن السر قد تبخر من رأسه، فهو مفيق. وضحك من غرابة الفكرة، لكنه مفيق. وهاهو ليل الفجر بلا صوت يتحدث، وليس للحوت من أثر. أين بقية الغبارة ؟ هل داستها سيارة ؟. والحاكم بأمر الله كان يقتل بلا حساب. ولما آمن بأنه إله حرم على الناس الملوخية. لماذا أذعنت للخروج معهم ؟ هكذا توجت قاتلا، القتل والسرعة الجنونية والهرب، والمناقشة المدببة وأخذ الأصوات فى ديمقراطية دامية وبعثت الزوجة والبنت ثم ماتتا من جديد. ولن ينام الليلة إلا الميتون. والصرخة التى هزئت من كمال الأفلاك. مجهول من مجهول إلى مجهول. متى يرحم العقل نفسه ويستسلم للنوم. وصعد الحاكم بأمر الله إلى قمة الجبل ليمارس أسراره العلوية. ولم يعد، حتى اليوم لم يعد، ولم يعثر له على أثر، وحتى الساعة لم يتوقف البحث عنه، لذلك أقول إنه حى، وقد رآه رجل أعمى ولكن لم يصدقه أحد، وغير بعيد أن يتجلى للمساطيل فى ليلة القدر. أما الإنسان المجهول فقد قتل كما قتل النوم (الثرثرة ص ١٥٧).

هنا يقوم المؤلف بعمل هذا الاستبطان الذى ينقل إلينا – بمهارة واقتدار بالغين – هواجس أنيس النفسية ووقع الحادث على عقله الباطن. وهنا تتواتر التداعيات من الماضى. وهى تداعيات – مع ما يبدو فيها من تداخل ولا معقولية مقصودين لغاية فنية – تدخل فى فلك هذا الحدث وتدور فى مداره. فالسيارة– مركز التداعيات – ترتبط فى تيار الوعى بفكرة مطاردة، وهى الموت.

ومن ثمة نعجب لهذه الصياغة الدقيقة فى عبارات مثل : وأين بقية الغبارة. هل داستها سيارة ؟ فهو – مع شوقه إلى الغبارة – مازال فى عقله الباطن ما يذكره بالموت : السيارة (ولاحظ دور السجع فى تعميق الإحساس بالتوتر والانهيار النفسى). وتقع المفارقة الحادة بين ممارسة الحاكم بأمر الله القتل وتحريم الملوخية موقعها من تيارالوعى. ولعل القاتل رجب القاضى سائق السيارة فى النزهة هو الصورة الحاضرة للحاكم بأمر الله. فلما شعر رجب بهول جريمته أراد الهرب، وحرم على رفاقه إبلاغ الشرطة كما حرم الحاكم بأمره على الناس الملوخية !!.

وتدخل عبارة مثل: " وبعثت الزوجة ... الخ " تحت نجوى النفس. وكانت زوجتة وابنته قد ماتتا فى شهر واحد كما قدمنا. ولاشك أن حادثة السيارة هى المنبه إلى تلك النجوى وباعثتها. ومع اشتداد وطأة تلك النجوى وإلحاحها على نفسه تقع عبارة مثل " متى يرحم العقل نفسه ويستسلم للنوم " موقعها من هذه التدعيات، فكم أرقه التذكر، حتى قتل النوم هذه الليلة كما قتل هذا المجهول فى ليلة مثلها !.

هكذا تمتزج تكنيكات تيار الوعى بعضها بالبعض الآخر، لتكشف عن لامعقولية التداعيات التى تكشف بدورها عن لامعقولية الواقع. ويتجلى لنا من كل ذلك قدرة تيار الوعى على تجميع الواقع بالحلم بالرمز فى دائرة واحدة، هى دائرة التداعيات الخاطفة التى تدور حول مركز واحد، هو هنا فكرة الموت. ويذكرنا هذا بوسائل تنظيم حركة تيار الوعى، ومن أهمها (المونتاج). ويشير المونتاج – بالمعنى السينمائى – إلى مجموعة الوسائل التى تستخدم لتوضح تداخل الافكار أو تداعيها، وذلك كالتوالى السريع للصور، أو وضع صورة فوق صورة، أو إحاطة صورة مركزية بصور أخرى تنتمى إليها. وهذه الطريقة هى – بالضرورة – طريقة لتوضيح المناظر المتآلفة أو المتنافرة فى الموضوع الواحد[1].

ولاشك أن الصورة المركزية فى التداعيات السابقة هى صورة الموت، وهى صورة مجردة أحاطها الكاتب بصور أخرى جزئية تنتمى إليها وتبرزها كصورة الزوجة والبنت والسيارة ...الخ.

وقد تغيب الصورة المركزية، ويتخذ المونتاج وسيلة أخرى هى التوالى السريع للصور. وهى صور متباينة توضح تداخل الأفكار وتداعيها وتباينها. وهى لذلك لا تأخذ صورة نجوى النفس المنظمة نسبياً، بل تأخذ صورة الهواجس والتهويمات التى تعكس تشتت الوعى وتوزع النفس. ويلاحظ ذلك – بوجه خاص – عندما لا تكون هناك علاقة معنوية واضحة بين الحوار الخارجى وحوار أنيس الداخلى الذى يعقبه. فبعد حديث طويل عن فكرة الزواج بين رفاق العوامة يكون هذا الحوار الداخلى لأنيس :

" لماذا لا أدفع بالمجمرة إلى الشرفة لأستمتع بمهرجان اللهب. إن توهجه خالد لا كتوهج النجوم الزائفة. ولكن المرأة كالغبار لا تعرف برائحتها الدسمة، ولكن عندما تستقر أنفاسها المحترقة فى الأعماق. وكليوباتره على كثرة غرامياتها لم يعرف سر قلبها. وحب المرأة كالفن الهادف، لاشك فى سمو هدفه ولكن تحوط بنزاهته الريب. ولاينتفع مخلوق بهذه

(١) المرجع السابق، ص ٧٤.

العوامة كالفئران والصراصير والأبراص. وليس كالحزن شيء يقتحم عليك المأوى بلا دعوة. وأمس قال لى الفجر عند طلوعه أنه فى الحقيقة لا اسم له " (الثرثرة ص١٣٩–١٤٠).

(٦) مزج الوعى باللاوعى :

ونحن نفتقد فيما سبق إلى الصورة المركزية التى يدور حولها تيار الوعى بتداعياته. فهى صور متباينة لا تلتقى فى مركز واحد، ولا نكاد نبين لها معنى، لأنها ليست تداعيات مباشرة على الحوار الخارجى السابق عليها. وإن كنا نلتقط مناسبة معنوية بعيدة بين مضمون الحوار الخارجى السابق وهذا الحوار الداخلى، لعلها عدم انشغال أنيس بمسألة كمسألة الزواج، فقد ضرب عن ذلك صفحاً. ومن هنا كان رد الفعل كامناً فى انشغاله عن حديث الرفاق بالمجمرة وتوهج النجوم والتفكير فيما يأتى الإنسان فجأة كالحزن، أو فى تلك المخلوقات العملية التى فاقتهم فى الانتفاع بهذه العوامة كالفئران والصراصير والأبراص بينما هم فى أحاديث الزواج يتجادلون !.

ومن الاستخدامات الطريفة التى تسمو بالقيمة الفنية لهذه الرواية هذا التكنيك الذى اصطنعه الكاتب وارتكز عليه ارتكازاً جوهرياً، وهو تغذية تيار الوعى وإثارته كثيراً بالمضمون الفكرى للحوار. ونقدم النموذج التالى توضيحاً لما نقول :

وقالت سناء لرجب :

– قم لنرقص

فأجابها بهدوء بغيض :

– لاتوجد موسيقى.

– طالما رقصنا بغير موسيقى.

– صبرك يا عزيزتى وإلا فلن تدور الجوزة.

يظن نفسه مركز الكون وأن الجوزة تدور من أجله. والحق أن الجوزة تدور لأن كل شيء يدور. ولو كانت الأفلاك تسير فى خط مستقيم لتغير نظام الغرزة. وليلة أمس اقتنعت تماماً بالخلود ولكنى نسيت الأسباب وأنا ذاهب للأرشيف " (ثرثرة ص ٧٩).

وضمير المتكلم فى الفقرة الأخيرة من النص يبين أن ما بعد الحوار ليس إلا جملاً من منتجات تيار الوعى. وتيار الوعى هنا امتداد فكرى – بطريقته الخاصة – للحوار الخارجى. ويمكننا أن نفهم من العبارات الثلاث الأولى فكرة فلسفية عميقة يبثها الكاتب فى تيار الوعى؛ وهى أن إرادة الإنسان جزء من نظام الكون أو هى محكومة بهذا النظام. أما العبارة

الأخيرة (وليلة أمس ..) فتصنع مقابلة عميقة بين اقتناع أنيس التام بفكرة الخلود فى الوقت نفسه الذى ينسى فيه أسباب هذا الأقتناع. ويحاول الكاتب من جانبه أن يربط تيار الوعى بالواقع فى الرواية بالجملة الحالية الأخيرة (وأنا ذاهب للأرشيف ..).

وتدهشنا هذه المهارة الفائقة من الكاتب فى التلاعب الفنى بتيار الوعى ممثلاً فى المزج العجيب بين لغة اليقظة والحلم أو بين الوعى واللاوعى لتخليق أفكار عميقة تنتقد الواقع وتكشف عن فساده، فسمارة بهجت تتهم مصطفى راشد بأنه يهرب بالمطلق من المسؤلية، ويجيبها مصطفى بسخرية بأن المسؤلية سبيل الكثيرين للهروب من المطلق، ويبدو ذلك لأنيس جدلاً عقيماً لا يؤدى إلى شيئ، ولذلك نراه يقول :

" البيضة والدجاجة. أما أنا فأكرس وأرص وأشعل النار وأدير الجوزة ثم أنصب من نفسى مستودعاً لخردة المهاترات .. والوقت ينقضى بسرعة مذهلة .. وعما قليل سيحل الخراب بالمجلس. والخيام الذى كان مدرسة أمسى فندقاً للملذات. وقد قال لى فى آخر لقاء لو كان امتد به العمر إلى أيامنا لاشترك فى أحد النوادى الرياضية " (الثرثرة ص ٩٦–٩٧).

ويقوم تيار الوعى هنا على ثلاثة أشياء هى : المقابلة السلوكية؛ أى مقابلة سلوك سمارة ومصطفى (الجدال والنقاش) بسلوك أنيس (التفرغ للجوزة والانصراف عما يراه هو — وهو المسطول — مهاترات !!)ثم المفارقة المعنوية فى عبارة (والخيام الذى كان مدرسة ..) ثم ظهور تيار الوعى فى صورة الحلم أو التوهم فى العبارة الأخيرة (وقد قال لى فى آخرلقاء..) التى تطيح بمنطق الواقع وتفجر سخرية مرة من مقابلة صورة للواقع بالصورة المتخيلة فى الحلم.

وصورة الخيام من الصور التى تطارد أنيس كثيراً. يقول الكاتب :

" واختفى الحاضرون، فلبث وحده مع الليل المظلم. ورأى فارساً يركض. جواده فى الهواء قريباً من سطح الماء، فسأله عن هويته، فقال : إنه الخيام وقد نجح فى الهروب من الموت " (الثرثرة ص ١١٨).

وربما كان مبرر هذا الحلم اجتماعهما فى السهر وسهاد العاشقين بلا عشق. ويذكرنا استحضار شخصيات تاريخية فى الحلم بمسألة مهمة للغاية، هى قيمة المونتاج بوصفه وسيلة من وسائل تنظيم حركة تيار الوعى فى التعبير عن الامتداد اللانهائى للحظة بل للمكان كذلك. إن وسيلة المونتاج من أهم الوسائل التى تتيح للكاتب توسيع الفضاء الزمانى والمكانى للرواية فإذا كان الزمان التاريخى فى هذه الرواية هو " أبريل، شهر الغبار والأكاذيب "

(الثرثرة ص٥)، فإن الزمان الروائى فيها – بفعل تيار الوعى – زمان ممتد فى الماضى والحاضر والمستقبل.

وأود أن أسوق مثالاً يبدو فيه المزج بين الأزمنة من ناحية، كما تبدو فيه من ناحية أخرى ظاهرة الالتحام والتفاعل بين الحوار الخارجى والحوار الداخلى، يقول على السيد مخاطباً سمارة بهجت :

– لا تصدقى كلام مصطفى حرفياً. لسنا أنانيين بالدرجة التى صورها، ولكننا نرى أن السفينة تسير دون حاجة إلى رأينا أو معونتنا، وأن التفكير بعد ذلك لن يجدى شيئا وربما جر وراءه الكدر وضغط الدم.

ضغط الدم. كالصنف المغشوش. وطالب الطب يمرض بالوهم أول عهده بالمدرسة. والمدير العام نفسه ليس أسوأ من المشرحة. أول يوم فى المشرحة كأول تجربة للموت فى أعز ما ملكت. وهذه الزائرة مثيرة من قبل أن تتكلم. جميلة ورائحتها حلوة. والليل أكذوبة بما هو نهار سلبى. وعندما يطلع الفجر تخرس الألسنة. ولكن ما الشيئ الذى تود تذكره طيلة الجلسة دون جدوى؟! " (الثرثرة ص ٥٦).

فهنا يلتحم الحوار الداخلى بالخارجى ممثلاً فى التقاط عبارة (ضغط الدم)، والعزف عليها من ناحية، كما تتداخل الأزمنة بتداخل التداعيات حول المدرسة والطب والمدير العام، ثم أول يوم فى المشرحة، ثم هذه الزائرة المثيرة .. إلخ، حتى نصل إلى السؤال المفتوح فى الزمن المستقبل.

ثمة مسألة أخيرة هى احتشاد الرموز اللغوية فى لغة تيار الوعى. وهى رموز تجسد تيار الوعى كالهواجس تارة أو كالهذيان تارة ثانية أو كالكابوس تارة ثالثة. وفى كل هذه الصور تصبح تلك الرموز وسيلة لغاية واحدة هى التحذير من الهلاك.

وقد استغل الكاتب كون مسرح أحداث روايته فوق صفحة النيل فى جعل رمزه الأساسى هو (الحوت) الذى يطارد تيار الوعى كثيراً. وهو رمز للخوف الدفين فى النفس الإنسانية من النهاية والموت.

وهو خوف يهدد الإنسان، فيدعوه إلى الهروب إلى ما يلهيه عن أن يحيا حياته، هكذا يمكننا أن نفهم مغزى هذا الرمز فى الرواية من قول أنيس مخاطباً على السيد (ويعنى بكلامه سمارة بهجت) :

– هل أخبرتها بأن الذى يجمعنا ها هنا هو الحوت ؟ (الثرثرة ص ٤٦) (ولاحظ تأكيد " هاهنا " للمكان : العوامة رمز الهرب إلى الملذات والمخدرات).

(٧) الحوار الخارجى :

من الطريف أن نبدأ كلامنا عن الحوار الخارجى فى هذه الرواية بما يؤكد الفكرة السابقة. ففى الحوارية التالية، تتجلى قيمة الحوار فى الكشف عن هموم الشخصية ونوازعها ومكنوناتها. وليكن مثالنا هذا الحوار عن فكرة الهروب :

يحدث أنيس رفاقه عن أنهم هاربون من خوائهم فى الإدمان والجنس، فيتساءل مصطفى راشد :

– أنحن حقا كما وصفنا ولى الأمر.

فقال خالد عزوز :

– لاهروب ولا خلافه. ولكننا نفهم حقيقتنا كما ينبغى لنا.

وقال على السيد :

– عوامتنا هى الملاذ الأخير للحكمة البشرية.

– هل الاستغراق فى الأحلام هروب؟

– أحلام اليوم هى حقائق الغد.

– هل التطلع إلى المطلق هروب ؟

– أف..وهل علينا من عمل سواه.

– هل الجنس هروب ؟

– أخص، إنه الخلق نفسه.

– وهل الجوزة هروب ؟

– هروب من البوليس إذا شئت.

– أهى هروب من الحياة ؟

– إنها الحياة نفسها. (الثرثرة ص ١١٨–١١٩).

إن انتماء شخصيات الرواية – باستثناء عم عبده – إلى نمط الشخصية المثقفة التى تتقن الحوار والجدل، قد أعفى الكاتب كثيراً من مغبة التباين بين نمط الشخصية ومستوى الحوار؛ فشخصياته قادرة على الحوار المراوغ، واستخدام الكنايات، والتوريات، والمشترك اللفظى. تقول سمارة بهجت لأنيس :

– على أى حال، أنت ألطفهم جميعاً.

– أنا !..

– لايخرج من فمك سوء.

– وذلك أننى أخرس.

obeikandl.com

– ويجمع بيننا شيء واحد.

– ما هو ؟.

– الوحدة.

– المسطول لا يعرف الوحدة.

– لماذا لا تغازلنى ؟.

– المسطول الحق يتمتع باكتفاء ذاتى ! (الثرثرة ص ٨٦).

وهو يعنى بالاكتفاء الذاتى هنا انصرافه الكامل إلى الجوزة. وكم كان الكاتب بارعاً فى أداء معنى هذى بعبارة محكمة جادة البناء وكأنها حكمة فيلسوف !.

وعندما يلوم أحمد نصر زميله رجب القاضى على خشونته مع الفتاة الصغيرة سناء الرشيدى وأنه كان قاسياً معها أكثر مما يجوز ولم يراع حداثة سنها، يرد عليه رجب :

– لايمكن أن أكون عاشقاً ومربياً فى وقت واحد.

– لكنها صغيرة !.

– لست أول فنان فى حياتها ! (الثرثرة ص ٩٠).

وعندما يسأل أنيس ليلى زيدان :

– لم لا تتخذين منى رفيقاً ؟

فإنها تجيبه بهذه العبارة التى تومىء إلى المعنى ولاتصرح به :

– إنك إذا استعملت الحب يوما كمبتدأ فى جملة مفيدة، فستنسى حتماً الخبر إلى الأبد!. (الثرثرة ص ٢٠).

وهى عبارة – مع وضوح الصنعة فيها – نراها مقبولة من شخصية مثل ليلى زيدان التى كانت مهنتها الترجمة !.

وعندما تحار سمارة بهجت فى أمرها بعد حادث السيارة، فإنها تعبر عن مشاعرها فى حوار مع خالد عزوز، ولا يخلو من فذلكة :

– إنى صائرة إلى موت محقق !

فقال خالد عزوز :

– كلنا صائرون إلى الموت.

– إنما أعنى موتاً أفظع.

– ليس ثمة ما هو أفظع من الموت.

– ثمة موت يدركك وأنت حى (الثرثرة ص ١٧٢).

وفى إحدى الجلسات بالعوامة يتخيل أنيس تخيلات غريبة. يتخيل الحوت وهو يغمز له بعينيه، ويقول : أنا الحوت الذى نجى يونس. ثم تراجع واختفى. وعند ذلك يضحك أنيس، فتسأله ليلى زيدان عما يضحكه، حتى نقرأ هذه الحوارية البارعة التى تنقل جو المجلس وترصد تشعبات رفاق العوامة الذهنية والنفسية وتدل على شواغلهم. يجيب أنيس :

– خيالات غريبة.

– ومالنا نحن لا نرى شيئاً ؟

فأجاب وهو لا يكف عن العمل :

– ذلك أن الأمر كما قال الشيخ الكبير " إن المتلفت لا يصل ".

وانهالت التعليقات بلا ضابط.

– لا شيخ لنا يا دجال.

– ولا يوجد متر مربع فى الأرض بمنجاة من الزلازل.

– وهو لا يخلو كذلك من الرقص والغناء..

– إذا أردت أن تضحك من القلب حقاً، فانظر إلى الأرض من فوق.

– يا بخت الذين مستقرهم فوق..

– ولكن بصدور اللائحة المالية الجديدة سيهدأ كل بال.

– هل تطبق اللائحة على الحيوان ؟

– روعى فيها أن تطبق على الحيوان أولاً..

– وها هو القمر ينتظر المهاجرين.

– وأخشى ما أخشاه أن يضيق الله بنا..

– كما ضاق كل شىء بكل شىء.

– وكما يضيق بعشيقاته.

– وكما يضيق الضيق بالضيق.

– والحل. ألا يوجد حل ؟

– بلى، علينا أن نتماسك حتى نغير وجه الأرض أو نبقى فيما نحن فيه وهو خير وأبقى!.. (الثرثرة ص ٢٦–٢٧).

فالانتقالات السريعة من الموت إلى الزلازل إلى الرقص والغناء إلى النظر إلى الأرض من فوق إلى اللائحة المالية ... إلخ. إنما هى انعكاس لتداخل الهموم والشواغل، وقد بدا فى ثوبه اللغوى المناسب، وهو الثرثرة.

وبالرغم من مهارة نجيب محفوظ وحنكته وخبرته بإدارة الحوار وحسن توظيفه فى خدمة البنية الروائية، فإن الحوار فى هذه الرواية لم يخل من بعض الهنات التى لا تقلل فى

الواقع من جماله وحيويته. ولعلنا لاحظنا فى الحوارات السابقة ثقل عبارة مثل (يا بخت الذين مستقرهم فوق). كما يمكننا أن نلاحظ مثل هذا الثقل فى قول رجب القاضى :

– أجيبونى ! .. أعدكم بأن أصدع بما تأمرون (الثرثرة ص ١٥٣).

لاسيما إذا أدركنا أن هذه العبارة تصدر منه، وسط غضبه وحيرته مع رفاقه بعد حادث السيارة، ماذا يفعلون. فطبيعة الأمور تقتضى ألا تصدر من شخص مثل رجب (وهو أكثر رفاقه تسيباً وفوضوية) مثل هذه العبارة المحكمة وفى مقام الضيق بخاصة. كذلك يبدو هذا الثقل فى افتعال تراكيب فصيحة إذا قبلت من أنيس مع رفاقه فلن تقبل منه فى حواره مع عم عبده، وقد سأله أنيس :

– أليس لك من أقارب فى القاهرة (الثرثرة ص ١٣).

(٨) المفارقة :

والمفارقة لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين : صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفى، وذلك لصالح المعنى الذى غالباً ما يكون المعنى الضد، وهو فى أثناء ذلك يجعل اللغة ترتطم بعضها ببعض، بحيث لا يهدأ للقارىء بال إلا بعد أن يصل إلى المعنى الذى يرتضيه ليستقر عنده[1].

ويلاحظ أن الوصول إلى إدراك المفارقة لا يتم إلا من خلال إدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلى للنص.

وكثيراً ما اعتمد نجيب محفوظ – فى صناعة المفارقة – على التعارض والتناقض سواء أكان ذلك داخل السرد أم الحوار الخارجى أم الحوار الداخلى أم بين الحوار الخارجى والحوار الداخلى. ولذلك يمكن أن نعد تكنيك المفارقة – فضلاً عن قيمته البلاغية – وسيلة فنيه مهمة من وسائل الربط بين السردى والحوارى وتوجيه البنية الروائية الوجهة التى يريدها لها الكاتب.

أما المفارقة فى السرد، فيقول الكاتب : قد أعددت الجلسة بكل ما يلزمها.

وها هو عم عبده يؤذن لصلاة المغرب (الثرثرة ص ٨٩). وأحسب أن أذان المغرب ليس حيلة لبيان زمن التحدث أساساً، بل إنه يصنع مع الجلسة التى أعدت (بكل لوازمها) مفارقة تمهد للسياق.

ويناجى أنيس نفسه بعد محاورة له مع سمارة بهجت قائلاً :

" إنها تستدرجك لتقول لك عند الجد " لست بغية ". هى تذكرنى بشىء لا أتذكره. من الجائز أن تكون كليوباتره أو المراة التى تبيع المعسل بدرب الجماميز (الثرثرة ص ٥٧).

---

(١) دكتورة نبيلة إبراهيم : المفارقة ، مجلة (فصول)، المجلد السابع، العددان ٣ ، ٤ ابريل – سبتمبر (١٩٨٧) ص ١٣٢.

وإذا كان لابد من ضحية فى المفارقة، فالضحية هنا هى سمارة بهجت.

وتعتمد صنعة المفارقة هنا على التقابل والتعارض بين أن تذكره سمارة بكليوباتره أو أن تذكره فى الوقت نفسه بالمرأة التى تبيع المعسل فى درب الجماميز !!.

وقد تكون المفارقة سلاحاً للهجوم الساخر. ويبدو ذلك فى الحوارية التالية بين أنيس وعم عبده. ويبدأ أنيس الحوار :

– متى عشقت امرأة لآخر مرة ؟.

– أووه.

– وبعد العشق، ألم تجد شيئا يسرك ؟..

– قرة عينى فى الصلاة ..

– جميل صوتك وأنت تؤذن.

ثم بنبرة مرحة :

– وليست دون ذلك جمالاً حين تذهب لتجىء بالكيف أو تغيب لتعود بفتاة من فتيات الليل، (الثرثرة ص ١٤–١٥). والهجوم فى المفارقة على نحو ما نرى هنا ليس هجوماً سافراً كما يحدث فى كل من السخرية والنكتة، بل هناك دائماً موضوع يحتاج إلى التأمل والرثاء الممتزج بالضحك. وهو هنا هذه الانفصامية فى شخصية عم عبده الذى يؤذن للصلاة ويقود إلى (الشلة) فتيات الليل فى الوقت نفسه !.

وقد تبدو المفارقة فى صورة أخرى، فتأخذ صورة المفارقات اللفظية لا الموقفية. ومن ذلك هذه العبارة التى يقصد بها رجب القاضى نفسه بعد أن استشعر غضب سناء لكلامه : ليس على المسطول حرج (الثرثرة ص ٧٦). وربما أدارت المفارقة ظهرها لعالمنا الواقعى — كما تقول دكتورة نبيلة ابراهيم — وقلبته رأساً على عقب[1].

فرفاق أنيس يشغلون أنفسهم بأزمة كوبا والاشتراكية ومشكلات العمال. فى غمرة تساؤلاتهم يرى أنيس أن كل ذلك يستقر فى جوف الجوزة ثم يتبخر دخاناً، كالملوخية التى طبخها عم عبده (الثرثرة ص ٦٥–٦٦).

هكذا لعبت اللغة دور البطولة فى هذه الرواية، فسمت بأدبية النثر الروائى التى تتعاون مع تقنياته الفنية الخاصة. ولذلك، فإن المتعة الحقيقة التى تحصل بقراءة هذه الرواية قراءة واعية إنما مرجعها إلى توظيف اللغة باعتبارها أداة الإبداع الأدبى الأولى.

*** *** ***

(١) المرجع السابق، ص ١٣٢.

حوار الحكيم وتجربة اللغة الثالثة

فى الخطاب القصصى والروائى تتوزع اللغة – بشكل أو بآخر– على مستويين تعبيريين: (أولهما) المستوى السردى الذى يتحرك فنياً فى مساحات مكانية وزمانية، تشغلها أحداث ومواقف، تصدر عن شخوص العمل الفنى، معبرة عن رؤى المبدع ومضامينه الفكرية والأيديولوجية الشاغلة. والمستوى الآخر : هو لغة الحوار التى تبدو فى قوالب حوارية متباينة لغوياً، باعتبار التباين الثقافى والبيئى والاجتماعى بين الشخوص المتحاورة، ومتباينة فنياً، باعتبار قيامها على (المونولوج الخارجى) أو (المونولوج الداخلى)، وعلى التصارع أو التجادل أو التلاقى أوغير ذلك.

أما الخطاب المسرحى، فإن المبدع لا يملك وسيلة للتعبير عن رؤاه وأفكاره إلا الحوار. فالحوار وحده هو المادة اللغوية التى يشكل منها الكاتب بنية عمله المسرحى. هو الأداة الوحيدة التى يشغل بها مساحات عمله المكانية والزمانية بالأحداث والمواقف. وهو مفتاح الشخصيات وراسم حدودها. وهو الخط الذى تبدو عليه منحنيات الصراع بين تلك الشخصيات صعوداً وهبوطاً. من أجل كل ذلك اقتضت طبيعة العمل المسرحى، أن يكون الحوار الدرامى فيه ذات بنية مركبة، وأن تكون وظيفته مزدوجة : فهو يؤدى – بصورة ضمنية – وظيفة السرد فى الخطاب القصصى والروائى بكل أبعاده وتفاصيله، فضلاً عن وظيفته التقليدية فى التواصل بين الشخصيات. من هنا يقتضى الحوار الدرامى – لكى يؤدى هذه الوظيفة – ألا يغفل الكاتب عن حقيقة جوهرية هى أن كل أحداث المسرحية من حبكة وأحداث ومواقف وطبائع إنسانية متباينة لا تبدو إلا من خلال الحوار. " وإذا كان الحوار هو الذى يرسم الحوادث ويلون المواقف ويعتمد عليه فى تكوين الشخصية والوصول إلى دخائل النفوس، فهو كذلك الذى يعمل على خلق الجو العام الذى يسود المسرحية"[1].

فى ضوء ذلك، يصبح الحوار الدرامى عملاً إبداعياً صعباً. ويصبح لكل كلمة فى هذا الحوار حساب خاص، من حيث مدى ارتباطها بالنسق المألوف لكلام شخصية من الشخصيات، ومن حيث إنمائها لعنصر الصراع الدرامى والعلاقات بين الشخصيات، ومن حيث قدرتها على التمييز بين تلك الشخصيات : نفسياً وذهنياً وثقافياً واجتماعياً، بل من حيث قدرتها على التمييز بين الحالات النفسية المختلفة للشخصية الواحدة، وما قد يطرأ عليها من تحولات فى الرأى والسلوك مع تطور القضية التى يعالجها النص.

---

(١) دكتور محمد زكي العشماوى : فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، دار النهضة العربية (١٩٨١) ص١٣٩.

وإذا كان الأمر كذلك فماذا عن حوار الحكيم ؟

إن دراسة لغة الحوار المسرحى عند توفيق الحكيم، ليست شيئاً ملحاً على مجال البحث فى لغة الأدب لدوره الطليعى فى مجال الإبداع الأدبى فحسب، بل لدوره القيادى فى مجال التنظير للأدب كذلك. فلاشك أن من أخطر القضايا التى أثارتها حركة التأليف المسرحى فى أدبنا الحديث هو ما أثاره توفيق الحكيم عن نظريته في (اللغة الثالثة)، التي كانت رد فعل نظرى وتطبيقي لإشكالية الفصحى والعامية في الحوار القصصى والدرامي.

(١) حوار الحكيم وبداية التجربة :

كتب توفيق الحكيم – غير مرة – عن نظريته في (اللغة الثالثة) وحاجة التعبير المسرحي إليها. ولم تشغله هذه النظرية مع بدايات إنتاجه المسرحي، وإنما بدأ ذلك بعد أن خاض تجارب عديدة في كتابة المسرحية ذات المضمون التاريخي والأسطوري، فيما عرف عنده بـ (المسرح الذهني) مثل (أهل الكهف– ١٩٣٣) و (شهرزاد – ١٩٣٤) و (بيجماليون – ١٩٤٢) و (سليمان الحكيم – ١٩٤٣) و (الملك أوديب – ١٩٤٩). وهي جميعاً مسرحيات جرى الحوار فيها بالعربية الفصحى التي تتناسب مع ما تحمله هذه المسرحيات من مضامين فكرية جادة : واقعية أو رمزية من ناحية، كما تتناسب مع مقتضيات لغة الحوار من تدفق وتراوح بين طول الجملة المسرحية وقصرها وسرعة إيقاع الكلام أو بطئه، تبعاً لمقتضيات (المقام) من ناحية أخري. ولنأخذ مثالاً علي ذلك هذا المقطع الحواري من أولي مسرحياته المعروفة (أهل الكهف – ٨٥) بين الأميرة (بريسكا) ومؤدبها (غالياس) :

الأميرة : (متسائلة) أين مؤدبي غالياس ؟ لم أره هذا النهار. (يبدو المؤدب غالياس مقبلاً علي عجل وهو شيخ طاعن في السن أبيض الشعر. وتنصرف عندئذ الوصائف وتبقي الأميرة ومؤدبها).

غالياس : (وهو يلهث) ها أنذا أيتها الأميرة !

الأميرة : عجباً ! مالك تلهث والعرق يتصبب من جبينك !

غالياس : كنت بالمدينة يا مولاتى، ولو لم أذكرك الساعة لما جئت ركضاً.

الأميرة : ماذا بالمدينة ؟ أبى كذلك كان يطلبك الساعة فى اهتمام غريب.

غالياس : (يتحرك بسرعة) الملك يطلبنى ؟

الأميرة : (مستوقفة) انتظر ! أترى ما بيدى ؟ كتاب الأحلام. إنى رأيت الليلة حلماً عجبياً يا غالياس !

غالياس : خيراً يا مولاتى ؟

الأميرة : رأيت كأنى دفنت حية.

غالياس: (مفكراً لحظة) يا إلهى! أيمكن أن يكون لهذا صلة بما شاع اليوم فى المدينة؟

الأميرة : ماذا شاع بالمدينة ؟

غالياس : أن كنزاً من عهد دقيانوس مدفون فى كهف بوادى الرقيم.

الأميرة : (مستذكرة) دقيانوس ؟!

غالياس : نعم دقيانوس صاحب عصر الشهداء. ألم أحدثك بخبره فيما حدثتك من قديم التواريخ ؟

الأميرة : أليس هو أب تلك الأميرة التى تسميت باسمها ؟

غالياس : ها أنت ذى قد تذكرت يا مولاتى. نعم هى ابنته .. تلك الأميرة القديسة التى تنبأ لك العراف ساعة ميلادك بأنك ستشبهينها خلقاً وإيماناً.

الأميرة : أو ترى هذا العراف قد صدق ؟ أو ترانى أشبهها حقيقة ؟ إنى لا أكاد أعرف شيئاً ياغالياس. وأنت لا تريد أن تطلعنى على تاريخها. ما أقساك ! إنك لا تحس مبلغ رغبتى فى معرفة تلك التى يزعمون أنى أشبهها .. !

ففى هذا المشهد القصير تتجلى – بحق– سمات اللغة المنطوقة التصويرية فى غير افتعال ولا مماطلة أو تدخل من الكاتب وبالرغم من الاحتفاظ بتركيب الجملة العربية التى بدت على لسان الأميرة وغالياس مرتبطة بشخصية كل منهما وطريقته فى مخاطبة الآخر. وتعتمد هذه اللغة كثيراً على استبدال أدوات الاستفهام بالتنغيم Intonation والتعقيب على الاستفهام بتقرير، على نحو ما فى كلام الأميرة فى أكثر من موضع. فضلاً عن التلوين فى الأداء Tempo كقول الأميرة – مستذكرة – (دقيانوس ؟) أو قول غالياس (الملك يطلبنى؟).

كذلك، فإن مشكلة لغة الحوار لم تشغل الحكيم فى مسرحياته الفكرية والخيالية والتجريبية مثل (شمس النهار– ١٩٦٥) و (مصير صرصار – ١٩٦٦) و (ياطالع الشجرة – ١٩٦٢). فقد كتبت هذه المسرحيات بالفصحى أيضاً، وإن تفاوتت مستوياتها وخصائصها من مسرحية إلى أخرى، بل فى المسرحية الواحدة كذلك.

ففى مسرحية (شمس النهار) يتفق السلطان والوزير على خطة معينة تختار بها ابنة السلطان (شمس) خطيبها، وهى أن يمر الناس كلهم تحت شباكها وهى تختار من بينهم دون تمييز، مع تحفظ بسيط هو أن تسمح لها (شمس) بإجراء فرز مبدئى حتى يستبعد كل من ليس جديراً بها. وعن هذه الفكرة يدير الحكيم الحوار التالى :

شمس : المهم تنفيذ الشرط وبكل دقة.

الوزير : سينفذ .. سينفذ .. وبكل دقة .. فقط .. مسألة دعوة جميع الأهالى ..

شمس : هذا لابد منه.

الوزير : طبعاً .. طبعاً .. هذا لابد منه .. فقط . منعاً من مجئ كل من هب ودب ..

شمس : ما هذا الذى تقول أيها الوزير .. إنى أريد بالفعل مجئ كل من هب ودب ..

الوزير : مفهوم .. مفهوم .. فقط تجنباً للزحام تحت الشباك ..

شمس : وما الذى يضايقك أنت من الزحام ؟! ..

الوزير : لا .. لاشئ يضايقنى أنا بالذات .. فقط ..

شمس : فقط ماذا ؟! .. ما الذى تريد أن تصل إليه بالضبط ؟

الوزير : لا .. لا أريد الإخلال بالشرط .. فقط ..

شمس : مادام هذا هو القصد، فلا داعى إلى الكلام إذن ..

الوزير : طبعاُ لا داعى مطلقاً .. فقط ..

شمس : كفاية كلمة فقط، ادخل فى الموضوع، أرجوك ! إذا كان عندك كلام[1].

فالحوار هنا يجرى دون عقبات تحد انطلاقه، ويعمد فيه الكاتب بذكاء إلى محاكاة اللغة المنطوقة التى تتسم أحياناً بالبتر، والقطع، والترجيع للإفهام، والتأكيد، والعفوية. ويفيد الكاتب من ناحية أخرى من التراكيب اللغوية الدارجة مثل (من هب ودب) و(ادخل فى الموضوع) التى لا تخرج عن قواعد الفصحى ونسيجها اللغوى، أو بناء الجملة على وحدات نظيرتها فى العامية مثل (ما الذى تريد أن تصل إليه بالضبط ؟). وهذه السمات تخالف بين مسرحيات الحكيم، على نحو ما نجد هنا مقارنة بلغة مسرحية أخرى مثل (أهل الكهف) التى اقتطعنا منها مثالاً منذ قليل.

وفى مسرحية (ياطالع الشجرة) يبدو الحوار مصطبغاً بصبغة المضمون وأسلوب التناول المسرحى. فلما كانت هذه المسرحية — كما يقول الحكيم[2]— قد خرجت قصداً عن الواقعية، فقد سقط المبرر لاستخدام اللغة الواقعية لأشخاصها، وأصبح من الملائم لحوادثها غير الواقعية لغة غير واقعية أيضاً : أى غير عامية، وبذلك يبتعد التعبير والتصوير عن الواقع على قدر الإمكان، سواء فى الشخصية أو اللغة. والحق أن هذه المسرحية غير واقعية اللغة، ليس فقط

(١) شمس النهار، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز — مصر القاهرة — ط٧ — (١٩٨٥) ص١٧ — ١٨.

(٢) يا طالع الشجرة، مكتبة الآداب ومطبعتها، ط (١٩٨٥) ص٢٧.

obeikandi.com

لأنها مكتوبة بغير العامية، بل لأن اللغة التى كتبت بها مشحونة بالتوتر وتشعب الحوار فى طرق كثيراً ما لا تتلاقى على غير المألوف، بل تمتلىء بالردود المفاجئة غير المتوقعة أو غير الواقعية، فيما يشبه أحياناً (المحاورة) فى نطقها (بكسر الميم) بمعناها فى العامية[1].

والحق أنه يبدو لى أن نوع اللغة فى هذه المسرحية لا علاقة له باللامعقولية أو اللامنطقية فلو استبدلت بالعامية لأمكنها أداء هذه الوظيفة، ولكانت لغة غير واقعية كذلك. ذلك أن سمة اللامنطقية ليست نابعة من البنية الداخلية للغة ذاتها، ولكنها نابعة من تعبير لغة منطقية التركيب عن أفكار ومضامين غير منطقية ولنقرأ هذا المقطع الحوارى مثالاً على ذلك:

المحقق : متى اختفت سيدتك بالضبط.

الخادمة : ساعة عودة السحلية إلى جحرها ..

المحقق : تقصدين المغرب ؟

الخادمة : لم أبصر الشمس تغرب ..

المحقق : ومتى تعود السحلية إلى جحرها ؟

الخادمة : عندما يظهر سيدى من تحت الشجرة ..

المحقق : ومتى يظهر سيدك من تحت الشجرة ؟

الخادمة : عندما تنادى عليه سيدتى.

المحقق : ومتى تنادى عليه سيدتك ؟

الخادمة : عندما يرطب الجو فى الجنينة ..

المحقق : ومتى يرطب الجو فى الجنينة ؟

الخادمة : عندما تقول له سيدتى ذلك.

المحقق : ومتى تقول له سيدتك ذلك ؟ [2].

أما مسرحية — (مصير صرصار)، فإن مستوى لغة الحوار بين الملك والملكة والوزير فى الفصل الأول أعلى منه بين عادل وسامية فى الفصلين : الثانى والثالث؛ إذ تبدو الجملة المسرحية فى الفصل الأول محكمة مكثفة بعيدة عن تلقائية لغة التخاطب اليومية ولاتشى بفروق ظاهرة بين شخصية وأخرى. ويتفق ذلك مع شخصيات هذا الفصل التى لاتتحاور فيما بينها على الحقيقة، وإنما على ما يريد لها الكاتب أن تتحاور. أما الجملة المسرحية فى

(١) انظر في خصوصيات الحوار في هذه المسرحية وارتباطه بأسلوب بنائها الفني : دكتور عز الدين إسماعيل: روح العصر : دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة، دار الرائد العربي — بيروت — لبنان، ط١ (١٩٧٢) ص٢٧٦ وما بعدها.

(٢) يا طالع الشجرة، ص٤٥ — ٤٧.

obeikandl.com

الفصلين الآخرين، فإنها– مع تلك الشخصيات الواقعية – تتخفف من رصانتها وتراكيبها الكلاسيكية، لتصبح طيعة للحوار العفوى الحى الذى يتغذى كثيراً من مفردات العامية وقوالبها من ناحية، كما تعكس اختلافاً بين شخصية وأخرى من ناحية أخرى. وقد كانت هذه المناسبة بين مستوى لغة الحوار والشخصية أمراً فنياً ضرورياً.

من كل ما سبق يبدو لنا أن اللغة الثالثة قد شغلت توفيق الحكيم فى فترة متأخرة نسبياً من تاريخه الفنى وبعد تجربة (مسرح المجتمع – ١٩٥٠) التى جمعت بين الكتابة بالفصحى والعامية، وكأنه قد استشعر بعد هذه التجربة أن المسرحية ذات الفصل الواحد، إذا كانت قد قبلت العامية، فإن العامية فيها يمكن أن ترقى فى المسرحية المطولة المكتوبة من عدة فصول، وأن هذه العامية (المرقاة) تنأى بالمسرحية عن المحلية، وتضمن لها انتشاراً عربياً أوسع وعمراً أدبياً أطول.

(٢) نظرية اللغة الثالثة :

لقد ألف المسرح فى هذه الفترة أن تكتب مثل هذه المسرحيات الاجتماعية التى تعالج مشكلات يومية محلية بلغة عامية : ألفاظاً وتراكيب. وينحصر تصرف الكاتب فى هذه اللغة فى جعلها مناسبة لمقتضيات الحوار الدرامى وسماته. ولا يعنى ذلك أن مسألة اللغة فى المسرحية الاجتماعية كانت قد حسمت على هذا النحو، فقد ثار جدل طويل بين الكتاب والنقاد، وانتصر بعضهم للفصحى وآخرون للعامية. ولم يسهم اللغويون فى هذه القضية بما كان ينبغى لهم من تنظير علمى لا يتجاهل مقتضيات التعبير الفنى المسرحى فى الوقت نفسه.

من هنا اكتسبت (اللغة الثالثة) عند الحكيم أهميتها على مستوى التنظير والممارسة فى آن معاً. ففى البيان الذى نشره الحكيم بمسرحية (الصفقة ١٩٦٥) اعتبر هذه المسرحية ذاتها بمثابة حقل تجارب؛ لإيجاد حل لمشكلات طالما اعترضت الكتاب فى العمل المسرحى، وكانت أولاها مشكلة اللغة. يقول الحكيم :

" كانت ولم تزل، مسألة اللغة التى يجب استخدامها فى المسرحية المحلية موضع جدل وخلاف. وقد كثر الكلام حول العامية والفصحى. وقد سبق لى أن خضت التجربة مرتين فى محيط واحد هو : محيط الريف المصرى. كتبت مسرحية (المزمار) بالعامية، وكتبت مسرحية (أغنية الموت) بالفصحى فما هى النتيجة فى نظرى ؟ أشك فى أن المشكلة قد حلت تماماً؛ فاستخدام الفصحى يجعل المسرحية مقبولة فى القراءة، ولكنها عند التمثيل

تستلزم الترجمة إلى اللغة التى يمكن أن ينطقها الأشخاص. فالفصحى إذن ليست هنا لغة نهائية فى كل الأحوال، كما أن استخدام العامية يقوم عليه اعتراض وجيه : هو أن هذه اللغة ليست مفهومة فى كل زمن، ولا فى كل قطر، بل ولا فى كل إقليم. فالعامية إذن ليست هى الأخرى لغة نهائية فى كل مكان أو زمان.

كان لا بد لى من تجربة ثالثة، لإيجاد لغة صحيحة لا تجافى قواعد الفصحى. وهى فى نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص ولا ينافى طبائعهم ولا جو حياتهم ! لغة سليمة يفهمها كل جيل، وكل قطر، وكل إقليم، ويمكن أن تجرى على الألسنة فى محيطها. تلك هى لغة هذه المسرحية : قد يبدو لأول وهلة لقارئها أنها مكتوبة بالعامية، ولكنه إذا أعاد قراءتها طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منضبطة على قدر الإمكان. بل إن القارىء يستطيع أن يقرأها قراءتين : قراءة بحسب نطق الريفى، فيقلب (القاف) إلى (جيم) أو إلى (همزة) تبعاً للهجة إقليمية، فيجد الكلام طبيعياً مما يمكن أن يصدر عن ريفى، ثم قراءة أخرى بحسب النطق العربى الصحيح، فيجد العبارات مستقيمة مع الأوضاع اللغوية السليمة!

إذا نجحت فى هذه التجربة فقد يؤدى هذا إلى نتيجتين : أولاهما السير نحو لغة مسرحية موحدة فى أدبنا، تقترب بنا من اللغة المسرحية الموحدة فى الآداب الأوربية. وثانيتهما — وهى الأهم — التقريب بين طبقات الشعب الواحد وبين شعوب اللغة العربية، بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان دون المساس بضرورات الفن[1].

والحق أن الحكيم قد أثار فى كلامه السابق عدة قضايا خطيرة، منها ما يتصل بالعربية فى ذاتها، ومنها ما يتصل بالعربية لغة للفن المسرحى. وأود الآن أن أناقش هذه القضايا على النحو التالى :

أولاً : إن مفهوم الحكيم للفصحى والعامية يشوبه لبس خطير : فالعربية — فى تاريخها الطويل — لم تعرف للفصحى ولا للعامية مستوى لغوياً واحداً. ففضلاً عن الاختلاف اللغوى التاريخى من عصر إلى عصر، هناك اختلاف داخلى آخر بين لغة الشعر ولغة النثر. وإذا صرفنا النظر عن لغة الشعر لخصوصيتها وخروجها عن موضوعنا الآن، رأينا للغة النثر مستويات أخرى عدة، وتصبح هذه المستويات فى العربية الحديثة أكثر بروزاً؛ فهناك فصحى التراث الأدبية التى نراها فى كتابات طه حسين والعقاد وأحمد أمين والحكيم وغيرهم، وهناك فصحى المؤلفات العلمية والكتابات الفكرية، وهناك فصحى الصحافة

(١) الصفقة، مكتبة الآداب، (١٩٨١) ص١٥٥ — ١٥٧.

وجمهرة المثقفين، وهناك الفصحى الفنية الميسرة فى السرد الروائى والحوار الدرامى كالتى نراها عند الحكيم وغيره من كتاب الرواية ومسرح الفصحى. والمسألة هنا ليست مسألة أنواع مختلفة، وإنما هى مسألة مستويات لغوية وأسلوبية داخل لغة واحدة هى الفصحى ذات النسيج الفصيح والجارية على قواعد الإعراب ونظام التركيب فى العربية الكلاسيكية.

أما العامية، فإنها — بالمثل — تتعدد بتعدد البيئات الجغرافية فيما نسميه باللهجات المحلية، التى تختلف فيما بينها صوتياً وصرفياً ونحوياً. ولا تتفق هذه اللهجات المحلية إلا فى أنها جميعاً ذات نسيج لغوى ونظام تركيبى يختلف عن الفصحى. وللهجة الواحدة مستويات مختلفة كذلك.

والأمر مع الفصحى ولهجاتها — على مستوى البحث العلمى المتخصص— واضح تماماً؛ فالفصحى بمستوياتها فصحى، والعامية بلهجاتها عامية، ولا ثالث لهما.

ثانياً : معنى ذلك أن العربية لم تعرف ولن تعرف شيئاً وسطاً أو لغة ثالثة كما يسميها الحكيم؛ فهى إما فصحى أو عامية ولا شىء غير ذلك. وما يظنه الحكيم هنا لغة ثالثة — وسوف نرى ذلك بالتفصيل فى تطبيق نظريته على أعماله المسرحية — لا تجافى قواعد الفصحى، ليس صحيحاً من ناحية، وليس له من الواقع اللغوى الفعلى مكان من ناحية أخرى. إن اللغة الثالثة التى يراها الحكيم ليست — فى حقيقتها — إلا مستوى لغوياً من مستويات العامية، يمكن لنا — بعامة— أن نجعله مستوى عامية المتعلمين ومن دونهم، ولا ترقى إلى عامية المثقفين إلا إذا كانت الشخصية المسرحية ذاتها على حظ من العلم والثقافة.

ثالثاً : وإذا كانت المسرحية — فى جوهرها — قد كتبت لتتحول إلى عمل فنى ممثل، فإن ضرورة الفن تقتضى – دون تعسف للأمور — أن ينطق الكاتب شخصياته بما تنطق به فى الواقع. بل إن نجاح الكاتب المسرحى فى هذا الشأن مرهون بقدرته على إظهار الشخصية كلا متكاملاً : لغة وسلوكاً وفكراً. وليس للكاتب — بحال من الأحوال — أن ينطقها وفقاً لهواه أو تصوراته المثالية المجردة. فإنه لو فعل ذلك لتحول الكاتب إلى (ملقن) لشخصياته، ولأصبحت تلك الشخصيات دمى هامدة لا تعبر عن ذاتها فى حالاتها النفسية والذهنية المختلفة بما تريد هى أن تعبر به. إن الكاتب المسرحى لا يختار لشخصياته طريقتها فى التعبير؛ لأنه لو توهم أن ذلك بيده، لكان شأنه شأن مصمم الأزياء الفاشل الذى يظن أن بطلة المسرحية مثلاً تستطيع أن تخرج على الجمهور مرتدية (المينى جيب) لتؤدى دورفلاحة من أعماق الصعيد !

رابعاً : إن هذه اللغة الثالثة التى يراها الحكيم لغة سليمة تناسب كل عصر ومصر لا يمكنها على الإطلاق أن تحقق لتجربته ما طمحت إليه، فهى لا شك تنافى طبائع الأشخاص وتجافى جو حياتهم . وإذا كان الحكيم نفسه قد لاحظ أن استخدام الفصحى يجعل المسرحية مقبولة فى القراءة، ولكنها عند التمثيل تستلزم الترجمة إلى اللغة التى يمكن أن ينطقها الأشخاص، فلماذا لم ينطق تلك الأشخاص بالفعل بلغتها التى تنطق بها فى الواقع : بالعامية، بدلاً من (إنطاقها) بلغة ثالثة لا يملكها إلا الكاتب، ولا نعرف لها قواعد ولا قياساً؟

إن هذه اللغة الثالثة — بهذه الصورة الفردية — ستتحول إلى لغات ولغات، حيث يصبح لكل كاتب لغته الثالثة التى ينطق بها شخوصه، مادامت من وضعه وليس لها فى الواقع اللغوى مثال يحتذى أو قواعد يقاس عليها.

خامساً : إن هذه المسرحيات الاجتماعية التى تعالج عادة مشكلات محلية، تختلف — بشكل أو بآخر — من بيئة إلى أخرى، ليس من وظيفتها أن توحد أداة التفاهم بين الشعوب العربية، بل إنها لا تستطيع ذلك مهما تعددت التجارب. ولماذا نشكو من فقدان لغة مسرحية موحدة فى أدبنا العربى، والشعوب العربية تشاهد كل يوم أفلاماً لا تتحدث فيها الشخصيات إلا العامية ؟!

سادساً : إن الدعوة إلى لغة ثالثة فى التأليف المسرحى، ليست دعوة نابعة من صميم العمل المسرحى ذاته، وإنما هى دعوة قومية خارجة عن ضرورات الفن المسرحى. وليس لأحد أن يطلب من الكاتب المسرحى أو المبدع بعامة أن يصبح داعياً ومصلحاً للإنسان واللسان. فهو إما أن يكون كذلك، أو أن يكون أديباً حقاً يجعل لغته من أدبه وأدبه بلغته.

سابعاً : إن العامية التى استخدمها ويستخدمها كتاب المسرح المصريون هى العامية القاهرية. وهى عامية يفهمها العامة والخاصة فى مصر على اختلاف لهجاتهم المحلية وثقافاتهم ومستوياتهم الاجتماعية. وليس للغة المسرحية أن تجعل من همها التقريب بين طبقات الشعب الواحد وبين شعوب اللغة العربية كما يرى الحكيم، ولكن هذا التقريب يصنعه الاتصال والاحتكاك بين طبقات الشعب الواحد والشعوب العربية، كما تصنعه فنون أخرى أكثر تأثيراً وأبعد عن متطلبات الأدب، كالسينما. إن هذه اللغة الثالثة ليس لها أن تضيق الحدود والفروق والحواجز كما يظن الحكيم[1]، مادامت لغة خاصة ينشئها الأديب

(١) الورطة، مكتبة الآداب، (١٩٨٥) ص١٧١ — ١٧٤.

لنفسه، ولا نملك أن نطالب الناس بالحديث بها، لا سيما إذا أدركنا أن فهم الحكيم لهذه اللغة يكاد يقتصر على قطاع واحد من قطاعات اللغة هو المفردات أو الألفاظ المفردة[1]. فاستبدال المفردة العامية بنظيرتها الفصحى، أو رسمها إملائياً على نحو ما فى الفصحى، لايحول العامية إلى فصحى. ذلك أن المعول عليه فى التفريق بينهما هو — فى الأساس — النسيج اللغوى العام ونظم الجملة؛ فللفصحى نسيجها اللغوى ونظامها التركيبى الذى تفتقر إليه اللغة الثالثة فى حوار الحكيم على نحو ما نرى فيما يلى.

(٣) اللغة الثالثة فى الأعمال المسرحية :

كان الحكيم حكيماً حين عرض نظريته فى اللغة الثالثة فى جميع بياناته التوضيحية التى نشرها بمسرحياته التى كتبت بهذه اللغة وهى (الصفقة –١٩٥٦) و (الطعام لكل فم — ١٩٦٣) و (الورطة١٩٦٦) بروح التجريب غير الملزم يقول عن محاولته فى مسرحية (الورطة):

" وهذه المحاولة كغيرها من المحاولات التى سبقت فى هذا المجال، ليست ملزمة فى شكلها وطريقتها لأحد، ولا لى أنا نفسى .. فإن لكل كاتب أن يجرب مراراً وأن يحاول كثيراً فى هذا السبيل، كل على طريقته، وعلى قدر اجتهاده "[2].

وهذه المحاولة من الحكيم مما يحسب له لا عليه بالطبع؛ لجرأتها ونبل هدفها؛ فقد كان بمقدوره — كما ذكر هو نفسه[3] — أن يتخلى عنها ويكتب كالآخرين بالفصحى أو العامية. ولذلك، فمن حقنا الآن أن نحكم على هذه التجربة ومدى نجاحها من خلال مسرحياته ذاتها التى كانت ثمرة هذه التجربة.

إن السؤال الذى نحاول الإجابة عنه الآن هو : هل نجح الحكيم فعلاً فى صنع حوار باللغة الثالثة دون مساس بضرورات الفن المسرحى، على النحو الذى طمحت إليه تجربته ؟

ونمهد لإجابتنا عن السؤال بقراءة هذا المقطع الحوارى بين (حمدى) وزوجته (سميرة) فى مفتتح مسرحية (الطعام لكل فم ص ٩ — ١١) :

حمدى : (صائحاً) سميرة ! .. تعالى ياسميرة بسرعة ! .. تعالى انظرى أعمال جارتك !

سميرة : (من خارج الحجرة) لحظة واحدة ياحمدى !

حمدى : ماذا تفعلين عندك ؟

سميرة : (من الخارج) أفعل شيئاً مفيداً على الأقل .. أرتق لك جواربك الممزقة .. شىء لا تفكر فيه أنت طبعاً .. كفاية عليك قعدة القهوة والطاولة والشيش جهار والشيش بيش !.

---

(١) الورطة، ص١٧٢ — ١٧٤.

(٢) الورطة، ص١٧٧ — ١٧٨.

(٣) الطعام لكل فم، مكتبة الآداب، (١٩٧٦) ص١٥٥.

حمدى : سبحان الله فى طبعك ياشيخة .. أهذا وقته ! .. تعالى انظرى الحائط الذى غرق من مياه جارتك ست عطيات ! ..

" تظهر سميرة ... ... "

سميرة : (من الخارج) ماذا تقول ؟ .. !

حمدى : (يشير لها إلى البقعة المنتشرة فوق الحائط) انظرى !

سميرة : (ناظرة فى انزعاج) يا مصيبتى !

حمدى : يعجبك ؟!

سميرة : ماذا تفعل فوق ؟! .. تغسل بلاط شقتها ؟

حمدى : بكل هذه المياه ؟ .. مستحيل .. إنها قلبت شقتها إلى بحر يعوم فيه السمك والمراكب ! ..

سميرة : أنا عارفة ست عطيات .. غشيمة فى شغل البيت .. مشغولة لشوشتها فى تركة المرحوم زوجها وإخوته والمحامين والقضايا .. وطردت من يومين خادمتها .. وهاهى لاصت وغرقت فى شبر ماء ..

حمدى : (مشيراً إلى الحائط) أهذا كله شبر ماء ؟! .. ومع ذلك قد أغرقتنا نحن أيضاً فيه!.. ما ذنبنا نحن ؟ وما ذنب حائطنا يشوه بهذا الشكل ؟ ..

سميرة : حقاً .. هذا لا يصح منها أبداً .. (تتجه إلى الشباك المطل على المنور تنادي) ست عطيات .. ست عطيات ..

عطيات : (فى الخارج من المنور) نعم ياست سميرة ؟!

سميرة : إذا سمحت انزلى عندنا دقيقة واحدة ..

عطيات : أنا خارجة .. عندى ميعاد مع المحامى ..

سميرة : دقيقة واحدة من فضلك .. المسألة مهمة ..

عطيات : أمر عليك فى طريقى وأنا نازلة ..

سميرة : (تترك الشباك) يحسن أن نعالج الموضوع معها بالحسنى .. إنها ليست بالمرأة السهلة ..

ولنعرض الآن هذا المقطع الحوارى – قبل أن نعلق عليه – على ما قاله الحكيم عن تجربته اللغوية فى هذه المسرحية :

" إنها تجربة النزول باللغة العربية إلى أدنى مستوى لتلاصق العامية دون أن تكون هى العامية، والارتفاع بالعامية دون أن تكون هى الفصحى. إنها اللغة الثالثة التى يمكن أن يتلاقى عندها الشعب كله "[1].

ونتساءل الآن : ما المعايير التى تحكم النزول والارتفاع فى المقطع الحوارى السابق ؟.

يبدو لنا من الوهلة الأولى أن الأمر مع مثل هذا الحوار يتلخص فى عدم صلاحيته لأن يقرأ قراءة فصيحة معربة كما سبق أن أشار الحكيم. ولو جربنا ذلك لكان الأمر مضحكاً حقاً؛ فهو حوار لا ينطق إلا كما تنطق العامية، ويزيد من هذه المفارقة المضحكة الإصرار على قراءة حوار عامى ملتبس ببعض تراكيب الفصحى قراءة فصيحة مثل (انظرى) بدلاً من (شوفى) و (الحائط) بدلاً من (الحيطة) أو استبدال تركيب نحوى عامى بآخر فصيح، مثل (لا تفكر) فى (شئ لاتفكر فيه أنت طبعا) بـ (مابتفكرش) .. ونحو ذلك.

والمهم هنا هو أن هذه الاستبدالات اللفظية أو الاستبدالات التركيبية ليست إلا استبدالات جزئية لاتملك أن تشكل لغة ثالثة ذات معايير بنائية مطردة. فكثيراً ما تتجاور الجملتان : إحداهما فصيحة عالية والأخرى عامية خالصة. واقرأ معى مرة أخرى قول سميرة لزوجها (أفعل شيئاً مفيداً على الأقل : أرتق لك جواربك الممزقة .. شئ لاتفكر أنت فيه طبعا .. كفاية عليك قعدة القهوة ..) وقارن الجملتين الأوليين بالجملة الأخيرة، ثم قارن ذلك كله بقول سميرة لزوجها عن (عطيات) : " يحسن أن نعالج الموضوع معها بالحسنى .. إنها ليست بالمرأة السهلة " فلاشك أن فعلاً مثل (أرتق) وتركيباً نحوياً مثل (ليست بالمرأة السهلة)، مما لايتوقع صدوره عن شخصية مثل (سميرة) ربة البيت.

وأهم من ذلك — على المستوى الفنى — أن الخروج من لغة ذات تركيب نحوى عامى ونسيج لغوى عامى إلى لغة أخرى فصيحة هو كالصعود من أدنى الجبل إلى منتهاه ثم النزول من منتهاه إلى أدناه مرة أخرى وهكذا. وذلك ما يفقد الحوار انسيابه وتلقائيته وتناغمه الداخلى. إن الحوار السابق ليس — خلافاً لما يزعم الحكيم — إلا حواراً عامياً تصيبه كلمات مثل (قد) و (أيضاً) و (هاهى) و (إنها) و (أهذا) بالقلق والاضطراب.

إن (تفصيح العامية) — وهذا المصطلح للحكيم أيضاً[2] — من الأسباب المباشرة التى تحد من انسيابية الحوار بين الشخصيات، لا سيما إذا كان تركيبه النحوى ونسيجه اللغوى عامياً. ولنتأمل هذا المقطع الحوارى القصير من (الطعام لكل فم) :

---

(١) الطعام لكل فم، ص١٥٥.

(٢) الورطة، ص١٨٠.

سميرة : ربنا يقدرنا نرد لك بعض الجميل.. ولو على الأقل لا نسبب لك أى مضايقة..

عطيات : مضايقة ؟ فى أى شئ لاسمح الله ؟

حمدى : فى .. مثلا .. تكون حكاية الحائط منعتك من غسيل شقتك .. [1].

فالحوار هنا يحاكى اللغة المنطوقة فى العامية، وتصبح تراكيب مثل (لا نسبب لك) و(حكاية الحائط) تفصيحاً لا مبرر له إلا إظهار الكلمات فى صورتها التى تكتب بها فى الفصحى. وهو مبرر شكلى محض؛ لأنه يتعلق بالرسم الإملائى ولا يتعلق بضرورة فنية نابعة من الموقف أو (مقام) الكلام. وتصبح مثل هذه التراكيب نتوءات وحواجز تغير مجرى الحوار.

وفى مواقع أخرى تمسخ هذه التراكيب المعنى وتعميه وتصبح ترجمة شكلية عاجزة عن نقل المعنى بدقة ووضوح، حيث يعجز (المقال) عن مجاراة (المقام). ولننظر إلى المقطع الحوارى التالى من مسرحية (الطعام لكل فم) :

حمدى : لا .. نحن لا نريد هذه المحاسبة !

سميرة : نريد أن تكونى على راحتك .. أنت حرة فى شقتك ..

عطيات : طبعاً .. أنا حرة فى شقتى .. لكن من الواجب على أيضاً أنى أحافظ على جيرانى ..

حمدى : نحن جيرانك ياست عطيات .. نعطيك الإذن بإطلاق المياه كما تشائين.

سميرة : اغسلى كالمرة السابقة بالضبط .. ولا تخافى ؟!.

عطيات : أنا غسلت شقتى .. أغسلها دائماً ؟!.

سميرة : غسلتيها !..

حمدى : متى ذلك ؟ ..

عطيات : كل يوم كل صباح .. ولكن تعلمت الغسيل الأصولى .. [2].

فالمقام هنا هو أن عطيات تعجب من (حمدى) وزوجته (سميرة) اللذين يطلبان منها أن تغسل شقتها مثل المرة السابقة بأن تغرقها بالمياه دون خوف من تسربها إلى شقتهما، فى الوقت الذى كانت قد غسلت فيه شقتها بالفعل.

وذلك يجعل الاستفهام فى قولها (أنا غسلت شقتى .. أغسلها دائما ؟!) استفهاماً لا يحمل معنى الاستخبار لتنفيذ أمرهما ولكن يعنى الاستنكار، وكأنها تريد– بلغتها الطبيعية – أن تقول (أنا غسلت شقتى خلاص .. عايزينى أغسلها على طول ولا إيه ؟).

---

(١) الطعام لكل فم، ص١٠٢ – ١٠٣.

(٢) الطعام لكل فم، ص١٠٤.

هنا تبدو كلمة (دائماً) التى وردت بالحوار السابق ترجمة عاجزة عن نقل سياق الكلام نقلا دقيقاً واضحاً.

من ناحية أخرى، فإن عطيات تود أن تقول – فى إجابتها عن سؤال (حمدى) – إنها تغسل شقتها (كل يوم الصبح). ومن ثمة تبدو عبارة الحكيم (كل يوم كل صباح) ترجمة غامضة ثقيلة على اللسان.

إن أخطر ما فى اللغة الثالثة عند الحكيم هو فقدانها التناغم والانسجام بين وحدات الجملة المسرحية. ولعل من أهم الأسباب التى أدت إلى ذلك، الخلط الشديد بين مفردات ارتبطت بالفصحى وأخرى ارتبطت بالعامية، مما يؤدى إلى تصادم اللغتين وتنافرهما على لسان الشخصية الواحدة، لاسيما إذا كانت شخصية تافهة لاينتظر منها أن تستخدم مفردات معجمية شديدة الارتباط بالفصحى. ولنقرأ الحوار التالى بين مجموعة اللصوص التى استحضرها الدكتور (يحيى بدران) أستاذ القانون ليجرى عليها أبحاثه فى علم النفس الجنائى فى مسرحية (الورطة) :

شوشو : اسمعوا .. عندى فكرة .. قبل ما نمشى نترك له الهدية فى درج مكتبه .. ونعملها مفاجأة له يلقاها بعد ما نكون رحلنا ..

بسبس : فكرة حلوة ..

شوشو : وكلها ذوق ..

بسبس : قلت لك إنت ست فاهمة الذوق والأصول ..

منير : العفو ياسى بسبس .. العفو !

شوشو : سيبه يمدحنى ياأخى ! ..

منير : امدحها ياسيدى وقرظها .. إنت خسرت حاجة من جيبك !(١).

فلا ريب أن أفعالاً مثل (رحل) و (قرظ) لارتباطها الشديد بالفصحى الأدبية بل بفصحى التراث، تجعل من المستغرب أن تأتى فى حوار بين مجموعة من اللصوص مثل منير وبسبس وشوشو. وكان أجدر بهم وباللغة الثالثة أن تكون الألفاظ المستخدمة – حينئذ – ألفاظا نمطية تليق بمعجم اللصوص !.

وترتبط هذه النقطة بمسألة مهمة فى لغة المسرح، فقد يقال بأن الحكيم قد آثر كلمة (قرظ) لما تحمله من معنى السخرية والتهكم فى هذا المقام. ولكن ذلك يتنافى تماماً مع مبدأ

(١) الورطة، ص٩٥ – ٩٦.

معروف فى فن المسرح، وهو ضرورة اختفاء الكاتب من عمله، فلا نسمع حواره بلغته الخاصة، بل نسمع حوار الشخصيات بلغاتها ولوازمها التى تميز بينها. وهنا يتسع المجال لشخصية مثل منير أن يتهكم على طريقته وبشئ من معجمه اللغوى الخاص، وما أغنى معجم اللصوص !. من ناحية أخرى، كيف يمكن له أن يتهكم بما يفترض أنه لا يعرف معناه؟ إن مثل هذه الكلمات تصبح كالأحجار الملقاة فى طريق المثل أو القارئ، لا يملك إلا أن يتعثر بها، فتنقطع حرارة الحوار !.

وقد ينقل لنا حوار الحكيم – بمهارة واقتدار لا يطغى على عفويته وتلقائيته – موقفاً كوميدياً طريفاً، فى مسرحيات أخرى كانت اللغة فيها فصيحة مرنة، لا تقيدها قيود اللغة الثالثة، على النحو الذى رأيناه. ويعتمد الحكيم فى ذلك على التلاعب بألفاظ ذات تركيبة عامية دارجة تلاعباً يخرج الحوار عن رتابته وجفافه. ولاتكاد تخلو مسرحية من مسرحيات اللغة الثالثة من مثل هذه المواقف على العكس من مسرحيات أخرى، مثل (الأيدى الناعمة). ففى هذه المسرحية يعزم (البرنس) على خطبة (كريمة) ابنة الحاج (عبد السلام)، ويود أن يتدرب على هذا الموقف قبل مقابلة الحاج، فيطلب من الدكتور أن يضع نفسه مكانه، ويجرى بينهما الحوار :

الدكتور : فى مكانه ؟

البرنس : نعم .. ضع نفسك الآن موضعه .. أنت عمى الحاج .. وأنا أتقدم إليك ..

الدكتور : انتظر .. أليس هنا مسبحة أضعها فى يدى ؟

البرنس : لا داعى لهذه التفاصيل .. دعنى أجرب ماذا سأقول وأنت أجبنى كما لو كنت الحاج ..

الدكتور : (يتنحنح مقلداً الحاج عبد السلام) تفضل يا ابنى ! ماذا تريد أن تقول ؟

البرنس : أريد ياعمى الحاج أن أقول لك بسرعة وبدون مقدمات إننا بالطبع أصبحنا عائلة واحدة .. زيتنا فى دقيقنا.

الدكتور : وأين هو الزيت وأين هو الدقيق ؟

البرنس : أنا الزيت وبنت عمى كريمة الدقبق .. !

الدكتور : مفهوم.

البرنس : طبعا توافق ..

الدكتور : (يتنحنح) هذا يتوقف على نوع الزيت .. لابد أن نعرف أولاً هل هو طيب أو زيت وسخ ؟

البرنس : وسخ .. اخرس.

الدكتور : أتقول اخرس لعمك الحاج ؟

البرنس : بل أقولها لحضرتك .. الحاج رجل مؤدب[1].

فالكوميديا فى هذا المشهد تعتمد على عنصرين أساسيين : أولهما خارجى يعتمد على تقمص الدكتور لشخصية الحاج عبد السلام وما يرتبط بذلك من تقليد لحركاته وطريقته فى تعقل الكلام. والآخر – وهو المهم هنا – داخلى ينبع من التلاعب اللفظى لوحدات تركيبة عامية ذات (قدرة توليدية) تسم الحوار بالحركة والديناميكية، هى التعبير (زيتنا فى دقيقنا)، حيث تتفجر الكوميديا هنا من تعقيب الدكتور بسؤال (وأين هو الزيت وأين هو الدقيق؟) . ثم تأخذ شكل الكوميديا الساخرة فى قوله مرة أخرى (هذا يتوقف على نوع الزيت).

وتبدو العبارة السابقة فصيحة فى نظمها ومفرداتها، بيد أنه من الضرورى – حتى لاتفقد وقعها الحى المباشر فى النفس وقيمتها فى نقل الجو الكوميدى فى هذا المشهد – من أن تنطق كما ينطقها العامة؛ أى دون إعراب، مع إبدال القاف فى (الدقيق) همزة. وإذا سلمنا بضرورة نطق القاف همزة فى هذه الكلمة، فإن ذلك سوف يخلق تنافراً وثقلاً فى الجملة التى تليها ذات البناء الفصيح (وأين هو الزيت وأين هو الدقيق).

والحق أن الحكيم قد برع فى التمييز بين الشخصيات بطباعها وخصائصها العقلانية والمزاجية عن طريق حوار اللغة الثالثة. فلا شك أنه وفق إلى حد بعيد فى رسم شخصية (عطيات) بلوازمها وعباراتها النمطية التى تفصح عن شخصية امراة طيبة القلب سريعة الغضب، تكره المداورة والمواربة فى الكلام. وذلك ما تقدمه لنا لغتها الخاصة فى الحوار. ومن أمثلة ذلك هذه الحوارات مع (حمدى) وزوجته :

– " اسمع يا أستاذ حمدى .. أنا لا أشرب من هذا الكلام المايع .. أنا أحب الكلام المضبوط المربوط " [2].

– " اسكت .. هذا هو الكلام الجد .. قالوا لكم إن عطيات مغفلة .. لا وحياة شنبك ياأستاذ .. أنا لا أمكنكم أبداً من هذا الملعوب " [3].

---

(١) الأيدي الناعمة، ص١١٨ – ١١٩.

(٢) الطعام لكل فم، ص٨٠.

(٣) الطعام لكل فم، ١١٤.

إن هذه النقطة الأخيرة توصلنا إلى ملحوظة مهمة، وهى أن شخصيات الحكيم فى مسرحيات اللغة الثالثة لا تفصح عن نفسها إلا إذا أطلق لها العنان تحكى وتحاور على سجيتها بلغتها التى تعرفها. من ناحية أخرى، فإنها توصلنا إلى ملحوظة ثانية، هى أن اللوازم والقوالب اللغوية الجاهزة التى يغذى بها الحكيم حواره والتى تميز شخصية عن أخرى بأسلوب خاص من الكلام، ترجع فى معظمها إلى العامية أو ما ارتبط بالعامية، مثل (بلا قافية) و (لا مؤاخذة) و (العتب على النظر) و (الموضوع إياه) و (عرف الفولة) و(ولاشغلة ولا مشغلة) و (وبعدها لك) و (مقروصة منه) و (إلعب غيرها) و (يفهمها وهى طايرة) و (لعل وعسى) و (والله زمان) ... إلخ.

إننا لو صفينا مسرحيات اللغة الثالثة من تدخلات الحكيم وترجماته لبعض المفردات الخاصة بالعامية وتعديلات لبعض تراكيبها النحوية، لكانت الحصيلة لغة عامية كالتى نتحدث بها فى شئوننا اليومية. ويصبح من الغريب — فى هذه الحالة — أن يظن الحكيم أن لغته فى هذه المسرحيات قد نزلت " باللغة العربية إلى أدنى مستوى لتلاصق العامية دون أن تكون هى العامية " فهى — لاشك — عامية تتأبى على القراءة الفصيحة المعربة؛ لأن نسيجها ليس فصيحاً، ولأن نظمها النحوى ليس معرباً. ويصبح من التعسف — حينئذ — أن نقرأ لغة بلغة أخرى[1].

من ناحية أخرى، يصبح من الغريب حقاً أن نتصور لغة ثالثة تقوم على " الارتفاع بالعامية دون أن تكون هى الفصحى "[2]، فهى بالفعل — ليست لغة فصحى للأسباب التى ذكرناها، كما أن الارتفاع بالعامية ليس عملاً فردياً مفروضاً على اللغة من خارجها، بل هو نمو وتطور ينبع من داخل اللغة ذاتها، عبر فترات تاريخية، بتأثير عوامل ثقافية وحضارية مختلفة. على أن الذى يلفت انتباهنا فى اللغة الثالثة عند توفيق الحكيم هو أن هذه اللغة — إذا تأملناها جيداً — قد تطورت تطوراً بنائياً، وبالتالى تطوراً فنياً من مسرحية إلى أخرى.

---

(١) وقد مس بعض النقاد هذه المسألة منذ فترة طويلة، ومن ذلك قول الدكتور محمد مندور عن مسرحية الصفقة:
" إن النص وإن يكن قد كتب باللغة الدارجة بين الطبقات المتعلمة، إلا أنه مع ذلك أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى في كثير من ألفاظه مثل (دبح الدبيحة) وغيرها، وفي تراكيبها أيضاً. فضلاً عن أنه إذا كان الإملاء يلتزم إملاء الفصحى، فهذه ظاهرة عامة عند كتابة العامية التي لم تستقر حتى الآن على طريقة في إملائها الكتابي. فكلمة (قال) مثلاً تكتب بالقاف، ومع ذلك تنطق عند إحساس القارئ بأن النص عامي همزة أو جيماً. وهذا ما فعله الممثلون ويستطيع أن يفعله " (مسرح توفيق الحكيم، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠ ص١٣٥).

(٢) وفي موضع آخر (الصفقة ١٥٦) يرى الحكيم أن لغته الثالثة لا تجافي قواعد الفصحى، يقول :
" كان لابد من تجربة ثالثة، لإيجاد لغة صحيحة لا تجافي قواعد الفصحى ". ولعمري، كيف لا تكون هذه اللغة هي الفصحى، وفي الوقت نفسه لا تجافي قواعد الفصحى ؟.

ولعل مسرحيات (الطعام لكل فم) و (الصفقة) أقرب مسرحيات اللغة الثالثة إلى تصور الحكيم لهذه اللغة.

أما مسرحية (الورطة)، فهى تشهد على تطور ملحوظ فى نظرة الحكيم إلى اللغة الثالثة؛ فقد تساهل الحكيم كثيراً مع نظم الجملة المسرحية وصارت عامية النظم والتركيب. أما وحدات الجملة، فقد شهدت تطوراً واضحاً فى استقاء المفردات العامية أو التى ارتبطت بها مثل (بس)، وأسماء الإشارة (دا) و (دى)، و (بالظبط) ونحوها بالظاء، و (أيوه)، وأدوات الاستفهام مثل (أيه)، و (اهى)، والاسم الموصول (اللى)، و(زى) ... إلخ مما لم يكن يستخدمه الحكيم فى مسرحياته السابقة إلا في صورته الفصحى.

وربما كان الدافع إلى هذا التطور الأخير استشعار الحكيم ما في تجاربه السابقة من اهتزاز فى معايير اللغة الثالثة، ومانتج عن هذه اللغة من خلط بين مستويين لغويين مختلفين على لسان الشخصية الواحدة، مما أصاب الحوار بالقلق وفقدان التجانس.

وقد جاء هذا التطور ملائماً لجو المسرحية وطبيعة الشخصيات الأساسية التى أراد عرضها، وهى شخصيات لصوص الخزائن التى تتحاور بلغة عابثة مكشوفة، تكثر فيها اللوازم و (القفشات) اللفظية. ويرى الدكتور السعيد بدوى أن تخفيف الحكيم من مستوى (التفصيح) فى مسرحية (الورطة) يرجع إلى أنه رأى أن التطور الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع بصدور القوانين الاشتراكية قد أصبح فى صفه وفى الاتجاه نحو الفصحى، وأن لغة الخطاب ستصل لا محالة إلى المستوى المطلوب. ويرى أن التطور الذى حدث فى لغة الحكيم ليس تطوراً فى الموقف بقدر ما هو تطور فى (التكنيك) أو التخطيط[1].

والحق أنني أرجح أن السبب في هذا التطور هو عكس ما رآه الدكتور بدوي، فقد كان تطوراً في الموقف يعكس إحساساً بمتطلبات الحوار المسرحي من انسجام داخلي وتلاؤم مع المواقف والشخصيات، وإلا لكان من المتوقع أن تعكس (الورطة) هذا التطور الذي أحدثه الواقع الاجتماعي الجديد في لغة التخاطب وتقريبه لها من الفصحى. فذلك هو ما طمحت إليه تجربة اللغة الثالثة عند الحكيم. ويدعم البيان الذي نشره الحكيم بآخر مسرحية (الورطة) الرأي الذي نذهب إليه. ولنقرأ قوله :

" ... وعلى ذلك لا جناح في نطقنا (بالظبط) بدلاً من (بالضبط) ونطقنا (دا) و(دي) و(ده) بدلاً من (ذا) و (ذي) و (ذه)، وكذلك ما يسير على نهجها مثل (كذا) التي ننطقها (كده) أو (كدا) ويلحق بها كلمتا (إيه) و (ليه) مما شاع استعماله في حديثنا نحو: إيه رأيك في المسألة؟

(١) دكتور السعيد محمد بدوي : مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر، دار المعارف ١٩٧٣، ص٧٦.

وليه امتنعت عن زيارتي. مثل هذه الرخص والاختزالات في التخاطب يمكن قبولها، إذ من الشطط أن نطالب الناس بالطفرة ونلزمهم في مجالسهم العادية باستعمال كلمة (لماذا) بدلاً من (ليه) حتى ينطقوا : لماذا امتنعت عن زيارتي. إذا أردنا أن نطاع فلنأمر بما يستطاع "[1].

إن هذا القالب الجديد الذي تطورت إليه اللغة الثالثة عند الحكيم في مسرحية (الورطة) قد أنتج أثراً إيجابياً، بدا فيه تميز الحوار بالعفوية والتجانس، والتحرر من سطوة الكاتب، والقدرة على التمييز بين الشخصيات، ونقل المشهد بجوه وإيقاعه وحرارته، والوفاء بمتطلبات الحبكة المسرحية.

يبدو أنه من ناحية أخرى قد ترك أثراً سلبياً بدا في التردد الملحوظ بين استخدام الكلمة في صورتها الفصحى مرة والعامية مرة أخرى على لسان الشخصية الواحدة دون مبرر فني. بل إن الغريب حقاً أن يقول الدكتور (يحيى) أستاذ القانون (بالظبط) بالظاء بينما ينطقها (منير) زعيم اللصوص بالضاد كثيراً. ومن ذلك أيضاً أن يقول الدكتور (يحيى) (تنضيف) بالضاد، بينما ينطقها منير في حواره معه بالظاء[2].

وينبغي هنا الإشارة إلى أن لغة المسرحية أيضاً لا تخرج من حيث قواعد تركيب الجملة عن اللغة العامية، وليس الاتفاق بين العامية والفصحى في تلك القواعد إلا من قبيل المصادفات التي تجمع بينهما.

كذلك المفردات، فهي إما عامية أو مما اشتركت فيه العامية مع الفصحى. ولعل من أهم حسنات مسرح اللغة الثالثة عند الحكيم أنه دلل — من ناحية — على القرابة اللغوية الشديدة بين العامية والفصحى من حيث المفردات، كما نبه إلى ما بينهما من خلاف في قواعد النظم والتركيب يحذر من خطأ الخلط بينهما من ناحية أخرى.

وفي الكلام السابق دليل قاطع على أن العربية لا تعرف ولا يمكن أن تعرف لغة ثالثة، فهي إما فصحى أو عامية. وليس المعول عليه حينئذ هو ما يبدو إملائياً بين المفردات المشتركة من تشابه، ولكن المعول عليه هو ما لكل منهما من نظام نحوي خاص. فالعربية إما أن تكون لغة معربة نسميها الفصحى أو لهجة غير معربة نسميها العامية. وليس ما بينهما من لغة تبدو أرقى من العامية وأقل من الفصحى إلا مستوى معيناً من مستويات العامية يشيع على ألسنة المثقفين ورجال الدين ونحوهم ممن تؤثر ثقافاتهم في اقتراض مفردات وتراكيب فصيحة[3].

---

(١) الورطة، ص١٧٣.

(٢) الورطة، ص٨٠.

(٣) أنظر في تفصيل ذلك : مستويات العربية المعاصرة في مصر، ص٨٩ وما بعدها.

وهذه اللغة تختلف عن لغة الحكيم الثالثة، لأنها مسموعة وممارسة في الواقع اللغوي الاجتماعي وليست من صنع فرد بعينه، بينما كانت لغة الحكيم اصطناعاً وتصرفاً فردياً وتفصيحاً مقصوداً إليه وتجميلاً للغة معينة بجماليات لغة أخرى. وتقودنا هذه النقطة إلى مسألة أخرى مهمة، هي أن اللغة التي كتب بها الحكيم روائعه المسرحية التاريخية والأسطورية وهي العربية الفصحى الفنية غير المقعرة، كانت — بحق — لغة درامية من الطراز الأول. ونستطيع أن نقرأ شيئاً من مسرحية (بيجماليون) مثلاً لنرى هذا التناغم الفائق الذي يحرص عليه الحكيم بين إيقاع الحوار وجو المشهد الدرامي. وإذا ما قارنت حواره في هذه المسرحية بحواره في مسرحيات اللغة الثالثة للاحظت — بوضوح — أن هذه المسرحيات كانت تشكو كثيراً من اضطراب الحوار وترهله وتمدده وعجزه عن نقل حرارة المشهد ونبض الكلام المنطوق.

لقد أشار الحكيم في (زهرة العمر) إلى أن هدفه هو أن يجعل للحوار قيمة أدبية، نحبه ليقرأ على أنه أدب وفكر. ولعمري، فإن تجربة (اللغة الثالثة) قد أفقدت المسرحيات التي كتبت بها كثيراً من تلك القيمة الأدبية؛ لانشغالها باللغة أكثر من انشغالها بالأسلوب.

فإذا كانت اللغة هي التي تعبر، فإن الأسلوب هو الذي يمنح القيمة، كما يقول ريفاتير Riffaterre[1]. وهذا يقودنا إلى القول بأن الحوار المسرحي ليس من شأنه أن يتناول لغة الحياة بالتغيير، إلا إذا كان ذلك لغاية فنية درامية كمحاكاة لغة طفل أو رجل متفاصح ونحو ذلك. والأحرى بالحوار الدرامي أن يفيد من جماليات العامية وأن (يقطرها) تقطيراً فنياً، يوفر للمسرحية بناءها الدرامي.

إن لغة الحوار المسرحي — كما يقول دكتور شكري عياد — أكثر حساسية من سائر أنواع اللغة الفنية للواقع اللغوي. ومن ثم فليس في مقدور الكاتب المسرحي أن يقفز فوق هذا الواقع — وهو جزء من الواقع الاجتماعي — ليخترع لغة (محايدة) تخلو من الإيهام المسرحي الضرورى كما تخلو من الصفة الجمالية[2].

في ضوء كل ما سبق، أجدني مختلفاً مع أستاذنا الدكتور عبد القادر القط الذي رأى أن اللغة الثالثة التي ابتكرها الحكيم في (الصفقة) فيها من المرونة والسلاسة معاً ما يحل مشكلة الفصحى والعامية في المسرح[3].

---

(١) M., Riffaterre, Essais de Stylistque Structural, Falmmarion, Paris, (1977) P.31 .

(٢) دكتور شكري عياد : الرؤيا المقيدة، دراسات في التفسير الحضاري للأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٨) ص٤٨.

(٣) دكتور عبد القادر القط : في الأدب العربي الحديث، مكتبة الشباب، ط١ ١٩٧٨، ص٣٢٤.

وبعيداً عن اللغة الثالثة نرى للدكتور القط رأياً آخر في لغة المسرحية يتفق فيه مع كثير من النقاد والكتاب، يتجلى في قوله: والحق أن مشكلة الفصحى والعامية قد حلتها التجربة المسرحية بنفسها دون حاجة إلى تقنين، وأصبح من المتعارف عليه أن هناك بعض الموضوعات تصلح لها اللغة العربية كالموضوعات التاريخية والذهنية والترجمات =

فليس الأمر على هذا النحو لا في الصفقة ولا في غيرها من مسرحيات اللغة الثالثة؛ لفقدان الحوار فيها تجانسه النحوى واللفظى وللخروج من قراءة عامية إلى فصحى فى الجملة الواحدة على نحو ما فصلنا.

كذلك فليس الأمر بهذه البساطة بحيث نتصور أن تجربة اللغة الثالثة قد حلت مشكلة الفصحى والعامية في المسرح؛ لأنها قد تفقد الفصحى جمالها ورونقها ولا تغني العامية بشيء في الوقت نفسه.

إن اللغة المسرحية لغة موضوعية؛ لأنها مرتبطة بفن موضوعي لا ذاتي، فقد نقبل في الشعر الغنائي — إلى حد ما — كلمات وتراكيب فصحى؛ لأنه ليس موضوعياً. ومن هنا يصبح البديل أمام الكاتب المسرحي أحد أمرين : إما الفصحى أو العامية. ويتوقف اختيار أحد مستويات كل لغة من هاتين اللغتين على مستوى الشخصيات وطبيعة الموضوع.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت تجربة اللغة الثالثة عند الحكيم مما يعطي الباحث فرصة فريدة لدراسة لغة الأدب كما يتصورها كبار الأدباء في العصر الحديث من ناحية، وفرصة لعرض هذه التصورات والمحاولات في ضوء البحث اللغوي المتخصص وما يقدمه من معايير موضوعية للغة الأدب المسرحي بخاصة من ناحية أخرى.

*** *** ***

= أما الموضوعات المعاصرة من الحياة، فإن اللغة العامية أقدر بلا شك على معالجتها؛ لأنها تلائم طبيعة الشخصيات وتعكس واقع الحياة ولا تخلق مفارقة بين الشخصية المعاصرة واللغة التي تتحدث بها على المسرح، وهي إلى هذا أداة طيعة في يد الكاتب في هذا المجال؛ لارتباطها بمثل هذه الموضوعات في الحياة وقدرتها على التعبير المسرحي بما يستلزم أحياناً من إيجاز أو سرعة أو إيحاء (قضايا ومواقف، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧١ ، ص٢٢٥).

والحق أن العامية في الموضوعات المعاصرة ليست أقدر من الفصحى وإنما هي أنسب منها؛ فالفصحى قادرة هي الأخرى على التعبير عن الموضوعات المعاصرة، ولكنها تحتاج من الكاتب وعياً شديداً باختيار المستوى أو المستويات المطلوبة أخرى على التعبير على منها والمناسبة للموضوع والشخصيات والتي لا تعلو عن (الإبهام المسرحي).

ويسلم دكتور محمد غنيمي هلال بتعذر نقل خصائص بعض العبارات بترجمتها من العامية إلى الفصحى. ولكنه يرى أنه لا يمكن أن يتخذ هذا تعلة لترجيح العامية على الفصحى مبدأ من المبادئ في الكوميديا المؤلفة أو المترجمة. (في النقد المسرحي، دار النهضة العربية، ١٩٦٥ ، ص٨٠).

اللغة والبناء الدرامي في مسرحية

"رطل اللحم"

تشكو الحركة الأدبية المعاصرة من افتقار حقل الإبداع المسرحى إلى من يجدد تربته ويخصبه بأعمال درامية جديدة: أسلوباً وتكنيكاً ورؤيا، بعد رحيل جيل الرواد أو انقطاع أكثره الباقى عن الكتابة. وقد حدت هذه الشكوى بعض الباحثين المتابعين إلى القول بأن العصر الأدبي الذي نعيشه هو عصر أجناس أدبية أخرى فاقت المسرح كالرواية والشعر.

ولعل من أهم العوامل التي تعوق حركة التأليف المسرحي الجاد والتي تحبس النصوص المسرحية الجديدة في قوالب نمطية، هذه العزلة التي تباعد بين قنوات الحركة المسرحية القومية والحركات الأجنبية المعاصرة؛ فهذه العزلة – كما يقول مؤلف العمل الذي بين أيدينا – قد " أثرت بالسلب في النصوص المحلية المؤلفة في تلك السنوات القليلة الماضية ". فهي ليست محدودة القيمة الفنية فحسب، وإنما هي أيضاً محرومة من لمسات التجديد والاستنارة التي يمكن أن يحدثها الاحتكاك التقني والفكرى بالنصوص الغربية المعاصرة "[1].

في هذا السياق، يصبح ميلاد نص درامي جديد : فكراً وأسلوباً، مما ينبغي تسجيله واحتفاؤه والتنويه به. ونبادر الآن إلى القول بأن (رطل اللحم) للناقد والكاتب المسرحي المعروف الدكتور إبراهيم حمادة من النصوص الأدبية المسرحية الجديدة التي بلغت من النضوج الجمالي ما يحق لحركة المسرح العربي في أواخر الثمانينيات أن تزدهى بها.

(١) عرض النص :

جعل الكاتب مسرحيته من فصلين وما أسماه بالفصل الناقص.وقد اعتمد في بناء الفصل الأول اعتماداً أساسياً على أجزاء متفرقة من مسرحية (تاجر البندقية The Merchant Of Venice) التي نظمها الشاعر الإنجليزي العظيم وليم شكسبير في أواخر القرن السادس عشر الميلادي. ويحتوي هذا الفصل على مشهدين كبيرين، كما جاء بمشهديه تحت عنوان (شيلوك دائنا مدينا – أو الرجل الذي خلق هتلر).

وتحكي قصة المسرحية حكاية اليهودي المرابي (شيلوك) الذي يدين (أنطونيو) أحد تجار البندقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار، كان (أنطونيو) قد اقترضه – لمدة ثلاثة أشهر – من أجل صديقه النبيه (باسانيو) الذي يود الزواج من محبوبته (بورشيا). ولما كان الضامن

(١) دكتور إبراهيم حمادة : هوامش في الدراما والنقد، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٨) ص٩٣ – ٩٤.

(أنطونيو) معروفاً بين تجار البندقية وعند (شيلوك) بخاصة بثروته وممتلكاته وسفنه التجارية التي تملأ البحار، فقد أقرضه (شيلوك) المبلغ المطلوب شريطة أن يحق له أن يقتطع بنفسه رطلاً من اللحم من حول قلب أنطونيو إذا تأخر عن سداد الدين في الموعد المضروب. ويصر (شيلوك) على هذا الشرط، وهو يخفي رغبة دفينة في القضاء على (أنطونيو)، ويزعم له أنه لم يشترط هذا الشرط إلا على سبيل التفكه والدعابة البريئة. وقد كانت دواعي حقد (شيلوك) لـ (أنطونيو) أنه مسيحي كافر، وأنه يقرض الآخرين المال عن غير ربا، فينخفض سعر الفائدة في البلاد ! ولما كان (أنطونيو) على يقين من قدرته على سداد الدين، بل من سداده قبل الموعد المحدد، فإنه قبل هذا الشرط العجيب. ومما حمله على قبول هذا الشرط ظنه أن اليهودي ربما يغدو يوماً مسيحياً عطوفاً، كما يحمله على ذلك دافع قوى آخر هو رغبته الصادقة في أن يظفر (باسانيو) بالزواج من محبوبته الجميلة (بورشيا). ولم يكن (باسانيو) — بالرغم من حاجته إلى المال — أنانياً، فقد أخذ يحذر صديقه المخلص من شطط هذا المرابي في تنفيذ شرطه، إذا لم يتم السداد.

ويشيع في المدينة أن مراكب (أنطونيو) كلها قد غرقت في البحار (وهنا أول خيوط العقدة) ولم يبق له منها شيء. ويبتهج (شيلوك) لهذا النبأ بالطبع، ويشاركه ابتهاجه صديقه اليهودي اللئيم (طوبال). ويصر (شيلوك) على اقتطاع رطل اللحم من حول قلب أنطونيو شفاء للغليل.

وفي المشهد الثاني من هذا الفصل (مشهد المحاكمة) يزداد عناد (شيلوك) وإصراره على تنفيذ شرطه؛ فقد فات موعد السداد. ويبدي (باسانيو) استعداده للتصرف في الدين وسداده أضعافاً إنقاذاً لصديقه الوفي. ولكن (شيلوك) يؤثر اقتطاع رطل من لحم (أنطونيو) على عشرين ضعف للمبلغ الذي أقرضه إياه. وهنا يفتضح أمر (شيلوك) ومراميه الدفينة. وتحتال (بورشيا) للأمر، فتبدو في مشهد المحاكمة في زى محام.

ويطول الجدال وتشتد المساومة بينها وبين (شيلوك) — بنص قانون البندقية الذي يريد الاحتكام إليه — أن يستحضر على نفقته جراحاً، حتى يوقف ما ينزف من دماء عند اقتطاع رطل اللحم المطلوب، حتى لا تتعرض حياة خصمه للخطر. فالوثيقة لا تمنحه حقاً في استنزاف قطرة واحدة من دم خصمه، وإلا قضى قانون البندقية بمصادرة أملاكه كلها، وهنا يظهر (طوبال) في هيئة الصديق الناصح، فيطلب إلى (شيلوك) التراجع عن عناده، ولا يرى (شيلوك) أمامه إلا أن يطلب تسعة أمثال المبلغ.

وترفض (بورشيا) ذلك؛ فالعدالة تقضي بألا ينال شيئاً غير ما اشترطه بنفسه من جزاء. وتطلب هى إليه أن يهم باقتطاع رطل اللحم بلا إراقة دم لا حق له فيه، بل شريطة أن يكون رطلاً واحداً بالضبط، لا زيادة عليه ولا نقصان منه، وإلا صودرت أمواله لصالح البلدة.

هكذا تتعقد المسألة ويخيب أمل (شيلوك) في الخلاص من (أنطونيو)، ولا يجد له حيلة إلا أن يطلب أصل الدين فحسب. وترفض (بورشيا)؛ لأن (شيلوك) قد رفض ذلك علانية أمام المحكمة عدة مرات. ويضطر (شيلوك) — وقلبه مفعم بالحسرة والغل — إلى التنازل عن المبلغ. ولكنه يفاجأ بأن الحكم لم ينته بعد، وأن تنازله لا يكفي؛ ذلك أن قانون البندقية يقضي لكل مواطن تدبر ضده محاولة اغتيال من قبل أجنبي، بأن يحصل على نصف ممتلكاته وأن تحصل الحكومة على النصف الآخر. ولما كان (شيلوك) واقعاً تحت طائلة هذا القانون، فليس أمامه إلا أن يلتمس رحمة الدوق الذي خول له قانون البندقية التصرف في حياته نتيجة مخادعته. ويأمر الحضور بشنق (شيلوك) خلاصاً منه. بيد أن (أنطونيو) — يوازع من نبله وخلقه — يضرع إلى سمو الدوق راجياً نبالته أن يدع لليهودى نصف أمواله وممتلكاته. أما النصف الآخر الذي هو من نصيبه، فقد وعد بتسليمه كاملاً — بعد وفاة اليهودى — إلى (لورنزو) الذي هرب مع (جيسيكا) ابنة هذا اليهودى وتزوجها. ويذعن الجميع لمطلب (أنطونيو)، ويشعر (شيلوك) بذنبه، وبأنه يتعذب بكرم خلق (أنطونيو) وهيئة المحكمة.

ولما كانت (بورشيا) قد احتالت للأمر خفية، وبدت في هيئة محام دون أن يعلم (أنطونيو) و (باسانيو)، فإنها تكشف عن شخصيتها الحقيقية سعيدة بنجاة (أنطونيو) والعيش مع (باسانيو)، ففى ذلك كل الهناء والأمل.

ويختتم الكاتب هذا المشهد والفصل كله بصوت المنادى يعلن مفاجأة سارة مدهشة؛ فقد وصلت سفن (أنطونيو) سالمة وعليها بضائعه لم تصب بسوء ولم يغرق منها شيء.

أما الفصل الثاني، وقد جعله الكاتب تحت عنوان (شيلوك دائنا مدينا — أو عندما يسكر النبي دانيال)، ففيه يتغير الزمان والمكان، كما تتغير هيئات الشخصيات ولكن لا تتغير جواهرها. فمسرح الأحداث — كما يشير المؤلف — يقع في أراض عربية محتلة، ويعنى بها فلسطين حيث نفر قليل من اليهود الأوروبيين الوافدين حديثاً، انفصلوا مؤقتاً عن كتيبتهم كي يمارسوا بطولاتهم الخاصة. أما زمن الأحداث، فيمكن — كما يشير المؤلف — أن نتصوره يوماً من أواخر شهر يونيه (حزيران) عام ١٩٤٩.

ويريد المؤلف بذلك أن يؤكد فكرة جوهرية، هى أن شهوة اقتطاع (رطل من اللحم) مازالت باقية في آل (شيلوك) الجدد، مهما تجددت الأزمنة، وتغيرت الأمكنة، واختلفت ظواهر الشخصيات. فـ " شيلوك " في الفصل الأول هو نفسه الضابط الدموى (دانيال) في الفصل الثاني. وكذلك شخوص الضحية، فـ (أنطونيو) هو نفسه (مسعود) الشاب العربي الذي شوهت الحرب وجهه. و (باسانيو) هو نفسه (عبد الحميد) الثائر على الظلم والانتهازية. و (جيسيكا) ابنة (شيلوك) الهاربة بأمواله، هى نفسها (روث) المتمردة على بطش أبيها (دانيال) السفاح .. وهكذا.

ويبدو الخيط المضمونى — لا الموضوعى — الذي ربط هذين الفصلين في ضوء شهوة الانتقام عند كل من (شيلوك) في الفصل الأول وأحد أحفاده الضابط (دانيال) في الفصل الثاني. فلدى (دانيال) شراهة إلى القتل والدم. ويعرض الكاتب هذه الفكرة بحكاية بسيطة: فقد عثر (إيزاك) — وهو صول إسرائيلي خبيث محب للخمر — على وثيقة سرية مع فدائي عربي، ويعتقد (دانيال) أن الوثيقة تحوى شيئاً خطيراً. وهو لا يعرف من العربية شيئاً يسعفه بحل شفرة هذه الوثيقة. ولا يجد بين الجنود الإسرائيليين من يقدر على ذلك؛ فهم غرباء جاءوا — أو جيء بهم — من كل مكان. ويتحرق (دانيال) لمعرفة ما تحويه الوثيقة، وهو لا يثق بمن في أسره من العرب. ولكنه يضطر إلى ذلك، فيستحضر له جنديه الوغد (زاجورتسكى) أحد الأسرى المحتجزين ليفض له أسرار الوثيقة، وكان رجلاً عربياً مسناً لا يعرف القراءة، ولا يصدق (دانيال) ذلك، فيحاوره ويداوره ويهدده بالقتل، ثم يفعل فعلته، ويطلق عليه الرصاص. ويأتونه بشاب آخر هو (مسعود)، فيلقى مصير الشيخ. وهكذا يسلك (دانيال) مع كل من أتوا بهم إليه، ولا يهتدى إلى فحوى الوثيقة.

وتقتحم (روث) ابنة (دانيال) المكان؛ لتخبره قرار رحيلها عن إسرائيل. وهى تبدو متعاطفة مع العرب مدافعة عن الحق وعن الإنسان المستضعف أينما كان. ويعجز أبوها عن أن يثنيها عما انتوت. فتوغر — بذلك — صدره، فيوجه إليها تهمة عداء السامية. بل يشتط في قوته، فيأمر جنديه (زاجورتسكى) بقتلها، وقد زينت له نفسه أن ينشر على العالم نبأ قتلها على أنها ضحية لهمجية العرب.

ويريد المؤلف أن يفضح تعصب (دانيال) لجنسه ولدمه اليهودى، فيجعله يكشف عن سر (روث)؛ فهى ليست — في الواقع — ابنته، فقد تزوج أمها بعد وفاة أبيها في الحرب العالمية الثانية، واعتنقت الزوجة وابنتها الديانة اليهودية، ولكن الدم المسيحي — فيما يكشف (دانيال) عن كراهيته السوداء للأديان الأخرى — يجري في شرايينها !.

ويستمر إلحاح (دانيال) على السؤال عن مضمون الوثيقة السرية، وتستمر اللعبة الدموية، فيسوق إليه جنوده ثلاثة أشخاص واحداً بعد الآخر، هم الصبى (غسان) الذي يقرأ ما في الوثيقة هاتفاً. ولا يعى (دانيال) أنه يقرأ ما في الوثيقة حقاً، فيقتله؛ لأن ما سمعه منه هتاف بحياة فلسطين وسقوط إسرائيل. أما الشخصية الثانية، فهى (أمينة) التي لا تعرف القراءة وزوجها (عبد الحميد) الذي يرفض قراءة الوثيقة في تحدّ وشجاعة. ولكنه يستجيب لذلك شريطة أن يطلق (دانيال) سراح زوجته. ويوصى (دانيال) جنوده بالزوجة بعد رحيلها شراً، فيقتلونها، كما يقتل الزوج؛ لأنه صرح بفحوى الوثيقة.

ولا يزال (دانيال) يتحرق لقراءة الوثيقة اللغز، حتى يؤتى له بمترجم المخابرات (كوهين)، فيفاجئه وجنوده الحمقى بأن الوثيقة لا تحمل أى معنى سري، بل هى عبارات هتافية مكررة : " فلتحيا فلسطين، ولتسقط إسرائيل " ! !

ولقد لجأ الكاتب إلى حيلة فنية جديدة، حيث جعل الصول (زاجورتسكى) يدعو الجميع لفض الجدل فيما فاجأهم به (كوهين)، والانبطاح أرضاً، إثر توالي أصوات الانفجارات. ويسود ظلام دامس مخلوط بموسيقى حزينة، يعدل خلاله المنظر، ثم ترفع ستارة الفصل الثالث دون استراحة.

هكذا يتضح أن الكاتب قد كسر قاعدة عتيقة من قواعد المسرح الكلاسيكى، وهى وحدة المكان والحدث والشخصيات (التي تتطور عادة من فصل إلى آخر)، ليبنى عمله — بفصليه السابقين — على أساس (وحدة الفكر)، وإن تعددت وجوهها. ولذلك يبدو عمله وكأنه مسرحيتان في مسرحية واحدة.

وإذا كان (شيلوك) قد بدا في الفصل الأول دائناً مديناً، وفي الفصل الثاني (في صورة دانيال) دائناً دائناً، فقد جاء عنوان الفصل الثالث متسائلاً : " مدين أم دائن ؟ ". ويعنى ذلك أن ختام الرواية معقود بإرادتنا : أن نكون مدينين؛ فتقتطع من أجسامنا أرطال من اللحم وتمارس ضدنا اللعبة الدموية، أو أن نكون دائنين، فتعلو أيدينا وتحفظ كرامتنا. وهذا هو محور البنية الأيديولوجية للنص. إنه — إذاً — صراع القوة والضعف، صراع المستضعف (بكسر العين) والمستضعف (بفتحها)، فأى الطرفين تختار ؟

من هنا يرشد الكاتب مخرج المسرحية إلى أن يجعل بقعة الضوء تتحول تدريجياً بمصاحبة الموسيقى إلى علامة استفهام ضخمة، تنعكس على ثلث الستارة الأخير، بينما يبدو على الثلث الأول رسم لـ (شيلوك) الذليل، والثلث الثاني صورة لـ (دانيال) الدموى، تذكرة وتوجيهاً لاختيار المصير !

ولعل انتفاضة الحجارة هى البشارة التي يمكننا أن نجعلها أول خيوط الفصل الثالث الناقص. وكان طريفاً أن يلمح الدكتور حمادة إلى هذه الفكرة على ظهر غلاف المسرحية، من خلال قصيدته الدرامية (نشيد الحجارة)، والتي جعلها – كما ذكر هو نفسه – (من الفصل الثالث). وجعل بعض مقاطعها تأكيداً للبنية الأيديولوجية الكلية فى المسرحية وتلخيصاً لأفكارها الجزئية :

. إن فجر الضعفاء، لبعيد.

. إن فجر الثائرين، لقريب.

. إنما العاجز من لا يستبد.

(٢) تحليل النص :

أ – رطل اللحم وتوظيف النص الشكسبيرى :

لا شك أن أول ما يستوقفنا في هذه المسرحية هو توظيف النص الشكسبيرى في عرض صورة الماضي الذي يمثل البنية التاريخية للماضي الأليم، فقد كانت شرور اليهود مألوفة لجمهور شكسبير. وإذا كان هذا التوظيف قد جاء من نص مسرحي عالمي، فإنه نوع من حوار الثقافات الذي يصور وحدة فكرية واحدة، مهما اختلفت الأجناس والمصائر، ومهما اختلفت الأزمنة والأمكنة. إن توظيف النص الشكسيبرى – وهو هنا بمثابة الشاهد التاريخي– أتاح فرصة لعرض صورة اليهود من منظور آخر غير عربي. وإذا كان صوت القانون والعدالة لم يغب في (تاجر البندقية) أو الفصل الأول من (رطل اللحم) إذا اقتصّت رغبة (شيلوك) الدموية في اقتطاع رطل اللحم من جذورها، فإننا نفتقد العدالة والقانون في الفصل الثاني من مسرحيتنا. ومن هنا كان عنوان الفصل الأول منها (شيلوك دائناً مديناً)، بينما جاء الفصل الثاني – كما ذكرنا – تحت عنوان (شيلوك دائناً دائناً .. أو عندما يسكر النبي دانيال). وسكر النبي (دانيال) رمز لغيبة العدالة والقانون.

وإذا كان الدكتور حمادة قد بنى فصله الأول على ترجمة أجزاء متفرقة منتقاة من نص شكسبير، فقد اقتضته الضرورة الفنية أن يترجم تلك الأجزاء ويربط بعضها بالبعض الآخر في إطار متوحد من الزمان والمكان والموضوع، حتى يمكنها أن تكوّن وحدة عضوية ذات تأثير واحد[1]. ومن هنا كان صنيع الدكتور حمادة أقرب إلى باب إعادة البناء Reconstruction للمتن الشكسبيرى. وهو يختلف عن الاقتباس في أن المقتبس يلتزم عادةً بالجانب اللفظى من

(١) انظر تنبيه المؤلف ص٣٠ .

الأجزاء المقتبسة التزاماً حرفياً، بينما تصرف الكاتب هنا كثيراً فيما انتقاه من النص الأصلى بالإفادة والتعديل في الصياغة الشكلية واللغوية. وأضرب الآن أمثلة على ذلك :

(أ) تتعرض بعض المشاهد في (تاجر البندقية) للاختزال في (رطل اللحم). وتختلف درجة الاختزال تبعاً لما يقدمه للموضوع من خيوط جديدة. ومثال ذلك ما فعله الدكتور حمادة بالمشهد الأول من الفصل الأول من (تاجر البندقية)، فقد حذف حذفاً كاملاً حواراً دار بين (أنطونيو) وصديقيه : (ساليريو) و (سولانيو) حول خوف (أنطونيو) وقلقه على سفنه. وعنى الدكتور حمادة من هذا المشهد بما يقدم الخيط الأول لأحداث المسرحية؛ إذ يطلب (باسانيو) من صديقه (أنطونيو) مبلغاً من المال، يكفيه للزواج من فتاة (بالمونت) الجميلة (بورشيا).

(ب) بل قد يحذف أحد المشاهد برمته؛ كالمشهد الثاني من (تاجر البندقية)، وهو حوار بين (بورشيا) ووصيفتها (نيرسيا). وذلك لضرورة فنية اقتضتها الحبكة المسرحية في (رطل اللحم)، كما اقتضتها وحدة الموضوع.

(ج) أما تنظيم المشاهد وترتيبها بين العملين، فليس منتظماً؛ فالمشهد الأول من (رطل اللحم) مثلاً، هو المشهد الثالث والأخير من الفصل الأول في (تاجر البندقية).

(د) ومن صور الاختزال تجنباً للإطالة وإن كان المختزل ذا قيمة درامية وتشويقية كبرى، ما نجده فيما يفعله الدكتور حمادة بالمشهد الثاني من الفصل الثاني من (تاجر البندقية)؛ فهو بين (لونسلو) خادم (شيلوك) وأبيه (جوبو) الشيخ. وقد خفى عن (جوبو) أن ذلك والده، فهو يدخل إلى المسرح سائلاً عن والده، ولم يكن قد رآه من زمن. ويدور بينهما حوار قوامه المقارنة الساخرة، يبدو فيه (لونسلو) مهرجاً ظريفاً، وقد عزم أن يولى الأدبار ويترك خدمة اليهودى.

أما في (رطل اللحم)، فقد حذف الكاتب مفارقة جهل أحدهما بالآخر، واكتفى بمضمون الحوار بينهما عن رغبة (لونسلو) في الهرب.

(هـ) ومن صور التعديلات والتغييرات كذلك أن مؤلف (رطل اللحم) كثيراً ما يزيد على النص الشكسبيرى عبارات وجملاً ليست فيه، ولا سيما العبارات التي تظهر (أنطونيو) في صورة إنسانية مثلى، صورة من يسعد بالتضحية في سبيل صديقه، أو عبارات أخرى على النقيض من ذلك وهى التي تدل على خبث (شيلوك) وقسوته وحقده على أنداده.

ولنمثل للتعديل : بالحذف والزيادة، بالقطعة الحوارية التالية بين (باسانيو) و(شيلوك) (ونحن نعتمد في هذه المقارنة على أحدث ترجمات " تاجر البندقية " إلى العربية وأدقها في نظرى. وهى ترجمة شعرية بديعة للدكتور محمد عناني) :

تاجر البندقية (ص٦٤) :

باسانيو : (صائحاً بحدة) هل تسمعنى يا شيلوك ؟

شيلوك : كنت أراجع بعض حساباتي .. وإذا صدقت ذاكرتى.

لا أعتقد بأن لدى المبلغ كله ..

لا .. ليس ثلاثة آلاف .. لكن لا تقلق !

فسأحصل من (توبال) عليه .. فهو العبرانى الموسر

كم عدد شهور القرض ؟

(يلتفت إلى أنطونيو لأول مرة)

فلتهنأ بالصحة يا (أنطونيو)

كنا فى ذكرك من لحظة !

رطل اللحم (ص ٣٨) :

باسانيو : (داخلا مع أنطونيو) ماذا تقول لنفسك ياشيلوك ؟

شيلوك : لاشئ .. أحصى مالدى من مال فى الوقت الحاضر. وأعتقد أنى قادر على تقديم الثلاثة آلاف دينار (يشير أنطونيو محييا ، فينافقه شيلوك). أهلا .. أهلا .. طاب وقتك ياسيدى أنطونيو .. ياعظيم .. لقد كنا نتكلم عنك .. وكنت أعبر للسيد باسانيو عن حبى الزائد لك. وبعيدا عن الاختلافات الأسلوبية المتوقعة بين الترجمتين (مثل : ماذا تقول لنفسك .. الخ، فى مقابل : أتسمعنى ؟) وعن الفروق الجمالية بين ترجمة نثرية وأخرى شعرية، أو بين ترجمة فنية بالمعنى وترجمة لغوية باللفظ والمعنى، فإن الذى يعنينا هنا هو إبراز الزيادات الدالة التى أضفاها الدكتور حمادة على نص شكسبير؛ ليفضح ما فى شخصية (شيلوك) من دهاء واحتيال (وراجع العبارات الأخيرة من كلام شيلوك فى رطل اللحم والتى خلا منها نص شكسبير).

وأود الآن أن أشير إلى مسألة مهمة، وهى أن الدكتور حمادة قد حذف من النص الشكسبيرى أشياء كان يمكنه أن يستيقيها فى نصه ويفيد منها فى مغزى المسرحية؛ فقد كان يمكنه — مثلا — أن يستبقى مقولة الدوق، لأنها تخدم مغزى المسرحية وفكرتها الجوهرية. يقول الدوق (فى ترجمة دكتور عنانى ص ١٥٩) :

الدوق : إنى يا (أنطونيو) آسف لك !

فالخصم أمامك ذو قلب كالصخر

لايعرف معنى الإنسانية والشفقة

خاو منها خال حتى من ذرة رحمة !

بينما يكتفى الدكتور حمادة من هذا الكلام بقول الدوق (فى نصه ص ٦٦) :

الدوق : وأنا آسف لما أصابك أيها التاجر النبيل .. إنك تواجه خصما قد قدّ قلبه من الصخر.

ب – بنية النص وطبيعة الحبكة :

ويدعونا بناء الكاتب مسرحيته على النحو الذى عرضناه آنفا إلى تحديد نمط الحبكة، ونحن نميل إلى اعتبارها حبكة بسيطة فى كلا الفصلين، لا حبكة مزدوجة. وإن كانت فى الفصل الأول أميل إلى ما أسماه دكتور محمد عنانى بـ (الحبكة المضفرة)[١]. فليس فى كلا الفصلين إلا حدث رئيس واحد، وما كان من أحداث جزئية فهى متفرقة عن الحدث الرئيس، وليست موازية له. فإذا كان الفصل الأول يبدو ظاهريا متضمنا لحدثين هما خطبة (بورشيا) وسداد دين (أنطونيو)، فالواقع أن الحدث الأول لا ينفصل عن الحدث الثانى، بل إنه هو الذى يؤدى إليه؛ ذلك أن (باسانيو) – بإقتراض المال للزواج من (بورشيا) – قد أوقع (أنطونيو) فى شراك (شيلوك). فكلا الحدثين مضفر فى حبكة واحدة من الداخل، وهما ينتهيان معا إلى نقطة واحدة هى التى بدأت بها المسرحية، أى رغبة (باسانيو) فى الزواج من (بورشيا)[٢].

أما الفصل الثانى، فالحبكة فيه بسيطة، وأدنى من أن تكون مضفرة. وليس رحيل (روث) وتمردها على أحلام أبيها الشيطان إلا رد فعل سلبى لممارساته الوحشية ضد العرب. وكم كنت أود (تضفير) الحبكة أو تعقيدها فى هذا الفصل الثانى ليكون تصعيدا دراميا عميقا لمضمون الفصل الأول.

ج – استراتيجية التشخيص :

لاشك أن عملية خلق الشخصيات الدرامية عملية إبداعية معقدة ؛ فهى تحتاج إلى موهبة وخبرة وثقافة واسعة ووعى دقيق بخفايا الشخصية وما يمكن أن تسلكه أو يصدر عنها فى كل حال. وإذا كان الفن المسرحى تمركز حول الصراع Centering Upon Conflict فإن النص المسرحى لايجدى معه التشخيص من الخارج، بل لابد أن يكتشف الكاتب أبعاد

(١) انظر مقدمته لتاجر البندقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٨) ص٣٠.

(٢) المرجع السابق ص٣٠.

الشخصية المختلفة. فالعقدة مرتبطة بالشخصيات ومتعلقة بها. ولا ينبغى أن يعلق الكاتب شخصياته فى عقدته. ولم تغب هذه الأمور عن بنية (رطل اللحم)؛ فتطور الأحداث إلى العقدة يصنعه سلوك الشخصيات وتصرفات بعضها تجاه البعض الآخر. ويأخذ ذلك هنا صورة أساسية هى صورة الشد والجذب بين الشخصيات المحورية الثلاث : شيلوك فى ناحية، وأنطونيو وباسانيو فى ناحية أخرى (فى الفصل الأول)، ودانيال ومساعده زاجورتسكى فى ناحية وعبدالحميد زوج أمينة ورفاقه فى ناحية أخرى (فى الفصل الثانى).

هذا الشد والجذب : فعلا وقولا، أو بلغة الدراما الصراع، هو الذى يحرك الأحداث ويحدد علاقاتها فيما بينها. ويرتبط هذا الصراع بأهم مقولات استراتيجية التشخيص الدرامى، وهى (مقولة التغير)، بمعنى تغير الشخصية وتطورها مع الأحداث، حتى وإن بدا ذلك من الشخصية تطورا مفتعلا، فهو دال على سلوكها كذلك. وهو مانجده هنا فى مهادنات (دانيال) تارة وتهديداته تارة أخرى. كما نجده فى بشاشة (شيلوك) للانتقام صراحة تارة، وإخفاء حقده الأسود على غير بنى جنسه تارة أخرى.

وللشخصية أبعاد ثلاثة هى : البعد الفسيولوجى، والبعد السوسيولوجى، والبعد السيكولوجى. ولعل أهم هذه الأبعاد التى ارتكز عليها الدكتور حمادة فى رسم شخصياته هو البعد السيكولوجى الذى يعرّى الشخصية من الداخل، وإن كان ذلك فى الفصل الأول، لاسيما مع (شيلوك)، أظهر منه فى الفصل الثانى. وقد أفرز ذلك — مع (شيلوك) مثلا — وفرة من المفردات التىتدور حول الحقول الدلالية الفرعية للانفعالات والأحاسيس والمشاعر والدوافع والسمات الشخصية. وكثيرا ما كان يدع الكاتب (شيلوك) ليحادث نفسه. وهو شكل من أشكال التشخيص الثانوى، هو التشخيص بالمونولوج. ولهذا الشكل استراتيجية عمد إليها الكاتب عمدا، فالتشخيص بالمونولوج يفصح عن دخيلة نفس الشخصية وكأنها تعرى نفسها دون تدخل الكاتب، وتكشف عن مشاعرها الباطنية وسلوكياتها ومكنوناتها تجاه الآخرين. وكثيرا ما كانت حوارات (شيلوك) الداخلية مدارها شعوره نحو (أنطونيو) : رمز ديانة أخرى وشعب آخر، لايتوانى (شيلوك) اللعين أن يكيد لهما فى السر والعلن !

د — اللغة والشخصية :

لاشك أن عنصر اللغة الفنية من أهم العناصر الدرامية المكونة للمسرح، بل ربما كان أهمها ؛ إذ يتم توظيف النص الأدبى المسرحى باعتباره البنية الثابتة أو البنية العميقة deep Structure للعرض.

والتشخيص بالكلام، أى كلام الشخصية وصورها وطريقة أدائها وذكائها أو بلادتها من كلامها، ووصف مشاعرها، هو أهم عناصر استراتيجية التشخيص الثانوى. ولو أضفنا إلى ذلك العنصر لغة الحوار الداخلى Monologue لرأينا أن عملية إنتاج نص (رطل اللحم) قد اعتمدت على عناصر التشخيص الثانوى أكثر من اعتمادها على عناصره الأساسية المألوفة؛ كالتشخيص بالفعل والتشخيص بالفكر. ونحترز هنا بالقول بأن التشخيص بالفعل كان أكثر وضوحا مع بعض شخصيات الفصل الثانى، لاسيما (دانيال) ومساعديه. وإذا عددنا ما وقر فى ذهن (دانيال) وجنوده نحو الفدائيين والعرب الفلسطينيين، لاسيما نظرتهم إلى الحياة والوطن، وما وقر فى ذهنه — جهلا — عن تصفيتهم بالبطش والإذلال، إذا عددنا ذلك نوعا من التشخيص بالفكر، كان نص (رطل اللحم) قسمة بين عناصر التشخيص الثانوى فى الفصل الأول وعناصر التشخيص الرئيسى فى الفصل الثانى. ويصبح من المتوقع — بناء على النتيجة التى انتهى إليها هذان الفصلان — أن تكون عناصر التشخيص الرئيسى بالفعل والفكر معاً هى المهيمنة فى الفصل الثالث الناقص.

ونود الآن أن نعود إلى وسيلة التشخيص بكلام الشخصية. وهى — فى نظرى— أهم وسائل التشخيص وأقواها إثراء للبنية الدرامية فى هذا النص. وإذا كان الصراع فى الفصل الأول قد بدا فى جوهره فى صورة معنوية؛ أى فى صورة كشف سلسلة من الحالات النفسية والسلوكية مسئولة عن الفعل أو صادرة عنه، فقد جمع الفصل الثانى — إلى جانب الصورة المعنوية — صورة أخرى مادية، ونعنى بها فعل القتل والتعذيب.

وإذا كان الفعل فى الفصل الأول أقرب إلى الفعل الذاتى، باعتباره فى أساسه وصفا لسلوك (شيلوك) المعنوى تجاه الآخرين وسلوك الآخرين — بالتالى — تجاهه، فإن الفعل فى الفصل الثانى أقرب إلى الفعل الموضوعى، باعتباره — فى أساسه — ممارسات بدنية من قبل (دانيال) وجنوده ضد الآخرين.

من هنا كان حوار الشخصيات فى الفصل الأول أميل نسبياً إلى معنى الفعل، بينما كان أميل إلى الفعل الموضوعى فى الفصل الثانى. وهذا كله يبرر شاعرية الحوار وتكثيفه فى الفصل الأول، فى مقابل مباشرته ووضوحه الشديد فى الفصل الثانى.

ولو تأملنا النص الذى بين أيدينا، لرأينا أن مهارات الكاتب فى استنطاق شخصياته لم تكن وقفا على الشخصيات المحورية التى تصنع العقدة وتجسد الصراع؛ فقد حظيت شخصيات ثانوية — بالمعيار السابق — بعناية فائقة من الكاتب. ومثال ذلك شخصية

(لونسلو) – خادم (شيلوك) – ووالده (جوبو). فقد بدا (لونسلو) فى صورة مهرج المسرحية، فخلق جوا مرحا، يجدد نشاط المشاهد أو القارئ من ناحية، ويتيح – من ناحية أخرى – فرصة عرض شخصية (شيلوك) التى يزدريها، فيكثر السخرية بها والتهكم عليها ويكيل لها اللعنات والشتائم. يقول (لونسلو) إلى أبيه (جوبو) الذى همّ بإهداء (شيلوك) هدية :

" قدم له حبل المشنقة بدلا من الهدية .. وقدم له طاعونا وكساحا وسلا رئويا .. لقد أماتنى جوعا وإهانة ابن العقربة هذا، حتى ليمكنك أن تعد ضلوعى بأصابعك "[1].

ويبدو أن السيد (جوبو) العجوز كان خفيف الظل كذلك، بل ربما كانت خفة ظل (لونسلو) امتدادا لخفة ظل والده. يرد (جوبو) على كلام ابنه السابق بقوله :

" واحسرتى ياابنى لونسلو .. ضلوعك بارزة وكأنها أرجل الكرسى "[2].

ويبدو (لونسلو) فى حالات أخرى منفلتا يهزأ حتى بنفسه. يقول – وقد ودّ لو نجا من (شيلوك) والتحق بخدمة السيد (باسانيو) – : " وإذا لم يقدر لى خدمة هذا السيد، فإنى سأضطر إلى أن أهيم على وجهى فى بلاد الله الواسعة كجحش بلا صاحب "[3].

وتتفجر سخريته باستخدام اللغة استخداما خاصا، قوامه التناقض والمفارقة فى صياغة الجملة، أو تكرار كلمة فى غير موضعها وفى غير مايسمح به النظام النحوى للغة. وهى صورة معروفة من صور التلاعب اللفظى. ولنتأمل ذلك فى المقطع الحوارى التالى بين (جيسيكا) و (لونسلو) :

جيسيكا : (فى رقة) لونسلو .. هل سلمت رسالتى إلى حبيبى لورنزو ؟

لونسلو : (مرحاً، بينما الأب جوبو يتطلع إليها فى اشتهاء) آه .. جيسيكا .. يالحسة العسل المشبع بعصير الباذنجان .. أجل سلمته إياها.

جيسيكا : هل قرأها؟

لونسلو : أجل ياجيسيكا قرأ إياها (يتراقص)

جيسيكا : هل فهمها ؟

لونسلو : أجل ياجيسيكا فهم إياها ..

جيسيكا : هل سيأتى ؟

لونسلو : أجل ياجيسيكا سيأتى .. إياها[4].

---

(١) رطل اللحم، دار فكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٩٨٨) ص٤٣.

(٢) رطل اللحم ص٤٤.

(٣) المرجع السابق ص٤٤.

(٤) المرجع السابق ص٤٤ – ٤٥.

ويجب أن نأخذ في الحسبان أثر هذه الإرشادات المسرحية (في رقة) و (يتطلع إليها باشتهاء) في رسم التقابل الحاد بين كلام (جيسيكا) الرقيق المنضبط من ناحية وكلام (لونسلو) الساخر المنفلت ونظرة والده العجوز على محدثته في اشتهاء من ناحية أخرى. وقد استخدم الكاتب حيلة أدائية أخرى في كلام (لونسلو)، هى التقليد أو (المحاكاة التهكمية). وهى – بالطبع – منصرفة إلى المخدوم المذموم (شيلوك). يقول (لونسلو) ساخراً بجشع (شيلوك) : " لقد ضقت بقوله لك زبون (يقلد شيلوك): " ألديك ما ترهنه كى أخرب بيتك فيما بعد؟؟ .. أتعرف ما هو سعر الفائدة ؟ " [١].

ويسخر في موضع آخر ببخله وحرصه على المال بالرغم من ثرائه، قائلاً : " أقسم بشرفي المهان دائماً أن ابنة شيلوك المليونير تحتاج إلى صدقة. (إلى أبيه) لقد مرضت جيسيكا ذات مرة، فأيقظنى أبوها في عز الليل، ليقول لي (يقلد صوت شيلوك): " لونسلو الكسول: أسلق نصف بيضة واحدة هذا الصباح، لأن جيسيكا مريضة ولم تفطر معى " [٢].

وقد ظهرت مع لونسلو حيلة أخرى هى (توظيف السجع) للإضحاك، كقوله إلى (جيسيكا) ساخراً، وقد سمحت لنفسها أخيراً أن تهبه فلساً عند رحيله : " فلس ؟؟ يالك من يهودية سخية، وحلوة وشهية !! " [٣].

بيد أن هذه الحيلة أكثر ظهوراً مع شخصية أخرى ظريفة هى شخصية (لورنزو) (عاشق جيسيكا). فعندما يدخل إلى المسرح والقناع على وجهه بعد حفلة تنكرية، تظنه محبوبته شخصاً غريباً، فتطلب إليه أن يبتعد عنها، فيقول لها : " من المستحيل أن أبتعد عن الساحرة النافرة، ذات العينين الفاجرتين (يحمحم حولها كالجوعان) ومستحيل أيضاً أن أوقف الوقاحة؛ لأن كل ما فيك يدعونى صراحة، إلى الوقاحة والبجاحة " [٤]. وعندما تتعرف إليه (جيسيكا) وتسأله : " أتحبني حقاً يالورنزو ؟؟ " [٥] يجيبها مستنكراً وهازلاً : "أحبك ؟ السماء وقلبي يشهدان على صدق غرامي المبرح، المقرح، وعلى أني قد أتيتك وفياً، رضياً، كي آخذك بعيداً عن أبيك، الديك " [٦]. هكذا يصبح السجع حيلة كوميدية. وإذا كانت حيلة السجع مع (لورنزو) تؤدي – من ناحية أخرى – وظيفة (تنوير التشخيص)،

(١) نفسه ص٤٤.
(٢)) نفسه ص٤٥.
(٣) نفسه ص٥٢.
(٤) نفسه ص ٥٣.
(٥) نفسه ص٥٣.
(٦) نفسه ص٥٤.

بمعنى وصف الطبيعة الأساسية في شخصيته، فإنها مع (لونسلو) – بالإضافة إلى الحيل الأخرى التي أسندها إليه الكاتب – ذات وظائف ثلاث :

(أولاها) أثرها في رسم شخصيته في ذاته، باعتبارها من الشخصيات المسرحية ذات اللمسات الخاصة، والتي لا تخرج – فيما اعتدنا – عن سمات شخصية الخادم.

و (ثانيتها) أثرها في إلقاء الضوء على ملامح صغيرة ودالة في الوقت نفسه من شخصية (شيلوك). وهى وسيلة مهمة لوصف شخصية معينة من وجهة نظر الآخرين، لاسيما إذا كان هذا الوصف ممن هو قريب من شخصية الموصوف.

و (ثالثتها) أن شخصية (لونسلو) قد أضفت على النص، وتضفى على العرض بالتالي، بعداً كوميدياً يخفف من رتابة الحوار وتكرار الأفكار بين (شيلوك) ومحاوريه من أنصاره وأنداده أحياناً. وقد كان للشخصيات الثلاث : (لورنزو) و (لونسلو) و (جوبو) أثر بعيد المدى في انتماء الفصل الأول من هذا النص إلى التراجيكوميديا Tragicomidy أو الكوميديا السوداء Grotesque.

وإذا كانت العصور الكلاسيكية قد حرصت على الحدود الفاصلة بين التراجيديا والكوميديا، فاليوم تجرى التجارب والمحاولات لصهرهما معاً في بوتقة واحدة. وما الدعابة أو الفكاهة السوداء أو الجروتيسك – كما يقول دكتور توماس أونجفاوى – إلا الأسلوب الجديد المستحدث للتراجيديا[1].

وقد كان شكسبير – في ذلك – سابقاً لعصره؛ فقد وعى – كما تدلنا "تاجر البندقية" باعتباره الأصل الذي أعيد بناؤه في الفصل الأول من " رطل اللحم " – وعى حقيقة من دقائق حقائق التقنية المسرحية التي يؤكدها النقد والإبداع الدرامي المعاصر، وهىأنه لا توجد صراعات تراجيدية مفتوحة ومطلقة؛ فقد يتوسل في تعميق هذه الصراعات ذاتها بضحكات وفكاهات قادرة على إرغام المتفرج على الضحك الأسيان.

وإذا راجعنا النص الشكسبيرى لرأينا أن الشخصيات الكوميدية الثلاث (لونسلو) و(جوبو) و (لورنزو) قد فازت بنصيب الأسد من الفصل الثاني من تاجر البندقية.

وجدير بالذكر أن الدكتور حمادة لم يلتزم – في رسم هذه الشخصيات – إلا بمرحها وسماتها العامة الساخرة التي ظهرت بها في نص شكسبير، وسمح لنفسه – في حدود خطة

(١) دكتور توماس أونجفارى : الدراماتورجيا المعاصرة، ترجمة دكتور كمال عيد، مجلة (القاهرة)، العدد ٩٥ – ١٠ شوال ١٤٠٩هـ / ١٥ مايو (١٩٨٩) ص٢١.

إنتاج النص – بشيء غير قليل من حرية استنطاق تلك الشخصيات بلغة هزلية تفوق في هزلها ما نجده في (تاجر البندقية). وانظر – مثالاً لزيادات الكاتب على نص شكسبير – قول (جوبو) يعرّف بنفسه :

" أنا اسمي جوبو، وهذا ولدي الفقير لونسلو .. كنا نسميه زليطع البريطع وهو صغير .. إذ كان كثير الزلطعة والبرطعة "[1].

وإذا كان (شيلوك) الفصل الأول أو (دانيال) الفصل الثاني هما الشخصيتان المحوريتان في هذا العمل، فإن إلحاح الكاتب على وصف بخل الأول ونفاقه وانتهازيته وتعصبه لجنسه، وعلى وصف غطرسة الثاني وعربدته وامتهانه كرامة أصحاب الأرض، قد وسم حوارهما بالتكرار المثير للسأم في مواقف غير قليلة.

وربما كان التكرار والإلحاح على الفكرة من الحيل الدرامية المهمة التي يحتال بها الكاتب عن قصد وعمد لاستثارة السأم ومشاعر الكراهية والحنق في نفس المتلقى أو المشاهد تجاه مثل هذه اللشخصيات. بيد أن هذه الحيلة سلاح ذو حدين : فقد يحقق غايته، وقد يصرف الملتقي حيناً حتى يشده موقف جديد.

وقد نرى ذلك على وجه الخصوص في مشهد الاقتراض في الفصل الأول، ومشاهد إصرار (دانيال) على فك رموز الوثيقة والتعذيب في الفصل الثاني.

وإذا كان الكاتب قد نجح إلى حد كبير ـ يعينه في ذلك خبرته وحسه الدرامي المرهف – في تحويل لسان (شيلوك) وتوجيهه من حال إلى حال، فإنه لم يحقق ذلك تماماً مع (دانيال) الذي ظلت لغته الخطابية زاعقة. وكان يمكن الكاتب أن يظهره على الناس في شيء من دهاء (شيلوك) وخبثه. وقد توسل الكاتب في رسم شخصية (شيلوك) من خلال لغته بوسائل مختلفة، نذكر أهمها فيما يلي :

(أولاً) استخدام اللغة استخداماً خاصاً، يكشف عن مقته وهزئه بغريمه (أنطونيو)؛ كقوله لنفسه : " آه من هذا الأنطونيو "[2]. فأداة التعريف مع المعرف تنم عن حقده الدفين وتحينه فرصة للإيذاء.

(ثانياً) تغير نبرة الكلام، مما يكشف عن نفاقه ودهائه؛ فبعد أن يوقع (شيلوك) كلاً من (أنطونيو) و (باسانيو) في أحابيله بتوقيع العقد، يودعهما بقوله : " صاحبتك السلامة يا

(١) رطل اللحم ص٤٦.
(٢) المرجع السابق ص٣٧.

سيدي أنطونيو، وزواج سعيد يا سيادة النبيل باسانيو " [1]؛ فالإضافة إلى الياء في (يا سيدي أنطونيو) واللغة الرسمية المهيبة في (يا سيادة النبيل باسانيو) يحملان — في هذ السياق — معنى السخرية بالرجلين ونجاحه في خداعهما أكثر مما يحملان معنى الاحترام والتوقير.

ولا شك أن أداء هاتين الكلمتين على خشبة المسرح سوف يقتضي من ممثل شخصية (شيلوك) أن يعض عليهما بالنواجذ !

(ثالثاً) تسلسل الجمل والعبارات المقتضبة التي تظهر حب (شيلوك) للوضوح التام في المسائل المالية؛ فهو يلخص موضوع الحوار الذي جرى بينه وبين (باسانيو) عن القرض وسببه ومدته وضامنه، بقوله : " ثلاثة آلاف دينار، لمدة ثلاثة أشهر، وأنطونيو هو الضامن، وستأخذ أنت هذا المبلغ، لتذهب إلى مدينة بلمونت، لتزوج بورشيا. أليس هذا هو ملخص الموضوع يا سيد باسانيو" [2].

(رابعاً) التنقل بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي حسبما يقتضي موقف الخطاب. ونجد ذلك في موقف تشدد (شيلوك) في اقتطاع رطل اللحم وتشفيه بقوله : " لا.. لا .. لقد أقسمت أن أنال حقي كما نص عليه الصك. أتذكر عندما كنت تدعوني بالكلب؟ فإذا كنت أنا كلباً فاصبر على وخز أنيابي ! ! " [3]. والانتقال إلى الإنشاء يفضح مكنونات نفسه، كما يفضح نشوته بموقف المنتصر الذي يتصيد لغريمه هفواته القديمة.

والحق أن الفصل الثاني لم يخل من مهارة الكاتب في رسم بعض شخصياته من خلال اللغة. ويلفت النظر هنا بشدة استخدام اللغة على لسان (مسعود) — الذي شوهت الحرب وجهه وذهبت بعقله — استخداماً بارعاً خارق البراعة؛ حيث تتخلخل العلاقة بين البنية السطحية والبنية العميقة في كلام (مسعود) ، ويصبح تفكك لغته وفقدانها المعنى أداة خطيرة في صناعة النص الدرامي، إذ يعمق الجد بالعبث، والتراجيديا بالكوميديا، ويصبح (مسعود) حالة تشهد على عصر فقد معناه واختلطت فيه الأمور.

إن كلام (مسعود) يمارس وظيفته من خلال تصادمه — وتقاطعه أحياناً — مع كلام (دانيال).

ومن تصادم الخطابات وتقاطعها يولد التوتر الذي يعلو وتزداد حدته مع فقدان الأمل في التقاء هذه الخطابات حول معنى مفيد. ولنتأمل ذلك : فإذا طلب (دانيال) إلى (مسعود) أن يدلي بأقواله عن الوثيقة السرية وصاحبتها، قال (مسعود) وهو يضحك ضحكات هستيرية :

---

(١) نفسه ص٤٩.

(٢) نفسه ص٣٦.

(٣) نفسه ص٦٤ — ٦٥.

" الهم داخل في عين النحلة .. وهربت به داخل الكهف "[1].

وإذا سأله (دانيال) : هل يعرف القراءة ؟ يرد (مسعود) — إكمالاً للاسترسال لا إجابة مفيدة عن سؤال — : " وأخى هرب أيضاً لأنه محشوّ بالقش .. ولكنه تحول إلى جرادة تزحف فوق عنق الياسمين وتأكل الوريقات البيضاء وتخيف الفراشات .. لا عمل لها غير ذلك .. شجاعة، أليس كذلك ؟؟"[2].

وعندما يسأله (دانيال) : هل ذهبت إلى المدرسة ذات يوم ؟ يرد (مسعود) : " نعم .. رأيت القمر الأحدب، وعلى وجهه عفن أسود، بينما كان يخرج من الشمس المهشمة دم كثير جداً .. تصور ! ! اغتالوا الضياء كله .. أقسم لك أيها القاضى بكل المقدسات بأنى ركبت العنكبوت، وصعدت تلاً عالياً، وجدت عليه بطيخاً وبقرة وفيتنام الجريحة .. كانت أمريكا هناك كالغول تلعب الشطرنج وحدها وقد ربطت فى ذيلها ثعباناً قصيراً .. قزماً "[3].

هكذا يبدو كلام (مسعود) استرسالاً لا يتعلق بكلام محاوره ولا يدل — مع تفسير المستوى الداخلى من كلامه تفسيراً حرفياً — على معنى مفيد. فما معنى دخول السهم فى عين النحلة ؟ وما معنى حشو أخيه بالقش وتحوله إلى جرادة تزحف فوق عنق الياسمين ؟

إن استرسال (مسعود) وغيابه فى الماضى — باعتباره أحد ضحاياه — يعنى — من ناحية أخرى — انقطاعه عن الحاضر. وليس فى الحاضر إلا العذاب الذى سيلقاه إن لم يجب (دانيال) ما سأل. ولأن الماضى والحاضر كلاهما عذاب، فكلاهما فاسد، ولابد من تغيير الحاضر الفاسد من أجل مستقبل أفضل. وإذا كان (مسعود) عاجزاً عن هذا التغيير لظروفه الخاصة، فإن عجزه هذا هو نفسه الذى يولد فى نفوس المتلقين الرغبة فى التغيير المنشود، وإلا كان مصيرهم مصيره.

وغنى عن القول أن الكاتب لا يريد هنا أن يستعرض مقدرته على محاكاة لغة المخبولين؛ وإنما أراد أن يخلق بها موقفاً درامياً تعمق فيه التراجيديا بالكوميديا، فقد تضحك من غرابة حديث (مسعود) فى ذات الوقت الذى نحزن أو نبكى عليه فيه لما أصابه بدنياً ونفسياً. وسيصبح حديثه — من ناحية أخرى — مثيراً قوياً للثورة على ما يفعله (دانيال) وجنوده بالأبرياء.

---

(١) نفسه ص١١٤.
(٢) نفسه ص١١٤.
(٣) نفسه ص١١٤ — ١١٥ .

وإذا كان كلام (مسعود) يثير فى نفوسنا الحزن وينتزع منا الضحك فى آن واحد، فلابد أنه قد أصاب معنى ما، حتى وإن كان معنى كلياً تماماً يحتمل التأويل فى وحداته الصغرى. ويساعدنا فى إدراك هذا المعنى الكلى أمران :

(أولهما) المستوى الخارجى للكلام الذى يعلو فيه المتلقى على المسموع بحرفيته، لينشط فى فهمه وإدراكه من خلال (وحدة الدلالة) فى النص أو العرض بكامله. ففى ضوء (وحدة الدلالة) النصية، يمكن أن يثير (دخول السهم فى عين النحلة) معنى التعذيب الوحشى، كما يمكن أن يثير (تحول أخيه إلى جرادة مخربة مخيفة) معنى نفاذ الصبر والثورة على هذا التعذيب ومقابلة الوحشية بالوحشية مهما يكن فيها أو ينتج عنها من تعدّ على رموز الخير والجمال كالفراشات والياسمين !

(والآخر) أن الغموض الذى نتج عن تفكك البنية العميقة للكلام قد يخفف بجملة أو عدة جمل تعين على الإمساك بالمعنى العام مثل (اغتالوا الضياء كله) ونحوها.

وينبغى الإشارة هنا إلى أن الكاتب قد أفاد إفادة عظيمة — فى حديث (مسعود) الأخير— من اثنتين من أهم القيم اللغوية الجمالية :

(الأولى) هى القيمة الدلالية الإيحائية للمزاوجات الوصفية، المكونة من صفة وموصوف، يرسمان صورة رمزية موحية؛ كالشمس المهشمة، والقمر الأحدب، والضياء المغتال — وترمز جميعاً إلى الخراب والوحشة.

(الثانية) هى القيمة الأسلوبية لعطف المفردات من فصائل دلالية متباينة تبايناً شديداً، مما يتيح لهذه المفردات المتباينات أن تخلق جواً من الكوميديا السوداء أو الجروتسك، كقوله: " صعدت تلاً عالياً، وجدت عليه بطيخاً وبقرة وفيتنام الجريحة " !

وإذا كان الصراع هو العمود الفقرى للعمل الدرامى، فإنه يصل إلى ذروته وصراحته ومباشرته فى بعض الأحيان مع التوتر الشديد فى انفعالات الشخصيات ومواجهاتها الحادة وخصوماتها الفكرية والمذهبية الصريحة. وتتوتر اللغة نتيجة لذلك. ويأخذ التعبير عن هذا التوتر اللغوى صورة (التوليد)؛ إذ يتحول (الحوار) إلى (محاورة) تقصّ فيها زوائد الكلام؛ وتقرع فيها الحجة بالحجة، ويدحض الرأى برأى آخر، ويكون كلام إحدى الشخصيتين المتحاورتين مناظراً لكلام الشخصية الأخرى فى نسقه اللغوى؛ أى من حيث وحداته اللغوية ونمطه التركيبى. ولعل من أفضل حالات التوليد الناتجة عن صراع الأفكار وتصاعد التعقيد، المحاورة التالية بين (شيلوك) و(باسانيو) (وخلفية المحاورة رفض باسانيو الأسباب التى أبداها (شيلوك) لإصراره على اقتطاع رطل اللحم) :

شيلوك : ليس من الضرورى أن تعجبك إجابتى يا سيد باسانيو ..

باسانيو : أتعتقد بأن كل إنسان يقتل كل من يكره ؟؟

شيلوك : وألا تعتقد بأن كل إنسان يحب من صميم قلبه أن يقتل كل من يكره ؟؟

باسانيو : ولكن ليس من الضرورى أن تؤدى كل إساءة إلى مثل تلك الكراهية البشعة ..

شيلوك : ولكن ليس من الضرورى أن تدع الثعبان يلدغك مرتين .. (ويضحك فى خبث)[1].

والحق أن حالات التوليد فى هذه المسرحية بالرغم من قلتها قد اختيرت أماكنها المناسبة.

وربما كان اقتصاد الكاتب فى حالات التوليد اللغوى المباشر راجعاً إلى رغبته فى إطلاق العنان لشخصياته لتكشف – على رسلها – عما تعتقده وتؤمن به وتسلكه تجاه الآخرين، دون أن تواجه دائماً بحكم الآخرين عليها حكماً صريحاً مباشراً، ويكتفى بعرض وجهات النظر والسلوك أمام المتلقى أو الجمهور ، ويصبح مدلول الحوارات هو الموضوع الجمالى Aesthetic Object الذى يثير المتلقى، فيتعاطف مع شخصية أو شخصيات معينة ضد أخرى، بناء على القيم الأخلاقية والاجتماعية التى يؤمن بها.

وليس معنى عرض صراع الأفكار عرضاً مباشراً أن الشخصيات تفكر بدلاً من المتلقى أو الجمهور، ولا يؤدى هذا العرض كذلك إلى خفض درجة الاستجابة، بل إن ذلك يثير الحماسة ويوقظ الوعى؛ لتقوى الاستجابة بالتعاطف والانتصار لإحدى الشخصيتين من خلال دحض الأخرى لآرائها وسلوكياتها دحضاً صريحاً مباشراً.

ويعتمد الكاتب على استدراج بعض الدوالّ على لسان إحدى شخصياته، وتلح الشخصية على ذكر دالّ ما فى كلامها. وذلك ليس اعتباطاً؛ فالدال – فى توظيفه درامياً للكشف عن جانب من جوانب الشخصية أو عن أهم جوانبها – يكتسب دلالات ثانوية؛ فقد كشفت الدراسات السيميوطيقية عن أن دور الدال – فى تمثيله لفصيلة كاملة من الأشياء – لا يستنفد مداه السيميوطيقى؛ فبالإضافة إلى دلالته الاصطلاحية يكتسب دلالات ثانوية تعرف باسم الدلالات المصاحبة Connotations. والدلالات المصاحبة – كما يعرفها كير إيلام K.Ilam هى وظائف دلالية طفيلية، حيث يصلح الدال – فى علاقة علامية ما – أن يكون

(١) نفسه ص ٦٨ – ٩٦.

أساساً لعلاقة علامية ثانوية، فالدال " تاج " مثلاً يكتسب الدلالات الثانوية التالية على المسرح : " الجلالة " أو " الاغتصاب " .. إلخ[1].

وإذا نظرنا إلى رطل اللحم، فإننا سنجد أن أهم دوال الفصل الأول الذى اكتسب دلالات مصاحبة هو دال (الصك) و (العدالة). ويمكننا أن نختار كذلك دال (السامية) فى الفصل الثانى.

أما دال (الصك)، فإن دلالته الاصطلاحية عقد بين متعاقدين حفاظاً للحقوق، ولكنه يكتسب فى علاقاته العلامية المختلفة على لسان (شيلوك) معنى طفيلياً أو ثانوياً هو أنه لعبة خادعة مدبرة ضد طرف آخر هو (أنطونيو) ليوقعه فى شراكه، ولم يكن أبداً بقصد الحفاظ على حقوق الطرفين ؛ وذلك أن (شيلوك) كان — كما قال (أنطونيو) نفسه — فى الجانب الأقوى. ويستدل على نيات (شيلوك) السيئة بكلامه نفسه : فكثيراً ما ألح على أن اقتطاع رطل اللحم ليس إلا على سبيل التفكه، وأنه مجرد دعابة وفكاهة يضحكون بها. ولكن لسانه يفضح حاله ويكشف ما فى صدره، فهو يلح فى النص على أن يقتطع بنفسه رطلاً من اللحم ومن الجزء الذى يختاره من جسم (أنطونيو) :

- " إذا لم توفّ الدين. كان الجزاء أن أقتطع بنفسى رطلاً واحداً من لحمك " [2].
- " ..أجل، أقتطع رطلاً من الجزء الذى أختاره من جسمك يا سيد أنطونيو " [3]

وليس ذلك كله إلا تجلياً من تجليات عقيدته التى تدفعه إلى أن (يقتل كل من يكره)[4].

وحديث (شيلوك) عن (العدالة) وما يدور فى دائرتها من ألفاظ مثل (الحق) و(القانون)، يجعل دال (العدالة) (وراجع هنا مشهد المحاكمة على الصفحات ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥) ينحرف عن مدلوله ؛ لأن (شيلوك) الذى يتظاهر بتطبيق العدالة، يريد — فى الحقيقة — قتل (أنطونيو) والخلاص منه.

وقد افتضح أمره بما جرى على لسانه فى مشهد المحاكمة من تهديدات صريحة وتلميحات إلى وخز الأنياب ولدغ الثعابين ونهش اللحم !

أما دال (السامية)، فإن حديث (دانيال) عنه بنبرته الخاصة، يجعله ينحرف عن الاعتزاز بالقومية عن حق وصدق، ليكتسب على خشبة المسرح دلالات ثانوية مثل : كراهية

---

(١) كير إيلام : العلامات في المسرح، ترجمة سيذا قاسم، ضمن كتاب مدخل إلى السيوطيقا، بإشراف سيذا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة (١٩٨٦) ص٢٤٣ — ٢٤٤.

(٢) رطل اللحم ص٤٠.

(٣) نفسه ص٤٠.

(٤) نفسه ص ٦٩.

الآخرين، والاغتصاب، واللصوصية، فعقيدة (دانيال) المتباكى على السامية تلخصها عبارته: " أنا أنتقم ، إذن فأنا موجود "[1].

هـ – البنية اللغوية للحوار :

لا شك أن الحوار المسرحى – كما يقول ميليت وبنتلى – صناعة، شأنه في هذا شأن جميع عناصر الأسلوب المسرحى الحرفي الأخرى[2]. ولعل أول ما يلفت النظر في صناعة الحوار في هذه المسرحية هو قلة إفادة الكاتب من معطيات اللغة المنطوقة[3]، باعتبار حياة النص المسرحي في أدائه الدرامي على خشبة المسرح وبين جمهور المشاهدين. فللأداء الدرامي متطلباته اللغوية الخاصة التي تخالف بين لغته المنطوقة واللغة المكتوبة. وكلما اقترب الكاتب من طبيعة اللغة المنطوقة بسماتها المختلفة : صوتياً وإيقاعياً ومفردات وتراكيب، كان الحوار طبيعياً أليفاً. ولو جاز لنا استخدام الاصطلاح الموسيقي (نشان)، لقلنا : إن اللغة المنطوقة على خشبة المسرح والتي تخاطب الجمهور خطاباً مباشراً دون حجاب، هي لغة ذات حساسية خاصة يستشعر فيها (النشان) أكثر مما يستشعر في اللغة المكتوبة. واللغة المنطوقة في الأصل هى ما ينطقه المتكلم وينطلق به لسانه على سجيته دون أن يخضع كلامه دائماً إخضاعاً صارماً لقواعد اللغة المكتوبة؛ فقد يغير مواضع النبر بالتقديم أو التأخير وقد يقف حيثما لا يجب الوقف، أو يصل ما حقه الفصل، وقد تقصر الجملة أو تطول، وقد يحذف منها كلمة أو أكثر، وقد تدخل على الكلمة الواحدة تنغيمات متباينة بتباين المدلولات، وكثيراً ما يحل هذا التنغيم محل أدوات الاستفهام، ولا يجد المتكلم بأساً من تكرار ما سبق ذكره .. إلخ[4].

ولا بأس من اصطدام المعنى الاصطلاحي للغة المنطوقة بلغة الحوار؛ فالكاتب يضع في حسبانه أن هذا الحوار المكتوب كتب لينطق به الممثلون ويؤدونه أمام جمهور، وكأنهم ينطقون به لأول مرة. وأظن أن هذه الحقيقة لا تغيب عن الكاتب المبتدئ؛ فهى جوهر صناعة الحوار الدرامي وأهم آلياته. وإنما الذي يمايز بين الكتاب في درجة الأخذ بها هو الموهبة والخبرة والحساسية اللغوية والفهم الدقيق لطبيعة الحدث والموقف والشخصيات.

---

(١) نفسه ص١١٨.

(٢) فدر ب . ميليت وجيرالد إيدس بينتلى : فن المسرحية، ترجمة صدقى خطاب، مراجعة دكتور محمود السمرة، دار الثقافة – بيروت (١٤٠٣ هـ – ١٩٨٦م) ص٤٩٣.

(٣) في التعريف باللغة المنطوقة والفرق بينها وبين اللغة المكتوبة يمكن مراجعة :

Gerd Schank – Gisel Schoenthal : Gesprochene Sprache, 2. ,durchgesehene Auflage, Max Niemeyer Verlag, Tuebingen (1983) S. 7

(٤) في التعرف على سمات اللغة المنطوقة ينظر المرجع السابق ص٩ وما بعدها.

ونعود إلى الملحوظة التي بدأنا بها الحديث، وهى قلة تعويل الكاتب على معطيات اللغة المنطوقة، لندلل على ذلك بما يلي :

(١) خضوع نظم الجملة لقوانين الفصحى المكتوبة، إلا في حالات قليلة نسبياً، أكثرها واقعة أول الكلام.

(٢) قلة حالات الحذف بنوعيه : الصوتى واللفظى.

(٣) عدم الاستعانة باللوازم اللغوية، وقد كان يمكن استثمارها مع شخصيات مثل (شيلوك) باعتبار المال مفتاح شخصيته، أو (لونسلو) باعتبار شخصيته المرحة، أو (زاجورتسكى) المنهمك في الخمر.

(٤) طول الجملة أحياناً طولاً ملحوظاً قد تقبله اللغة المكتوبة ولا تستحسنه اللغة المنطوقة، كقول (أنطونيو) مخاطباً صديقه (باسانيو) :

" وبعض التضحية بشيء من الأمن في سبيل أن تسعد بالمرأة الجميلة التي وهبتها كل أحاسيسك النبيلة أمر تحتمه الضرورة "[1]. ولا تحمل هذه الجملة معنى انفعالياً يبرر طولها الزائد. أضف إلى ذلك أن الإخبار عن المبتدأ على هذا النحو يعسّر على المشاهد أو المستمع مهمة المتابعة.

وقد كان أحرى بالكاتب أن يفك هذه الجملة المفرطة في طولها إلى جملتين أو أكثر، كما كان يجدر به أن يتخفف من كلمات أسهمت في هذه الإطالة، مثل: بعض، في سبيل، ونحوهما، لاسيما أن الجمع بين (بعض) و (بشيء من) في قوله (وبعض التضحية بشيء من الأمن ..) إثقال للكلام لا طائل تحته. ومن العوامل التي تساعد على استشعار (النشاز) في الحوار الدرامي كذلك أن نفاجأ بلفظ أو تركيب نحوى يعلو على المستوى اللغوى والثقافي للمتكلم. قد يستثنى من ذلك رغبة الكاتب في إظهار إحدى شخصياته في موقف ما في صورة المتفاصح لعلة فنية ترتبط باستراتيجية التشخيص وإخراج المشهد الدرامي إخراجاً خاصاً.

وغنى عن القول أن الدكتور حمادة يعي هذه الحقيقة التي تعد من أهم الحقائق الفنية في صناعة الحوار.

بيد أن النص الذي بين أيدينا لم يخل من بعض المفردات والتراكيب سامقة الفصاحة والتي يميل الحوار المنطوق إلى تجنبها، كقول (شيلوك) – مخاطباً (أنطونيو) في خبث– "

---

(١) رطل اللحم ص٤٣.

أريد أن أنسى ازدراءك إياي"[1]، أو قوله لـ (أنطونيو) أيضاً عن شرط القرض: "إنه مجرد شرط مضحك .. فكاهة نضحك لها .. أفي هذا ما يحنق ؟ "[2].

وإذا كان (لونسلو) الخادم يحب الفكاهة ويميل إلى المزاح والتخفف من صرامة الخطاب (بدليل استخدامه مفردات ارتبطت بمعجم اللغة العامية في حواره – أنظر مثلاً ص٥١)، فليس يناسبه ولا نتوقع منه أن ينطق بالجملة التالية لا مبنى ولا معنى : " أن تفلت من قبضة يهودى متيسّر، معناه أنك نجوت من الكوليرا "[3]. فكم تشي هذه الجملة بحضور المؤلف وتلقينه (لونسلو) مالا يقدر على اللفظ به !

ومن المسائل المهمة التي ينبغي اعتبارها في صناعة الحوار الدرامي أن الكلمة الواحدة قد تبدو مقبولة فى تركيب حيناً وغير مقبولة في تركيب آخر حيناً آخر. ومثال ذلك ما نراه من ثقل في التركيب الإضافي في قول (دانيال) إلى (عبد الحميد) : " فأرجو ألا تكون غبياً مثل هؤلاء الضيقي الأفق والصدر "[4]. ففضلاً عما في كلمة (الضيقي) من خطأ تعريف المعرف بالإضافة، فإنها – بلا ريب – لن تجرى على اللسان سهلة ميسورة.

ومن الأسباب المورثة للثقل كذلك الضمير المتصل بعد ياء المتكلم في مثل قول (عبد الحميد) – وقد سأله الضابط (دانيال) عن صنعته – : " صنعتى !! مللت تكرار الإجابة على هذا السؤال : مندوبو الأمم المتحدة وصحفيو العالم والمتفرجون من السياح، سألونيه ٥٠ مرة "[5].

فربما كان أفضل أن تفك (سألونيه) إلى (سألونى نفس السؤال)، لاسيما أن بعد المسافة بين موقعى كلمة (السؤال) يدفع عن المشاهد الاحساس بالتكرار.

وربما كان من قبيل التزيد في العبارة دخول كلمة (طول) في مثل قول (أنطونيو) مخاطباً (بورشيا) وقد ظنها المحامى : " وسنظل نلهج بحبك طول ما حيينا "[6].

فالجمع بين (طول) و (ما) الظرفية يفسد على هذه الجملة جمالها وفصاحتها، ولعل حذف كلمة (طول) من الجملة أنسب للأداء.

---

(١) نفسه ص٣٩.
(٢) نفسه ص٤٠.
(٣) نفسه ص٤٨.
(٤) نفسه ص١٣٨.
(٥) نفسه ص١٣٩.
(٦) نفسه ص٨٧.

ونحن قد نقبل من الدوق استخدامه همزة الاستفهام بخاصة كثيراً، فهى من أقل أدوات الاستفهام شيوعاً في العربية. وللدوق أن يتأنق في اختيار لغته ومفرداته، ولا ينبغي لمثله أن يسمح لخصومه المتقاضين وانفعالاتهم أن تفسد عليه هذا التأنق. ولكننا — في الوقت نفسه— نجد هذه الهمزة ذاتها ثقيلة في بعض كلام الآخرين؛ فربما قارننا بين قول الدوق مخاطباً (بورشيا) وقد تخفّت في زى محام : " أقادم أنت من قبل الأستاذ بيلاريو ؟ "[1] وقول (شيلوك) — مثلاً — وقد احتج على ما قضت به (بورشيا) : " أهذا ما يقول به القانون ؟ أمعقول ؟ "[2] لرأينا أن الحساسية اللغوية تقضى بأن الهمزة في كلام شيلوك تأنق لا يحتمله المقام، وهو في ثورته واحتجاجه. وحبذا لو حذفت الهمزة الثانية على الأقل واستعيض عنها بالتنغيم. ومما لا يناسب المقام كذلك قول (باسانيو) إلى صديقه (أنطونيو) في مشهد المحاكمة: " لا تهلع يا عزيزى أنطونيو، وتجلد "[3]. ففضلاً عما يجتمع في كلمة (تهلع) من ثقل صوتى وتفاصح لا مبرر له، فإنها تعبر عن درجة شديدة جداً من الخوف، ويدلنا المنظر على أن الأمر لم يبلغ بـ (أنطونيو) هذا الحد؛ فقد وطّن نفسه وأسلم أمره لتنفيذ شروط الوثيقة، ومن ثم يبدو أنسب للمقام أن تكون عبارة (باسانيو) أبسط من هذا بكثير؛ كأن يقول : "لا تخف يا عزيزى أنطونيو، وتجلد ". وتقودنا الملحوظات الفرعية السابقة إلى نتيجة مهمة، هى أن للحوار الدرامي سمات ومواصفات لغوية خاصة، وأن ما يصلح في اللغة المكتوبة لا يصلح بالضرورة في اللغة المنطوقة التي يصاغ الحوار الدرامي في ضوء خصائصها وقوانينها.

ونود أن نسجل ملحوظة أخيرة عن طبيعة الحوار في هذه المسرحية، هى أن الصقل والتكثيف الشعرى اللذين اقتضتهما بعض المواقف الدرامية كانا في الفصل الأول أكثر وضوحاً منهما في الفصل الثاني. ولعل وضوح هذه الصفات في الفصل الأول يرجع إلى أثر النص الشكسبيرى الذي لا ينكر في لغة الكاتب. أما الفصل الثاني، فيرجع افتقاره إلى الصقل والتكثيف المعتمد على الإيحاءات والكنايات والعبارات المجازية إلى بساطة الحبكة ومباشرة الحدث وتوالى الحوار في قالب استجوابي، لا تتخلله ومضات بلاغية وتشكيلات لغوية جمالية إلا في تلك المواقف الدرامية الصعبة القليلة التي كان (مسعود) أو (روث) طرفاً فيها.

*** *** ***

(١) نفسه ص٧١.
(٢) نفسه ص٨٠.
(٣) نفسه ص٧١.